المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثاني والتسعين

١ مايو سنة ١٩٣٨ — ١ ربيع اول سنة ١٣٥٧

بعد عهدي بعلم الفلك (١)

للدكتور فاوس نمر باشا

كنا سنة ١٨٧٤، نحسب بعد الشمس عن الارض ٩٥ مليون ميل، على اعتبار ان زاوية اختلافها الافقي الاستوائي ٨،٥٧٧٦ً، كما حسبهُ الفلكيون من عبور الزهرة على وجه الشمس سنة ١٧٦٩، ولكننا كنا نسمع أن بعض الذين جاؤوا بعدهم من الفلكيين، قاسوا زاوية اختلاف الشمس الافقي من النظر في اضطرابات حركات القمر، ومن رصد المريخ. وكان متوسط قياسهم لها أيضاً ٨،٩٤ أي اكثر من ذلك بأقل من ٣ أعشار الثانية من القوس. وذلك يجعل بعد الشمس عن الارض ٩١،٤٣٠،٠٠٠ ميل فقط. وكان الجميع ينتظرون أن يتوصلوا الى حساب أدق من ذلك حين عبور الزهرة على وجه الشمس، في ديسمبر ١٨٧٤، فلما حان الزمن كنت في بدء عهدي بعلم الفلك، وقد باهزت العشرين من العمر، فبت أترقب ذلك بشوق عظيم، كأني سأبلغ به غاية المقصود. ولكننا لما أصبحنا في ذلك اليوم، كانت السماء مطبقة بالغيوم، فخابت مني الآمال، واشتدت بي الغموم، وهرعت الى المرصد لاستقبال مديره، أستاذي المرحوم الدكتور « كريبلوس فان ديك »، فوجدتهُ مثلي كاسف البال، ولكنهُ مع ذلك يعلل النفس بالآمال، خلافاً لما كنت أنا عليه. فجعلنا كل لحظة نخرج من المرصد ونرقب وجه

(١) عن محاضرة الرآسة في المجمع المصري للثقافة العلمية بدورته السابعة

السماء فلا نجد إلاَّ سحاباً يظلو سحاباً ، حتى اذا اقترب ميعاد العبور ، رأيت السماء قد صحت واليوم انقشعت عن وجه الشمس ، فظهرت ساطعة في القبة الزرقاء . فأسرعنا الى المنظار والساعات المعدَّة لتقييد زمن العبور ، ووقف أستاذي يرصد الزهرة ، وأنا وابنته نقيد وقت مماسّتها لقرص الشمس ، وعبورها عليه بالساعات والدقائق والثواني ايضاً ، وانتهينا من ذلك على ما يرام ، وقضيت بقية يومي وانا آتيه تارةً عجباً وأطفر طوراً سروراً بما تمَّ . وفعل غيرنا مثل ما فعلنا في مراصد عديدة متفرقة على وجه الكرة ، ولما حسبوا حسابهم وجدوا انهم غير متفقين في زاوية اختلاف الشمس الافقي ، وان اختلافهم لا يزال يدور على كسر من الثانية من القوس ، بسبب الصعوبة في رؤية مماسة قرص الزهرة لحرف قرص الشمس بتمام الضبط والدقة ، ذلك لان الكسر الذي يساوي نحو ثلث الثانية من الزاوية ، لا يزيد عن غلظ شعرة من شعر الانسان إذا نظر اليها عن بعد ١٢٥ قدماً (أو أربعين متراً) ومع كل هذا الصغر وهذه الدقة في الزاوية ، فانها تحمل مقدار الفرق في بعد الشمس عنا نحو ٣ ملايين من الاميال . فبقينا حيث كنا . ثم عبرت الزهرة ثانيةً على وجه الشمس في ٦ ديسمبر ١٨٨٢ ، فقلنا في المقتطف عقب ذلك ما نصه :

« ولكن أبى الطقس الذي قضينا زهرة العمر في رصد تقلباته ومراقبة أحواله ، إلاَّ ان يحرمنا مرآها ، فسدل على وجه السماء برقع السحاب صفيقاً مليداً لا تذيبهُ حرارة الشمس ، ولا تنفذه اشعة نورها . فانثنينا عن المنظار آسفين ، وودعنا الزهرة وراصديها ، عالمين أنا لن نرى عبورها ، لانها لا تعود تعبر قبل مئة وإحدى وعشرين سنة ونصف سنة ، بعد أن ينقضي العمر ، وتمحي عظامنا رميماً »

وما زال الفلكيون بعد ذلك يقيسون زاوية الاختلاف هذه بطرق مختلفة ، كانحراف النور ، ورصد احدى النجيمات حين اقترابها من الارض ، حتى علمت من مطالعاتي ان مؤتمر باريس الذي عقد سنة ١٩١١ ، أعتمد على حساب بعد الشمس عن الارض ٩٢٫٨٧٠٫٠٠٠ ميل . ولكن المتفق عليه الآن أن زاوية الاختلاف الاستوائي ٨ر٨ وهي تساوي ٩٢٫٨٩٧٫٠٠٠ ميل ، والفرق (٢٧٫٠٠٠) سبعة وعشرون الف ميل ، فلا نحاسبهم عليها

***

كان آخر عهدي بعلم الفلك ، أن النظام الشمسي مؤلف من الشمس وثماني سيارات فقط ، تدور حول الشمس عدا النجيمات والمذنبات والنيازك والشهب . ولكنهم كشفوا بعد ذلك ، اي سنة ١٩٣٠ سياراً تاسعاً سموه « إفلوطون » وهو (إله الجحيم والنيران المستبطنة الارض عند قدماء اليونان) واقع وراء « نبتون » ويبعد عن الشمس اربعين ضعفاً من بعد الشمس عن الارض . وأذكر بمزيد السرور والفخر من مطالعاتي لاخبار هذا السيار الاخير ، أنهُ كان

لحضرة اخينا الفاضل الدكتور محمد رضا مدير المرصد المصري بحلوان ، واحد اعضاء لجنتنا الموقرة مشاهدة تذكر فتشكر في رصد هذا السيار بمنظار مرصد حلوان الماكس، وتصوير مواقعه لتتبع حركاته بين النجوم ، وتيسير حساب عناصره الفلكية على اهل الحساب

***

فارقنا مرصد بيروت سنة ١٨٨٤ ، وكان المعلوم حينئذ ان المريخ ليس له اقمار تدور حوله كالزهرة وعطارد، ولكنا علمنا بعد ذلك ان الفلكي «آصاف هول» مدير مرصد «وشنجتن» بالولايات المتحدة ، اكتشف له قمرين صغيرين سنة ١٨٧٧ ، واكبرهما لا يزيد طول قطره عن ١٥ كيلو متراً ، والآخر نصف ذلك القدر

وكان المعلوم ان للمشتري اربعة اقمار فقط ، اول من اكتشفها «غاليليو» بمنظاره سنة ١٦١٠ . ولكنهم اكتشفوا له خمسة أقمار اخرى بين سنتي ١٨٩٢ و١٩١٤ فأصبح عدد أقماره تسعة ، وهذه الاقمار تدور حوله في جهة دورانه على محوره ، الا الثامن والتاسع ، فانهما يدوران حوله في خلاف جهة دورانه ، اي على خلاف التوالي

وكان المعلوم ايضاً ان لزحل ثمانية أقمار فقط ، فاكتشف له الفلكي «بكرنج» قمراً تاسعاً سنة ١٨٩٩ . وهذا القمر التاسع يدور حول زحل في جهة مخالفة لجهة دوران زحل على محوره ، ولجهة دوران الاقمار الثمانية حول زحل

أما «اورانوس ونبتون» ، فلم يكتشف لهما اقمار اخرى غير الاربعة التي كانت معلومة «لاورانوس» ، والقمر الواحد الذي كان معلوماً «لنبتون»

وكان طول يوم السيار «اورانوس» ، اي مدة دورانه على محوره ، غير معلوم ، ولكن في سنة ١٩١٢ وجد الفلكيان «پرسيڤال لويل» و «سليفر» ، من رصد طيفه (بالسبكتروسكوب) الذي صنعه الاستاذ فؤاد صروف محرر المقتطف[1] وأجاد «بالمطياف» ، ان طول يومه ١٠ ساعات و٤٥ دقيقة . ثم أيدهما «مور» و «مِنزِل» الفلكيان في مرصد «لِك» بالولايات المتحدة ، سنة ١٩٣١

وكذلك السيار نبتون كانت مدة دورانه على محوره غير معلومة ، ولا تزال غير معلومة تماماً حتى الآن . ولكن «مور» و «مِنزِل» المذكورين آنفاً ، حسبا انها ١٥ر٨ ساعة . واستدل «مكسويل هول» من تغير إشراقه ، أن هذا التغير يتم في ٧ ساعات وخمسين دقيقة . فاذا حسبنا ان إشراقه يتغير مرتين في مدة دورانه على محوره ، كانت تلك المدة ١٥ر٤ الساعة . والاكثرون الآن على ان مدة دورانه على محوره بين ١٥ و٢٠ ساعة

---

(١) محرر المقتطف :— بمشاورة الاستاذ عبد الرحيم بن محمود

وكان عدد الكويكبات التي كنا نسميها نجيمات Asteroids يزداد ازدياداً مطرداً في عهدنا فقد اكتشف « بازى » الايطالي اول كويكب منها في سنة ١٨٠١ ، واكتشف غيره بعده ثلاثة أخرى، حتى بلغ عددها اربعة كويكبات سنة ١٨٠٧ ، وبعد ذلك لم يكتشف احد غير هذه الاربع مدة ٤٠ سنة ، وفي سنة ١٨٤٥ اكتشف احد هواة علم الفلك يدعى « هنكي » الكويكب الخامس . ومنذ ذلك الحين توالى اكتشاف الكويكبات الجديدة وخصوصاً بعد اخذ صورها بالتصوير الضوئي ، حتى تجاوز عددها ٢٢٠ كويكباً ونحن في بيروت . وتبعنا اخبارها بعد ذلك الى أن بلغ عددها ١١٠٠ كويكب سنة ١٩٢٨ ، وأرجح الآن انهم اكتشفوا مئات اخرى غيرها ، ولكنهم لم يستوفوا رصدها ليحسبوا أفلاكها وهي لصغرها لا تكاد جاذبيتها تكون شيئاً مذكوراً ، حتى انهُ لو وقف إنسان في احدها وقفز إلى علو ٥٠ ذراعاً من سطحها لما اعتراهُ من الأذى ما يعتريه لو انهُ قفز الى علو نصف ذراع وهو على سطح الارض

وتذكر انهُ في سنة ١٩٠٠ اهتم علماء الفلك اهتماماً عظيماً بأمر كويكب من هذه الكويكبات يسمى « إروس » (Eros) لانهُ يدور حول الشمس في فلك اهليلجي يدنيه كثيراً من الارض ، حتى تصير على بعد مليوني كيلو متر منهُ . ففي سنة ١٩٠٠ دنا منا حتى لم يبق بيننا وبينهُ سوى مليون كيلو متر ، فانتهز الفلكيون الفرصة في جهات مختلفة من الارض وتسارعوا على رصده حيثما للوصول الى معرفة بعد الشمس عن الارض

***

والشيء بالشيء يذكر — فقد اذاع فلكي ايطالي (سكيابارلي) في سنة ١٨٧٧ ، انهُ رأى بمنظار مرصده خطوطاً مستقيمة على وجه « المريخ » . ثم عاد فأذاع سنة ١٨٨١ ان كثيراً من هذه الخطوط التي كانت مفردة ، صارت مزدوجة ، وسماها (Canals) أي ترعاً أو قنياً ، فهاج خبره هذا خواطر الفلكيين في الاقطار ، وكثر اخذهم وعطاؤهم فيه . واتصلت اقوالهم بالصحف السومية فأذاعوها في الاصقاع طولاً وعرضاً ، وبنوا عليها الملالي والقصور . فقال قوم ان المريخ مسكون بأناس مثلنا يحرثون ويزرعون وفيهم للهندسون الذين يهندسون الترع للري . وقال آخرون ان اهل المريخ حفروا الترع المزدوجة بعد الترع المفردة ، لكي يخاطبوا أهل الارض وينبهوهم الى وجودهم . وجعل البعض يقترحون عمل ترع مثلها على الارض ، أو اضرام نيران عظيمة على مسافات طويلة ، او وضع علامات اخرى ظاهرة على سطح الارض ، لافهام اهل المريخ اننا فهمنا مرادهم من حفر ترعهم ، ونحو ذلك من القال والقيل ، والكلام العريض الطويل

ولا ازال اذكر استاذي العظيم ، قدس الله روحه ، وهو يرصد سطح المريخ بالمنظار

العاكس في تلك الليالي ، وأنا واقف بجانبه ، ثم يقول لي تعال وانظر ، فأرى احياناً خطًّا أو خطوطاً مفردة أو مزدوجة ، ولا أكاد أقطع حتى الآن إن كانت خطوطاً على سطح المريخ او مصادر في عيني من شدة التحديق . وكان أستاذي يطرق طويلاً وهو يفكر ، ثم يقول : ترى أهذه من صنع الطبيعة ؟ وكيف يمكن ان تكون من صنع الاحياء ؟ وبعد ما يطلق كلانا العنان للخيال حتى يطاول المريخ ويكتنفهُ ، ثم يعود ولا يأتي بطائل ، يقعد أستاذي ويتحسر ويقول : آه ، يا ليتني كنت قد ولدت بعد اليوم بخمسمائة سنة ، لكي أعلم ما يخبئهُ عنا الزمان الآن . فأقول في سري ولو ولدت بعد الف عام لتحسرت كما تتحسر الآن ، لأن ما يبقى خفيًّا عنا حينئذٍ ، يكون أكثر من الخفي الآن

وبعد ان فارقت بيروت ومرصدها ، وطلقت علم الفلك بأعوامه ، سافرت الى أوروبا سنة ١٨٩١ ، وأتيت « ميلانو » وقصدت مرصد « بريرا » وقابلت مديره « إسكيابارلي » وسألتهُ في سياق الكلام عما جرى بترعه ؟ فضحك وقال : ان قوماً يتابعوني وآخرين يخالفونني . وهزَّ كتفيه كمن يقول ، دعنا منها الآن ، وسنحتكم الى الزمان

ثم علمت من مطالعاتي ان هذه الخطوط لم تعد تظهر مدة ١٠ أعوام او أكثر ، وبعد ذلك عادت فظهرت ورآها الراصدون ورسموها في خرائط « المريخ » وصوروها تصويراً ضوئيًّا أيضاً . ولا يزال الفلكيون مختلفين في أمرها ويقولون انها تختلف كثيراً في عرضها واتجاهها . وأن زيداً يراها على شكل ، وعمراً على آخر ، بحسب المنظار الذي ينظرها به

وهناك ظاهرة أخرى دامت ايام اشتغالي في مرصد بيروت مساعداً للدكتور « فان ديك » مديره ، ثم مديراً لهُ بعده ، وهي البقعة الحمراء الكبيرة التي ظهرت على وجه المشتري سنة ١٨٧٨ ودامت حتى فارقت المرصد سنة ١٨٨٤ . وقد كان لظهورها سماع وزين كثير بين الفلكيين ، والصحف التي تروي أخبارها . فقد كان شكلها في أوَّل أمرها بيضيًّا ولونها أحمر داكناً ، وبلغ عرضها نحو ١٤ الف كيلو متر (٨٧٠٠ ميل) وطولها نحو ٤٠٠٠٠ كيلو متر (٢٥٠٠٠ ألف ميل) وظهرت ظهوراً جليًّا جدًّا على سطح المشتري ولقبها الافرنج بالبقعة الحمراء العظيمة ، واشتدت حمرتها بعد مضي الحول عليها ، ثم حال لونها على توالي الاعوام . وقد علمت من مطالعاتي لاخبارها انها خفيت شيئاً فشيئاً ولم يبق منها الا أثرها منذ ٢٠ سنة الى الآن . ويظهر لي من قراءة ما قالوا في تعليلها ، ان حقيقة امرها لم تزل مجهولة الآن كما كانت ايام رصدي لها منذ نيف وخمسين عاماً

ولست اقصد في هذه المحاضرة استقراء كل ما جدَّ اكتشافه في النظام الشمسي بعد عهدي بعلم الفلك . وانما اذكر اكتشافاً آخر وهو تغير عرض المكان من حين الى حين تبعاً لتغير المحور الذي تدور عليه الارض دورتها اليومية ، بسبب ترحزح مواد في باطنها عن مواضعها

الى مواضع أخَر ، بسبب تعرّي سطح القارات ، وتأثير اختلاف الفصول فيها . وقد خطر ذلك على بال « بولر » من اكابر علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر ، وحسب حسابه ، وعين مقدار تأثيره . ولكن لم يستطع احد اثباته فعلاً بالرصد والمشاهدة ، الاّ في سنة ١٨٨٨ حينما اثبت « كسنر وشندلر » — (Keistner & Chandler) ومن تبعهما من الفلكيين ، ان قطب الارض يتغير تغيراً ضئيلاً جدًّا في مدد معينة ، وبالتالي ان عرض المكان يتغير كذلك ولكن تغيره محدود وقليل جدًّا ، بحيث لا يؤثر في هواء المكان واقليمه على اختلاف فصوله وانتقل الآن من النظام الشمسي الى غيره

***

ابنا فيما تقدم ان علماء الهيئة اكتشفوا في الخمسين السنة الماضية ، اقماراً واكتشافات اخرى مختلفة لم يكتشفها الذين سبقوهم . ولا خلاف في ان اكتشافهم لها كان بعضه بجدهم واجتهادهم ولكن لا جدال ايضاً في أن معظم توفيقهم كان بزيادة الاتقان في صنع الآلات العلمية ، واستعانتهم بالتصوير الضوئي والحل الطيفي والآلات الاخرى التي بلغت الغاية في دقة الصنع ، وتقسيم الزوايا . فقد كانت آلات مرصد « بيروت » وأنا أديره ، وافية بأغراض المرصد وحاجاته ، ولكنها على ما أعتقد ، كانت بالقياس الى آلاته الآن أو الى آلات مرصد حلوان ، كأنوال الحاكة في الكرداسة بقرب الاهرام ، الى أنوال معامل الغزل لشركة مصر في المحلة الكبرى . ولا أزيد في المبالغة فأقول : كنسبة أسلحة الاحباش الى أسلحة الايطاليين الذين يقاتلونهم في وادي نهر « تمين » . ويطول بي الكلام جدًّا لو أردت الاسهاب في بيان تلك الآلات إجمالاً بل يعجز قلمي عن الشرح او الوصف لو شئت شرحها ووصفها تفصيلاً ، فأضرب صفحاً عن ذلك ، وأقول ان المنظار كان أعظم ميز لعلم الهيئة عند المحدثين ، على ما كان عليه عند المتقدمين . ولا أدري ما الذي كان البشر يعلمونه عن الكواكب لولاه ، غير ما وصل اليهم من الاقدمين عن صورها وأسمائها وحركات بعضها وأزمان دورانها . فالفضل فيما اتصل اليه علمنا بعد ذلك ، معظمه للمنظار وتوابعه ، وللتصوير الضوئي[1] (الفوتوغرافي) وللحل الطيفي . والمنظار إما كاسر للنور ، وإما عاكس له . ولعل « غليليو » كان أول من استعمل المنظار الكاسر الذي صنعه لنفسه في أوائل القرن السابع عشر في رصد الشمس والقمر والكواكب ، فاكتشف الكلف على وجه الشمس والجبال في القمر ، والاربعة الأقمار الاولى من أقمار المشتري ، وكان الفيلسوف « أسحق نيوتن » أول من استعمل منظاراً عاكساً لرؤية النجوم سنة ١٦٦٨ وكان قطر مرآة الشيح في

(١) محرر المقتطف : فضل المقتطف التصوير الضوئي على الشمسي لان هذا الضرب من التصوير لا يكون تاماً بضوء الشمس

منظاره لا يزيد عن بوصتين . ثم أخذ صناع الآلات البصرية والفلكيون يتفنّنون في الصنع ويتبارون في الاتقان . واستاذ الفلكي الانجليزي « وليم هرشل » بصنع عدة مرايا عاكسة ، الواحدة اكبر من الاخرى بين سنة ١٧٧٤ و١٧٨٩ حتى أبلغ قطر مرآة الشبح أخيراً ٤ أقدام (٤٨ بوصة) واكتشف بها أقمار « أورانوس » وغيرها من أقمار « زحل » ، و٢٥٠٠ سديم ومجموماً ثنائية أي مزدوجة حقيقية . وفي سنة ١٨٤٥ صنع اللورد « رُص » منظاره العاكس المشهور وقطر مرآة الشبح فيه ٦ أقدام(٧٢ بوصه) ورأى به السدم الحلزونية ولم يزالوا يتبارون في تكبير هذه المناظير العاكسة حتى اوصلوا مرآة الشبح فيها الى ١٠٠ بوصة في منظار «هوكر» سنة ١٩١٩ وهو المركب في مرصد جبل «ولسن» بولاية « كالفورنيا » في الولايات المتحدة الاميركية ، وهو الآن اكبر منظار ، ووزن مرآة الشبح فيه ٤ اطنان ، وقد شرعوا في صنع مرآة أكبر من هذه قطرها ٢٠٠ بوصة ، وينتظر ان يتم صنعها وتركيبها سنة ١٩٤٠

وكما تسابقوا في صنع العاكسات وتكبيرها ، تسابقوا ايضاً في صنع الكاسرات وتكبيرها ، حتى أبلغوا قطر بلورة أكبرها ٤٠ بوصة في المنظار المركب في مرصد « يركس »

ويخيل اليّ انهُ بعد هذا الاتقان والتكبير في المناظير ، وفي بعض الوسائط التي استنبطوها ليستعينوا بها على رصد ما لا يستطيعون رصده بالمناظير وحدها ، كتصوير النجوم بالتصوير الضوئي وحل ضوئها الى الالوان المختلفة التي يتركب الضوء منها لمعرفة المواد التي تتركب منها ولاكتشاف حركاتها ، وقسمة الزوايا الى اقسام في منتهى الصغر والدقة ، وغير ذلك من الآلات البصرية والهندسية التي تشاهد الآن في المراصد المتكملة وسائط الرصد — أقول إنهُ يخيل اليّ بعد ذلك كله انهم يحوّلون عنايتهم الآن بصفة خاصة الى مجموعات النجوم والكواكب الخارجة عن النظام الشمسي ، ويتقدمون في ذلك بخطى أوسع كثيراً مما كانوا يتقدمون بها في عهدي . فقد كانوا يقيسون بعد النجوم بمقياس زاويتها الاختلافية ، متخذين قطر الارض حول الشمس قاعدة لذلك ، تعلموا بذلك الاختلاف السنوي لاثنى عشر نجماً ، وانها تبعد عنا بعداً هائلاً ، تتخذ فيه سرعة النور مقياساً له

ثم اهتدوا الى التصوير الضوئي لقياس زاوية أختلاف الثوابت ، فلم تأت سنة ١٩١٤ حتى كانوا قد علموا اختلاف ١٨٧٠ نجماً ، وحسبوا أبعادها عنا ، ثم وجدوا ان قياس زاوية الاختلاف بهذه الطريقة يحتمل خطأ $\frac{1}{100}$ من الثانية من القوس ، بزيادة أو نقصان ، و $\frac{1}{100}$ من الثانية يكاد لا يحده البصر ، ولكنهُ مع ذلك يؤثر في معرفة البعد المدقق ، فعدل كثير منهم عن هذه الطريقة ، وجعلوا يعوّلون على المطياف (Spectroscope) لقياس زاوية الاختلاف ، فعنوا به ، اختلاف ١٦٥٠ نجماً بحسب مطالعاتي حتى الآن [لها بقية]

الليل في صحراء مصر

للشاعر الشهير (William Gray) وليام جراي
مهندس اللاسلكي بالجيش البريطاني بمصر

بدا الهلال مختالاً في الثنية الزرقاء . وكأنما خلعت عليه « إزيس » من جمالها الفتان ! ها هو الفضاء بيننا ساجٍ وكأنه يحلم بنجوم لم تولد بعد !!

* * *

فوق صدر السماء الآزلية يمضي الهلال في رحلته . لا يملّ المسير ! بينما أنا ، اضطجعت على الرمال مأخوذاً كمن قد سُحِرَ . أحلم بآمون . . .

* * *

ها هي ربّة الفناء ! كلما حرّكت أجراسها استيقظت بعض نسائم لا تلبث أن تموت ! وهناك من أعماق وادي الموت يُسمع نداؤها الرهيب ! !

* * *

وإلاهة الشر بوجهها المتجهّم ! قد كفّت عن الجولان
ورقدت مسربلة في عارها لتسترع ! بينما تتجاوب في جوف الصحراء صيحات ابن آوى المنبعث صداها من الغرب !!

* * *

والوادي الخصيب ! تعلوه ابتسامات الكرى غارقاً في النوم على لثم هدهد حنون . وقد رقدت «إزيس» على شاطىء النيل تملأ النهر بفيض دموعها . . .

* * *

وحتى عيون «أبي الهول» ، تلك العيون التي لا تنام ، يبدو عليها فتور الوسن وهي ترنو الى السماء تنتظر الإلـه « راع » [1] راكباً قاربه عائداً مع الشروق . من خلال ضباب الفجر ! !

* * *

. . . . وهنا امتدت يد الكرى السحرية الى أجفاني فتلاشى كل شيء وتركتني على صدر الرمال يحتوي الليل في صحراء مصر !!

[نقلها : محمد مهدي]

---

(١) اسم الاله الشمس التي كان يعبدها قدماء المصريين

ابو العلاء المعري

وفلسفة التاريخ

بحث في أحد جوانب الفلسفة العلائية

لعلي أدهم

ابو العلاء المعري شاعر كبير عرك الحياة وبلا الناس وترك في شعره ذخيرة لا يستهان بها لقراء القلب البشري ومفسري غرائب النفس الانسانية ، ولكن شعره الحاشد بالتيرم والسخط والغاص بالتشاؤم والتطير لا يسوغ لك فوق متناقضات الحياة الى عالم الاتساق والانسجام ولا يرفعك الى الجو الفني الهادىء حيث تنسى الاوطار والاوبانات ولا تهفو بك احزان الحياة ولا تطرقك هموم العيش ، وهو حكيم مخلص يكشف لك عن اعمق علاقات الكون بالانسان ويجلو لك اقانين الطباع ويرسل الضوء في غيابات النفس ولكن حكمته لا تهدي الضال الى الصراط المستقيم ولا ترفع المصباح لساري الليل وخابط الشواء ولا تؤاسي من ساءه الدهر وتكر له الحظ ولا ترد الى الامل من ازمع اليأس ولا تزيد المقدامة الشجاع اقداماً وشجاعة بل قد توهن ارادته وتثلم عزيمته وتيئسه من الصعود الى معاقد الابطال ومراتب العظماء

وابو العلاء هو هادم صروح اليقين وقاطع طريق الآمال البشرية ، وهو يكمن لها في الشعاب والمثاني لاغتيالها ولا يكتفي بتركها جريحة دامية بل يقصفها قصفاً منكراً ويجهز على حياتها ، وتجول من شعره في صحراء مترامية يقصر عن مداها الطرف ومعها ضربت في نواحيها فلن تصادف شجيرة واحدة تستذري بظلها ، بل لا ترى فيها اثراً للنبت والحشائش وتشاؤمه من الرسوخ والقوة بحيث يصح ان يكون معبراً عن تشاؤم جيل برمته او سلالة من السلالات البشرية بأسرها ، ولئن كان المتنبي يمثل جانب القوة والطموح من النفس العربية والبحتري يصف الجانب المتماوج الطروب من حياتها فان المعري يعبر عن الجانب المتطير منها كما عبر شوبنهاور عن تشاؤم الالمان وكما اتضح ليوباردي عن تشاؤم اللاتين في القرن التاسع عشر ، وقد اعلن المعري على الحياة معركة لا هوادة فيها ولا هوادة وتدرع لها بدرع موضونة من اليأس والزهد وجعل يقذفها بحملات شعواء ستظل تتجاوب باصدائها الدهور وسيجد فيها كل مفكر مهما بلغ من رضاه عن الحياة درساً صالحاً وعبرة صادقة

فما هو سر تشاؤم الرجل ؟ وهل هو عدوى عصره ومرض جيله ؟ وهل يئس المعري لانهُ أبعد الامل وأغرق في حسن الظن بالحياة فأيقظهُ من رقاده نذير الشقاء وداعي الالم ؟ وهل حلم المعري حلم الكمال وصحا من نشوة الحلم ولا تزال صورته باقية في مخايل ذاكرته ثم التقى بالواقع المشوه الجديب فكرههُ واشاح بوجهه عنهُ ثم شرع بعد ذلك يثأر لنفسه المخدوعة محاولة هتك اسرار الحياة وتعديد مساوئها ؟ وهل عاش المعري حسير اليدين وصريع امانيه وعلالاته ؟ وهل كان له طموح في الحياة وامل في الصولة والغلبة فلما سلبهُ الدهر بصره ونكبه في سلاح من اقوى الاسلحة مضاء في معركة الحياة أضمر في نفسه كراهة الحظ وتمرد على الاقدار ولعن الايام ؟

لست ارى رجاحة اي وجه من هذه الوجوه ، وليس في حياة ابي العلاء وما انتهى الينا من اخباره ما يدل على انهُ كان حالماً بالكمال ولوعاً بالمثل الاعلى ، ولم يخدع المعري عن حقيقة الحياة وقد أحسَّ من أول امره فوضى الحياة وخداع الاقدار ومماطلة الحظوظ وظل طول عمره يجمع الحقائق ويعيها وينظمها ويسلط عليها ملكته الفنية ليهاجم بها الآمال ويمزق شملها

واذا رجعنا الى عصر المعري لنستقري علاقته به ولنعرف هل استمد المعري تطيره من احوال عصره المضطربة وتشبع به من جوه الفاتم وجدنا المسألة غير مقنعة ولا شافية ، ولقد كان عصر المعري عصر شك وانحلال وانحدار في مهابط الدهور ، ولكن تشاؤم المعري كان أبعد اعراقاً من ان نعزوه الى حالة عصره ، وعبقرية المعري بطبيعتها عبقرية حزينة وقد قوى عصره نزعة التطير في نفسه وشحذ يأسه وأكد حنقه على الايام وتصاريفها ولكنهُ لم يخلق هذه النزعة ، وقد لاحظ اناتول فرانس ان الفلاسفة المتطيرين قد يظهرون في اوقات ازدهار الحضارة وصفاء الجو ، والمسألة قبل كل شيء مسألة مزاج شخصي وطبيعة نفسية قد يزيدها العصر قوة دون ان يوجدها وقد يضعفها ويحبس تيارها ولكن دون ان يقضي عليها ، واهم العوامل المكونة لتطير المعري كامنة في نفسه متأصلة في صميم طباعه ومردها الى احساسه الفردي ومشاعره الشديدة اليقظة والتنبه ، وابو العلاء بمزاجه من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا الثاقبة على الوجود المؤثرة لظلمة العدم وصمت الفناء ، وهو يكره الحياة في الصميم والجوهر فضلاً عن الصور والاعراض ولا يشكو عصراً ليمدح آخر وانما كل العصور عنده سواسية والناس جميعهم اشرار خساس الطباع ليس لكسرهم جبر ولا لدائهم دواء يستطب به فلا سبيل للامل ولا معنى للحرص على التسلل في مثل هذا الوجود الخاسر ، ويرى شوبنهاور ان الحياة في نفسها «جريمة» تكفر عنها باحتمال آلامها ويرى المعري انها «جناية» جناها الآباء القساة على اولادهم المساكين وانها مصيبة تعالج بالبر والاحسان

فكونك في هذي الحياة مصيبة يعزيك عنها أن تبر وتحسنا

وينفرد ابو العلاء من بين شعراء العرب قاطبةً بميزة واضحة لا سبيل الى تكرانها وهي انهُ

مفكر مثل نيتشه او شوبنهاور او رينان ان يعبر عن نفسه التعبير الكامل في عصر مثل عصر لويس الرابع عشر او العصور الوسطى ، وما كان ليسمح عصر مثل عصر عبد الملك ابن مروان او عصر الرشيد بوجود المتنبي او أبي العلاء ، وهذا من أشد ما يتعاه الفرديون على أنصار الاشتراكية لانها تحاول باحكام الروابط الاجتماعية ان تصبَّ الناس جميعاً في قوالب متشابهة وتقضي على النزعات الفردية واختلاف ألوان الامزجة . وقد كان أبو العلاء كسائر كبار الشعراء ينهم التفكر شغوفاً بتعرف كل شيء مطبوعاً على تلك العالمية الخاصة بالمبقريين ، وهذا الاتساع النفسي من شأنه ان يوجه النظر الى التاريخ ويغري بالتعمق في تأمل حوادثه واستعراض صوره ومن ثمَّ كان للثقافة التاريخية دخل كبير في تكوين كبار شعراء العالم وفي أشعار هوميروس وفرجيل وروايات شكسبير وجيتي وشلر وبيرون شواهد نواطق بذلك ، ولم يكتف بعض الشعراء بتناول التاريخ في منظومات الشعر وبرائع الملاحم بل أوقف جزءاً من حياته على كتابة التاريخ كما فعل شلر في كتابة تاريخ حرب الثلاثين سنة وكما فعل جيبن في مقالاته الانتقادية

وأبو العلاء الذي برَّ شعراء العرب وحلق فوقهم بعبقريته العالية واخلاصه الجم للادب والحياة يفوقهم جميعاً من ناحية النظرة التاريخية ، ومن كان في عمق أبي العلاء فلا مفرَّ لهُ من ان يطالع قصة الخليقة ويجول في تاريخ الانسانية ليسرد أخبارها وينصَّ عبرها ويتأمل ما انتابها من آمال وآلام وما لحقها من يأس ورجاء وما تعلقت به من عقائد ومذاهب وما مرَّ عليها من مختلف الاطوار ومتنوع الحالات ، وقد وجد في التاريخ مجالاً رحباً لتطيره وتنفذاً لسخريته ، وكان يشعر بغزارة معرفته التاريخية ويقول

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الاَّ وعندي من أخبارهم طرف

وفي الحق ان أبا العلاء لم يقصد بهذا البيت المباهاة الكاذبة والفخر الاجوف وانما قرَّر حقيقة تدعمها لزومياته وتشهد بصدقها سائر آثاره

ومن أدمن النظر في التاريخ وأطال التأمل في حوادثه لا بدَّ ان ينتهي فيه الى رأي خاص ويكوِّن لنفسه فلسفة ينظر الى التاريخ في ضوئها مهما كانت قيمة هذه الفلسفة من الحق او من الباطل وسواء أراد قارىء التاريخ ذلك ام لم يرده وأدركهُ أم لم يدركهُ . ورجل مثل ابي العلاء حائر شاك منفرد بنفسه ماهر في التنقيب على مواطن الضعف في الانسانية نزاع بفطرته الى التطير من الواضح اللازم ان تسمح في فلسفته التاريخية صدى يأسه وترى أثر تململه وتسخطه ، وقد كان ابو العلاء شديد الفردية في احساسه يصادم المجتمع بفرديته الاوحدية الشاذة ولا يرضى النزول من برجه العاجي للانغماس في تيار الجماعة وانما الدنيا ملعب وهو متفرِّج لا لاعب كما في قوله

والارض رقعة لعَّاب مقسمة منها سهول وأجبال وحزان

مرارة والمّا فهم يبشرون باليأس والزهيد في الحياة ويندبون حظ الانسانية ويقفون على اطلال الحضارات يكون مصائر الامم، وفلسفتهم حزينة مجللة بالسواد ملأى بصور الفناء، والانتصار في نظر اصحاب هذه الفلسفة تذر المزية والحياة دليل الموت والضوء رسول الظلمة، وكل عمل يتم على حماسة ويقين ينظرون اليه نظرة المتشكك المرتاب فلا ينجو من سخريتهم أتم ولا مصلح ولا يفلت من تهكمهم حامل القلم ولا رب التاج، وهم يسخرون بانفسهم وبالطبيعة والكون وبالله نفسه وانبيائه، وكأن الطبيعة التي صنت عليهم بروح الامل والسرور الخالص قد حبتهم بالنصيب الاوفر من ملكة السخرية والاستهزاء

ويعمد اصحاب هذه الفلسفة الى طرق كثيرة للتسلي، فمنهم من يتلهى بالكأس واللذة على طريقة عمر الخيام او بتحليل نفسه على طريقة فردريك اميل او بالاشتغال بغريب اللغة كما كان يفعل ابو العلاء، صنف كتاب الايك والغصون وكما فعل ليوباردي الذي كان امام المتطيرين في عصره وكان في نفس الوقت اكبر لتوي في زمنه في آداب اللغة اليونانية، ومثل بسكال الذي برع في الهندسة وان كانت الروح الدينية التي غلبت عن عصره قد منعتهُ من الايغال في التطير

اما المدرسة الثانية فهي تؤمن بالتضامن الاجتماعي وقانون التقدم وترى ان الانسانية سائرة الى الكمال وهي تستخلص ذلك من نزعة الاجتماع الغريزية في الانسان ومن وحدة النوع الانساني واتفاق الغرض الذي ترمي اليه الانسانية وتتجه نحوه جهودها المشتركة، وهي ترى ان خير كفيل بتحقيق أمل الانسانية هو انتقال الحق من جيل الى جيل وذلك النزوع الى الكمال الذي يهوّن التضحية ويوحي الاديان ويسر القلوب بالايمان، وجهود الامم والافراد ليست ضائعة ولا ذاهبة عبثاً وما آثرهم خالدة والشر الذي تشكوه سيتمخض عن الخير وستستحيل اخطاء البشر على مدى الايام منافع جزيلة وخيرات سابغة ويأسف اصحاب هذا المذهب لوجود الشر والفوضى في الحياة ولكنهم لا ييأسون من مقاومته واصلاح الحياة وتهذيبها

ويفخر كلا المذهبين بطائفة من الاسماء البارزة في تاريخ الفكر الغربي، فمن انصار المذهب الاول ماكيافلي وشوبنهاور الذي يقول «ما دامت الحياة أبدية فان فكرة التقدم لاتحالة باطلة» وكارلايل، ومن القائلين بالتقدم بيكون وديكارت ومشليه وأوجست كنت، وابو العلاء في نظره للتاريخ ينتسب الى المذهب الاول فهو ينكر التقدم ولا يرى جديداً تحت الشمس فيقول عن الناس

يسعون في النهج المسلوك قد سبقوا الى الذي هو عند الغر مخترع
ابكار هذي المعاني ثيبات حجا في كل عصر لها جان ومفترع

وهو لا يهتف للمنتصر وانما يحذره عاقبة كآبة المغلوب فيقول له

لا تفرحن بدولة أوتيتها ان المدال عليه مثل الدائل

ويذكر من احتوت يده على شيء بأنهُ سيفقده لان

من يعط شيئاً يسلبهُ ومن يتم جنح الظلام فانهُ سيؤرق

وأبو العلاء لا ينظر الى الماضي نظرة اكبار ولا يحيطهُ بهالة من التقديس والقدماء في نظره لم يكونوا اكرم طبعاً وأبر نفساً من اهل عصره

ما كان في الارض من خير ولا كرم فضلٌ من قال ان الاكرمين فنوا

وأما حكم العقل في قضية المفاضلة بين القدماء والمحدثين فهو كما يروي لنا ابو العلاء

يخبر العقل ان القوم ما كرموا ولا افادوا ولا طابوا ولا عرفوا

طاشوا طويلاً وماجوا في ضلالهم ولا يفوزون ان جوزوا بما اقترفوا

بل لم يتسم فرد واحد منهم بالحكمة وفصل الخطاب ولم يؤت العقل والرشد احد والارض لم تعرف الانسان الاعلى ولن تعرفهُ

ما كان في هذه الدنيا اخو رشد ولا يكون ولا في الدهر احسان

وانما يتقضى الملك عن غير كما تقضت بنو نصر وغسان

ويردف ذلك بقوله: ولم يأت في الدنيا القديمة منصف ولا هو آت بل تظالمنا جزم

فاذا ضقت ذرعاً بعصرك وبرمت بشروره آساك ابو العلاء بقوله

شكوت من اهل هذا العصر غدرهم لا تكرنَّ فعلي هذا مضى السلف

فاذا شككت في ذلك اكده بقوله

لا يخدعنك اخرانا كأولنا في نحو ما نحن فيه كانت الامم

فاذا وصل الى مسمعه ان هناك قوماً يعلقون الامل على المستقبل ويرجون من ورائه الخير وتحقيق الاحلام هزَّ رأسه وأنشد

يقال ان سوف يأتي بعدنا عصر يرضى فتضبط اسد الغابة الخطم

هيهات هيهات هذا منطق كذب في كل صقر زمان كائن قطم

ومن يدري فقد يستفحل الشر ويتفاقم الخطب في المستقبل

والله يحمد كلما طال المدى طفت الشرور وقلت الاخيار

وكان المعري يرسل فكره الى الماضي السحيق والمستقبل البعيد فيرى الحياة بين هاتين الهاويتين صوراً سريعة يتناولها الفناء وخيالات تزول كما تزول دوائر الماء حول مواقع الحصيات في سطوح البحيرات، فما قيمة الدول العظيمة والآثار الضخمة وما تأثير النجوم اللامعة والشمس الساطعة وما قيمة العواطف البشرية ومتع الروح ولذات النفس ؟ كل هذا ضائع في الابد الزاخر، والانسان هذا الطيف الزائر والسائح الغريب في هذا الكون يعيش قليلاً ثم تطوى صفحته ويدرج في قبره والدنيا بحالها

تمضي وتترك البلادَ عريضة والصبح انور والنجوم زواهر

وقد تضيع اخبارنا وتندثر آثارنا كما ضاعت في جوف الدهر آثار من قدم الارض قبلنا

سيسأل ناس ما قريش ومكة كما قال ناس ماجديس وما طسم

والبشرية التي تعاقبت في التاريخ وتلك الاجيال المتلاحقة انما هي صور تتراءى الى الليل الابدي وتغرق في زواخر الدهر وهي اشبه بالخيالات والاشباح تلوح ثم تختفي وانما البشر

اشباح ناس في الزمان يرى لها مثل الحباب تظاهر وتوارى

أو شخوص اقوام تلوح فأمة قدمت مجددة وأخرى تهلك

والدهر هكذا مستمر في دورته يطحن الاجيال ويطوي الايام

عش ما بدا لك لن ترى الأمدى يطوى كما دته ودهراً داهرا

والحياة حركة مكررة معادة والدهر اكوان تمر سريعة ويكون آخرها نظير الاول

والوجود كله كدر لا صفو فيه

لا ازعم الصفو مازجاً كدراً بل مزعمي ان كله كدر

ولا امل في اصلاح الكون وتقويم اعوجاج الناس وعلاج الطبائع

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومنّ للاقوام تهذيبا

وهم كذلك لان النبعة التي استقوا منها نبعة فاسدة

تفرع الناس عن اصل به درن فالعالمون اذا ميزتهم شرع

والانكى من ذلك انهُ

يكفيك شرًّا من الدنيا ومنقصةً ألاَّ يبين لك الهادي من الهادي

والناس في غفلة لا يفيقون منها

وما عيون الناس فيما ارى منتبهات من طويل السنة

ولقد اجرى اناتول فرانس على فم المؤرخ الكهل لملك فارس المحتضر في احدى محاورات كتاب آراء جيروم كوانيار كلمة هي خلاصة فلسفته التاريخية وهي قوله في تلخيص تاريخ البشر « انهم ولدوا وتألموا وماتوا » ويصح ان تكون هذه الكلمة موجز رأي ابي العلاء الذي يقول

خلقنا لشيء غير باد وانما نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك

بل قد انحدر به اليأس الى ابعد من ذلك حيث فقدت الاشياء في نظره حقيقتها واشتبهت عليه مميزاتها وصفاتها

فنحن في غير شيء والبقاء جرى مجرى الردى ونظير المأتم العرس

وهذه هي اعمق قرارات اليأس ولكنها ايضاً الذروة العالية التي ارتفع اليها المعري في عالم المفكرين المتطيرين واستحق بها ان يكون الامام الثبت والحجة الثقة في وصف علل الحياة وادواء النفوس، ولئن كان يشك من ابي العلاء جهامة الحزين الذي لا تزدهيه اطايب الحياة ولا تطربهُ انغامها فقد يسلك منهُ تبسم الساخر المتهافت الذي لا يعفي شيئاً من سخريته ولا يغفل لحظة عن تهافته

الانسان والنبات

للدكتور محمد بهجت
اختصاصي بقسم البساتين بوزارة الزراعة

مملكة النبات مملكة واسعة عظيمة تحوي عدداً كبيراً من الاجناس والانواع موزعة على الارض بل وعلى البحار والانهار توزيعاً عجيباً تقرره وتحدده عوامل البيئة المختلفة كالحرارة والرطوبة ونوع التربة والضوء وغير ذلك من العوامل الظاهرة والخفية . ومن افراد تلك المملكة ما هو ضئيل الى ابعد حدود الضآلة بحيث لا يقنى لاعيننا البشرية ان تراه ، وربما استطاعت ان ترى البعض منهُ اذا استعانت بأقوى المكبرات الحديثة التي مكنتنا من رؤية عالم عجيب حقي يزخر بالحياة النباتية ويؤثر من مصاير الانسانية أعظم تأثير — ذلك هو عالم البكتيريا والفطر والجراثيم . ونرى بها من الناحية الاخرى افراداً بلغت من الاكتناز والضخامة والذهاب في كبد السماء مبلغاً عظيماً يدعو الى الدهشة والتعجب . ولا يسع المرء عند ما يقف حيال اشجار السيكويا الهائلة التي بولاية كاليفورنيا الاميركية على ساحل المحيط الهادىء الا ان يخشع امام تلك العالقة التي تحسب اعمار بعضها بآلاف السنين ويذهل لتلك المخلوقات التي كانت يوماً ما بذوراً صغيرة دقيقة تذروها الريح فأصبحت اطواداً حية هائلة كالرواسي الشامخات لا تنال منها الانواء والاعاصير الهوجاء . . . ومن أفراد تلك المملكة ما هو نافع غاية النفع للانسان والحيوان ومنها ما هو ضار بهما أبلغ الضرر . . ومن أفرادها ما هو جميل لأعيننا ومنها ما هو قبيح دميم

ومما لا ريب فيه ان النبات ظهر على الارض في فجر الحياة الاولى ونشأ وتدرج في سلم الارتقاء خلال عصور عديدة من قبل ان يدب عليها الانسان وتنشأ بينهُ وبين النباتات العلاقات الوثيقة التي أثرت في حالاته النفسية والاجتماعية والاقتصادية تأثيراً عظيماً اوصلهُ الى منزلته الحالية من المدنية الحديثة . ولنا في التاريخ أمثلة متعددة يظهر منها ان الوقوف على سر واحد من أسرار النبات قد يؤثر في حياتنا الفكرية والمادية أعظم تأثير . ومن الامثلة البارزة المتعددة نبات المطاط او الكاوتشوك الذي سلم قدر أثره في مدنيتنا الحديثة

ولو فتشنا ملياً عن مصدر حياتنا وينبوع نشاطنا ومدنيتنا لوجدناه النبات، ذلك الكائن الحي المنتج الخليق بالاجلال والاعظام والحمية والتقدير . ولو تجاوزنا تلك النظرة السطحية وتعمقنا قليلاً

في البحث نوجد ان النبات مدين بحياته للشمس التي هي مصدر الحياة جميعها . ولقد أحس اجدادنا المصريون منها ذلك وأدركوا ما في خيوطها الذهبية من حياة هي السحر وسحر هو الحياة فعبدوها وقدسوها وكانوا يتخيلونها زورقاً يستقله اله من آلهتهم اسمه هوروس يسبح به في أجواز الفضاء من المشرق الى المغرب في نظام ثابت عجيب وتدبير محكم . وعند ما نبين فيما يلي علاقة ما بين الشمس والنبات ستتكشف لاعيننا حقيقة من أروع الحقائق التي ندرك بها نعمة الحياة التي أنعم بها الله سبحانه وتعالى علينا ونقدر قدرته جل شأنه اذ سخر الشمس فيما سخر لنا من القوى الطبيعية التي تقضي في حياتنا الدنيا

يتنفس النبات كما يتنفس الحيوان ، فيأخذ كلاهما الأوكسجين من الهواء ويعطي غاز ثاني اكسيد الكربون الذي يزفره الحيوان من منخريه والنبات من مسامه المديدة الخاصة بذلك . واذا احترق النبات او الحيوان نتج عن احتراقهما غاز ثاني أكسيد الكربون كذلك وهذا ينتشر في الهواء ويختلط به . . . يدخل الهواء المحمل بهذا الغاز الى النبات عن طريق فتحات بأوراقه منتشرة على سطوحها السفلية وبالغة من الصغر والدقة مبلغاً عظيماً وهناك يذوب في العصارة النباتية ويتحول بعمليات متتابعة الى سكر بسيط ومن ثم الى سكر مركب او نشاء أو زلال أو دهن او الى خلوز (سلولوس) — تلك المادة التي يبني بها جدر خلاياه وألياقه وخشبه ، او الى اي مركب آخر يحتاج اليه في بنائه وتغذيته ، ثم ان هذه المواد المجهزة تتحرك في الاوعية الى الانسجة القريبة او البعيدة في النبات للاختزان أو لأداء الوظائف الفسيولوجية المختلفة . غير ان تحويل الغاز الكربوني الى سكر ثم الى مواد أخرى اكثر منه تعقيداً ثم دفع تلك المواد في الأوعية والانسجة كل ذلك يحتاج الى جهد . وهذا الجهد يستمده النبات من أشعة الشمس . فبعد ما تسقط هذه الاشعة على أوراقه الخضراء المبسطة تمتص المادة الخضراء التي بها والتي تعرف بالكلوروفيل او الخضير جزءاً صغيراً من تلك الاشعة التي هي مزيج من حرارة وضوء فتتم العملية السحرية في صمت عجيب لا يلحظها ملاحظ او يحس بها مستمتص . وينتقل بهذه العملية الجهد الذي كان بأشعة الشمس المتمصة الى المركبات التي تكونت داخل النبات . وعند ما تحترق هذه المركبات داخل جسم الحيوان بواسطة عملية التنفس تعطيه من الحرارة والجهد بقدر ما أخذت من أشعة الشمس تماماً . كذلك تعطي قطعة الخشب اذا احترقت في الهواء حرارة وجهداً بقدر ما أخذت من الشمس . فنحن نستمد الحرارة التي تولد بجسومنا في الحركة وفي أداء العمليات الفسيولوجية والشغل الخارجي . ونستخدم الحرارة التي بالوقود في انضاج طعامنا وتسيير عرباتنا وطياراتنا وسفننا وغير ذلك . فالاشجار التي على وجه الارض اذاً والفحم والزيوت المعدنية التي في باطنها والتي نشأت من تحلل مواد عضوية نباتية كل هذه كنوز عظيمة ومستودعات هائلة للقوى الشمسية اختزنت بها من آلاف بل ملايين السنين . . . فنرى من ذلك انه لولا الشمس

لما كانت الحياة على سطح الارض ، وانهُ لولا تلك الورقة الخضراء الكريمة — ورقة النبات — لما كان انسان او حيوان . وربَّ سائل يتساءل وماذا نقول في أمة الاسكيمو التي تسكن الاصقاع الجليدية القطبية والتي لا يقتات أهلها الا سمك البحار وحيتانها ولا تسكن الا كوخاً تتخذها من الجليد ؟ ان فضل النبات على ذلك الانسان المنعزل عن المملكة النباتية والذي لم ير ورقة النبات الخضراء ؟ والجواب على ذلك ان هذا الانسان الذي يقتات اللحم فقط يعتمد في حياته على النبات أيضاً ولكن بصفة غير مباشرة . وذلك لان السمك الذي يأكلهُ يعيش على أسماك او حيوانات بحرية أخرى اصغر منهُ . وهذه تقتات الاعشاب البحرية الضئيلة . وقد حسب بعض الحاسبين ان كل رطل من جسم انسان الاسكيمو يبني من ٦٣٥ رطلاً من الاعشاب البحرية التي تغذت بها اسماك أكلها الاسكيمو بدوره . فما أبعد ما تكافئهُ مملكة النبات لإعاشة أمة الاسكيمو القليلة العدد !

وربَّ قائل يقول أيضاً ان العلم تقدم تقدماً عظيماً بحيث أصبح في مكنتنا تركيب بعض المواد الغذائية في معاملنا . وسوف يأتي يوم نستغني فيه عن الحقول الشاسعة بما نستطيع تجهيزه في المصانع المحدودة ! نعم لقد استطاع علم الكيمياء مثلاً ان ينتج صبغ النيل المعروف فقضى بذلك قضاء مبرماً على زراعة النيل الطبيعي بالهند، وصحيح ايضاً ان بعض العلماء تمكن من تحضير مقدار صغير من السكر البسيط بواسطة الاشعة فوق البنفسجية، وصحيح ايضاً أنهم توصلوا الى تحضير بعض المواد الهامة كالفانيلا بل والكاوتشوك إلا ان تحضير كل ذلك يستنفد من الجهد والنفقات الشيء الكثير مما يجعل الانسان محتاجاً الى أوراق النباتات الخضراء ومعتمداً عليها كل الاعتماد

وثمَّ اعتبار آخر يجعل اعتماد الانسان على النبات أمراً محتوماً وهو ان الاخير يصنع المركبات الهامة المعروفة « بالفيتامينات » في أوراقه الخضراء . ويتوقف نمو الجسم الانساني وسير وظائفه سيراً طبيعياً وسلامته من كثير من الامراض على تلك المركبات المعقدة الغامضة التي لها في حياتنا شأنٌ هامٌ والتي توجد في الجسم الحيواني أيضاً . فبعد ان يمتصها الحيوان من الغذاء النباتي تسترجع بعضاً منها فيما ينتجه من لبن وزبد وجبن وبيض وغير ذلك من منتجاته المتعددة هذا فضلاً عما نحصل عليه مباشرةً من النبات نفسه عندما نأكله

ولننظر الآن كيف بدأت العلاقة بين الانسان والنبات ، ثم كيف توثقت تلك العلاقة وتطوَّرت مع السنين والقرون وأثرت في الانسان حتى ابلغتهُ مدنيته الحاضرة

كان الانسان الاول يسير عارياً في الغابات يلقط مما يجده على الشجر الذي يدنو لنفسه ما يطيب لذوقه من حَبٍّ وثمر . وكان يحتمي في ظلال اشجارها من حرارة القيظ أو صرارة البرد ومن شآبيب المطر . ثم هداه تفكيره الى ان يتخذ من اجزاء النبات سقفاً وعرائش يأوي اليها هو وما قد استأنس من حيوان . ومن ثمَّ نشأت فكرة بناء البيوت والمساكن . وكان اذا

تناسل فتزايد عدده وقلّ قوته وكلاّ ماشيته ترح الى جهة اخرى وغيرة القوت كثيرة المياه والعشب . ولما شاهد النبات ينضج حبه وينثره حوله لابقاء نوعه فطن الى استكثاره لجمع الحب وبذره لنفسه وحصده وهكذا تعلم الزراعة التي طرأ بواسطتها تغيير كبير على الاصناف البرية من حيث الكم والكيف . وكان يرى قطعة الخشب تطفو على سطح الماء فيمتطيها ليعبر عليها الانهر والبحيرات الصغيرة، ثم بدا له بعد ذلك ان يجوف تلك القطع او يضم بعضاً بعض ليستوي بداخلها حتى لايدركه البلل ومن ثمّ كان بناء السفن التي ساعدت بنصيب وافر في بناء مدنيتنا الحالية اذ استطاع الانسان ان يحمل فيها غذاءه ويجوب البحار ويكتشف آفاقاً جديدة ويربط اطراف العالم بعضها ببعض

ولقد بدأ الانسان اول ما بدأ بتغطية جسمه وستر عورته باوراق النباتات الكبيرة ولم يلبث ان اهتدى الى ذات الالياف منها وفطن الى استعمالها بدل تلك الاوراق . ثم اهتدى بعد ذلك الى غزل ونسج تلك الالياف . وها نحن اليوم اكثر ما نكون اعتماداً على النبات في لباسنا ، حتى تلك المنسوجات التي تمت الى اصل حيواني كالصوف والحرير فان انتاجها يتوقف على النبات فالاغنام او الابل ترعى النبات وتربي صوفها . وتأكل دودة القز اوراق النباتات ثم تنسج خيوطها الحريرية بعد ذلك

وكان الانسان يذوق ويأكل بطبيعة الحال كلّ ما يصادفهُ من اجزاء النباتات المختلفة فيجد في بعضها حلاوة وفي البعض الآخر حموضة ، وفي البعض ما ينفثهُ من داء معين وفي البعض الآخر ما يؤذيه اذية بالغة او طفيفة . فاستطاع من تجاربه الكثيرة التي عاناها ان يميز بين ما هو صالح منها لقوته وما هو صالح لدوائه . وما زال الانسان الى يومنا هذا يرجع في معالجة اكثر امراضه واسقامه الى النبات واصبحت النباتات الطبية المعروفة تعد بالآلاف

ولقد غير الانسان كثيراً من معالم المملكة النباتية فما حل ببقعة الاّ وعمد الى تقطيع الاشجار الباسقة والنباتات المتكاثفة ليفسح في رقعة سكناه . فاذا ما أفسحها واستقر بها قطع كثيراً غيرها من حوله لكي يزرع الحب لنفسه ولحيواناته . وعند ما تيسرت المواصلات واصبح في مستطاع الانسان ان يهاجر في افواج كبيرة الى اصقاع بكر لم يكن لها به عهد من قبل امعن فيها تقطيعاً وتحريقاً باسراف مريع فأزال غابات عامرة بنامها وعرّى وجه الارض من زينتها الخضراء الجميلة وبدد كنوز الثروة المذخورة فيها شر تبديد . وأعظم مثل لذلك الغابات الفسيحة الواقعة شرقي نهر المسيسبي بالولايات المتحدة الاميركية . كانت تلك الغابات مأهولة ببضعة آلاف من الهنود الحمر الذين لا يأخذون من الطبيعة الاّ القليل الذي يفي بحاجاتهم البسيطة . فلما نزلها الرجل الابيض المتمدن ازالها ومحا معالمها وأقام مكانها الدور والقصور والقرى العامرة والمدن الصاخبة الزاخرة . وحصل في الهند ان اخليت الغابات لزراعة الشاي والبن والمطاط وغيرها من النباتات الاقتصادية التي يلح في طلبها الانسان . ولم يكن تتطيع الغابات وتدميرها بأوربا بأقل منهُ في القارات الاخرى

فقد درس الانسان فيها اكثر مما تستطيع الطبيعة انتاجه. وأخيراً فطنت الحكومات الى تلك الثروة الجسيمة المهددة بالزوال فسنت القوانين لحماية الغابات ولاستغلالها بقدر ولتعميرها من آن لآخر ... ماكان ذلك من الانسان لمجرد العبث ومحاربة النبات وانما من اجل مصلحته الخاصة فهو وان محا الاشجار من رقعة ما فقد أسكن تلك الرقعة انواعاً اخرى من النبات كالحبوب وغيرها. ونراه من ناحية اخرى ينزل الارض القاحلة او الصحراء الجدبة فيطرق اليها الماء ويغرس بها الاشجار وينثر فيها الحب فتصبح جنة فيحاء دانية القطوف متعددة الالوان ولئن قسا الانسان على النبات من ناحية فقد أسدى الى مملكته ايادي بيضاء كثيرة، فهو يطوف بالغابات المنعزلة البعيدة ويقتلع الحيال الوعرة ويسلك الصحاري المخيفة ليتصيد كل نادر من النبات ثم يكثره ويحسنهُ الى درجة لا يبلغها ذلك النبات في الاحوال الطبيعية . . . لقد فعل الانسان أكثر من ذلك فانهُ زاد بطريقة التوليد على المملكة النباتية أصنافاً وأشكالاً وألواناً ماكان لها وجود من قبل فهو الذي خلقها بعقله الراجح وصبره العظيم فأتت خيراً الف مرة من آبائها الوحشية . هذا فضلاً عن انهُ حسن الاصناف والانواع الموجودة تحسيناً عظيماً. ولاضرب على ذلك مثلاً واحداً بسيطاً بشجر السكر الذي يزرع في اوروبا بكثرة لاستخراج السكر منهُ بدلاً من قصب السكر الذي لا تسمح الظروف الجوية بنموه هناك. كانت نسبة السكر بالبنجر من نحو ٥٠ سنة نحو ٥ر١٠٪ فأصبحت الآن بفضل عمليتي التوليد والانتخاب التي يقوم بها الانسان نحو ٥ر١٨٪ ولقد وصلت النسبة في بعض افراد منهُ الى نحو ٢٥٪ وهكذا أوشك هذا النبات ان ينافس قصب السكر الذي تبلغ نسبة السكر فيه نحو ٢٠٪

ولعل أغرب وأعجب ما في حياة الانسان تلك العلاقة التي بينهُ وبين النباتات الدنيئة التي لا يراها بعينه المجردة. تلك الكائنات التي نسميها الميكروبات او الجراثيم تكافح في الحياة وتناضل من أجل بقائها وبقائها قوية. فهي تهاجم النباتات الراقية كما تهاجم الانسان والحيوان وتفتك بها جميعاً فتكاً ذريعاً في بعض الاحوال. انها لا تبأ بالانسان العاقل الجبار بل تتحداه دواماً وتعيش على لحمه ودمه وتزهق في كل يوم آلافاً بل ملايين من الارواح البشرية والحيوانية. لم يستطع الانسان بعقله الواسع الغزير وعقله الجبار العظيم ان يقضي على تلك المخلوقات الضئيلة التي تتغذى بدمه وأحشائه ثم تفرز فيها سموماً ناقعة تودي بحياته. وكل ما استطاع ان يفعله هو انهُ أذلها وكسر من شرتها وأصبح مالكاً لقيادها بحيث يستطيع ضبطها ومقاومتها. ولكن كثيراً ما يفلت زمامها من يده وتهيج مرة واحدة فتذيق الانسان والحيوان من صنوف العذاب أشكالاً وألواناً وأخيراً تذهب بالارواح جملة. تلك هي جراثيم الامراض التي نخشاها ونفرق منها. وغير ذلك بعض الجراثيم النباتية التي تقع في طعامنا وشرابنا لتتغذى بهِ أيضاً

فتحيلهُ وتحيل منهُ مركبات أخرى فاسدة ذات روائح كريهة أو طعم بشع . وفي مقدورنا ان نتصور عظم ما تخسره الانسانية كل عام من جراء تلك الجرائم التي تتلف اللحم واللبن والخضر والفاكهة والشراب وغير ذلك مما تقدر قيمتهُ بملايين الجنيهات . . .

ومن الناحية الاخرى تقع جرائم من نوع آخر في كثير من صنوف الطعام والشراب فتحيلها تماماً او بعض الشيء وتغير من تركيبها او طعمها بحيث تصبح أطيب مذاقاً وأشهى الى النفس . والامثلة على ذلك متعددة فبعض أصناف الجبن مثلاً لا تكتسب طعمها الطيب المعهود من غير ان تقع عليها اصناف خاصة من الجرائم النباتية تعيش عليها وتتكاثر وتحيل بعض موادها وتفرز بها افرازات خاصة . ونحن لا نأكل من جبن « الروكفور » الفذ ذا الشهي مادتهُ اللبنية فقط بل والعفن الذي عليه بجراثيمه مما يجعل لهُ هذا الطعم الزكي الحاص . وثمة مثل آخر هو الخبز الذي لتطيبهُ فاكنا لنستسيغهُ او لنستطيع اكله ما لم نضع مع العجين قبل خبزه قليلاً من نبات الخميرة الذي يخمر بعضاً منهُ فيجعله لذيذاً شهيًّا . يرحب الانسان بمثل هذه الجرائم النباتية ويتركها تعمل عملها بل ويشجعها عليه بما يهيء لها من الظروف الخاصة المساعدة وكم نحن مدينين لامثال تلك النباتات الدنيئة التي يتوقف على نشاطها الكثير من الصناعات الكبرى التي تدر علينا الخير الوفير والبر العميم

هذا ولم تقتصر العلاقة بين الانسان والنبات على الناحية المادية فحسب بل تعدتها الى الناحية المعنوية ايضاً . فقد استعان الانسان بالنبات في طقوسه الدينية وفي افراحه وأتراحه . وأدرك ما في اجزائه وألوانه من رشاقة وجمال فأحبهُ وأحاط نفسه به في غرفه وحدائقه ومتنزهاته واتخذ منهُ معيناً لا ينضب يشع منهُ ناحيته الفنية . وسيظل النبات من اهم موارد الالهام للشعراء والمفنين يشيدون بجماله ويبرزونه للعالم في شكل رائع جذاب . كما انهُ سيظل مورداً خصباً يأخذ منهُ الانسان لزخرفة مسكنه ومعبده وملبسه وشتى ادواته المنزلية وغير المنزلية

نرى من كل ما تقدم صورة واضحة يظهر لنا في ناحية منها التعاون بين الانسان والنبات واعتماد الاول على الثاني في معيشته وأعماله بل وفي حاجاته الفنية والروحية ويظهر من الناحية الاخرى منها ذلك الصراع الهائل الطويل المدى بين الانسان والنبات . فالنبات يهاجم الانسان رأساً ويهاجم طعامه وشرابه ونباتهُ الذي يزرعه وحيوانه الذي يرعاه ، والانسان بدوره يذود عن نفسه وعن حيوانه ونباته الذي تحت كنفه بكل ما اوتيه من قوة وحيلة مستعيناً في كفاحه هذا بشتى الوسائل كالبرودة الشديدة والحرارة المرتفعة والجواهر السامة وغير ذلك من الوسائل الطبيعية والكيماوية الفعالة . وخلاصة ذلك ان ما نفقده من النبات لبعض الف الف مرة ما يصيبنا منهُ واننا مدينون له بحياتنا المادية والروحية الى حدٍّ كبير

قصب السرعة

بين الاحياء

والطيران حول الارض في نهار واحد

يعلم قراء المقتطف ان قصب السرعة في الكون للضوء فهو يسير بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . ويعلمون كذلك ان من الطيور ما تتجاوز سرعتهُ مائة ميل في الساعة ، وبعضها كالصقر او البازي يبلغ ١٦٠ ميلاً في الساعة او اكثر قليلاً . وهذه سرعة عظيمة ، ولكنها مع ذلك تجعل الصقر بطيئاً البطء كلّهُ بالقياس الى حيوان آخر تزيد سرعتهُ على سرعة امواج الصوت ! ذلك الحيوان حشرة صغيرة تعرف باسمها العلمي « كيفينومايا » Cephenomyia وباسمها الشائع « ذبابة الايل » وهذا الاسم الثاني مستمد من كونها تتطفل وهي يرقٌ على بعض الحيوانات من نوع الايّل فتسكن سالكها الانفية والحلقية . ويقال انها تختزن الغذاء وهي في هذه المرحلة من حياتها وتستمله عند ما تتحول ذباباً

وقد روى المواليدي الاميركي العلاّمة روي تشابمن اندروز — مدير المتحف الاميركي للتاريخ الطبيعي — في مجلة التاريخ الطبيعي التي يصدرها ذلك المتحف ان العلاّمة الدكتور تشارلز تونزند قضى سنين كثيرة في دراسة هذه الحشرات فوصفها في كتاب خاص بحث به الى الدكتور اندروز بانها تخترق الجوّ فتخطف البرق وانهُ قاس سرعتها وحقق القياس بوساطة مصوّرات ضوئية سريعة خاصّة فاذا سرعتها تبلغ ٤٠٠ باردة في الثانية او نحو ٨١٨ ميلاً في الساعة . وكتب تونزند مقالاً عنها في مجلة الحشرات التي تصدر بنيويورك فقال انهُ قد يصعب على اي كان ان يصدّق ان حشرة تستطيع ان تسبق رصاصة بندقية ولكن ذبابة « الكيفينومايا » تستطيع ان تسبق رصاص البندقيات القديمة ولا يستبعد ان في مكنتها ان تساير قنابل المدافع الالمانية الضخمة التي اطلقت على باريس في اثناء الحرب العالمية

والغريب في هذه الحشرة ان ذكرها أسرع من اناثها ويفسّر ذلك بأنهُ لا بدّ للذكر

من ذلك لكي يلحق بالاثى حتى ينسى آلام الزواج . ولو كان في الامكان ان تصنع طيارة تطير بسرعة هذه الذبابة لاستطاعت ان تطير حول الارض عند خط العرض الشمالي ٤٠ مثلاً بين شروق الشمس وغروبها في يوم من ايام الصيف ولا يخفى ان اسرع الطيارات لا تتجاوز سرعة ٤٥٠ ميلاً في الساعة . وان سرعة امواج الصوت في الهواء ١٠٨٩ قدماً في الثانية اي اقل من ٤٠٠ ياردة وهي سرعة هذه الذبابة العجيبة

***

من الثابت ان كل ما اصابتهُ انواع الحيوانات من الرقي في الحركة والانتقال مبني او متصل بمبادىء ميكانيكية مستقرة في شكلها وتركيبها ، فاذا عرف العلماء أسرار الحركة السريعة في ذباب « الكيفينومايا » تمكنوا من بناء آلات للطيران قائمة عليها فيبلغون سرعة قد يتعذر عليهم بلوغها اذا اقتصروا على اتخاذ الطيور مثالاً لهم ينسجون على منواله . وان ما شاهدناه من معجزات المخترعات والمستنبطات في هذا العصر يشير الى ان الجزم باستحالة شيء لغرابته او بعده عن المألوف جرأة لا يقدم عليها عاقل

فاذا استطاع العلماء والمهندسون ان يتبينوا اسرار السرعة في هذه الذبابة ، وان يطبقوا مبادىء حركتها وقواعد شكلها في بناء الطيارات ، وان يجعلوا الطيارات بحيث تطير في طبقات الجوّ الطخرورية حيث الهواء لطيف والمقاومة للطيارات أقل منها على ارتفاع بضعة آلاف من الاقدام ، فليس من المتعذر ان تبلغ الطيارات سرعة ٨٠٠ ميل او الف ميل في الساعة

فاذا اتيح لنا الطيران بطيارة من هذا القبيل سبع عشرة ساعة متوالية تمكّنا من الطيران بها حول الارض في نهار واحد . فالمسافة حول الارض عند خط العرض الاربعين نحو ١٤ الف ميل . فاذا طارت الطيارة بسرعة ٨٠٠ ميل في الساعة تمكّنت من الطيران حول الارض في ست عشرة الى سبع عشرة ساعة . واذا فرضنا انها قامت من نيويورك في الساعة الخامسة صباحاً فانها تبلغ مدينة « أوماها » بالولايات المتوسطة الاميركية في ساعة ومدينة « رينو » على حدود كاليفورنيا في ساعة أخرى ومدينة « باكين » بالصين في ست ساعات ومنها الى « استانبول » في أربع ساعات أخرى ثم الى « مدريد » في ساعة ونصف ساعة ومنها الى « نيويورك » في ثلاث ساعات ونصف ساعة فتصلها في الساعة العاشرة مساء

فاذا تحقق عمل من هذا القبيل فاق خرافات الاقدمين عن بساط الريح وروايات جول فرن الفرنسي مع ما كان فيها من التطرف في الخيال والوهم حين وضعت ، ولكن الحقائق التي يقوم عليها هذا الزعم ثابتة نقرؤها في فصل الحشرات من كتاب الطبيعة المفتوح

الانسان المجهول

للعلامة الكسيس كارل

تلخيص : اسماعيل مظهر

ينبغي إذن ان نتعرّف كيف ينتظر ان تؤثر أساليب الحياة الجديدة في مستقبل السلالة البشرية . فان استجابة النساء لاوجه التكيُّف التي اتاحت حياة اوائلنا وعاداتهم ، من طريق الانقلاب الصناعي ومدنية الانتاج الآلي ، كانت حاسمة سريعة . ولك ان ترى شيئاً من ذلك في ان نسبة المواليد قد نقصت فجأة . ولقد كان لهذا الحادث أثره البالغ الجَلَل في الطبقات الاجتماعية وفي الامم التي كان يظن انها سوف تكون أكثر اهل الارض استمتاعاً ، إن مباشرةً أو بالواسطة ، بفوائد التقدم الحديث وجنياً لثمراته ، بتطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عمليًّا . على ان القيام بالارادة — اي تحديد النساء بحكم الاختيار — ليس حادثاً جديداً يشهده لاول مرة تاريخ العالم . فانهُ كان طابَع بضعة عهود مرت في تاريخ مدنيات بائدة . إنهُ لمَرَض طائني. على اننا ولاشك نعرف له مكانتهُ تمام المعرفة

وإنهُ لمن الظاهر أن التغيرات التي اتاحت محيطَنا بذيوع « الصناعية » — Technology — وبالحرّي الفن الصناعي ، قد أثر في جميعنا تأثيراً بالغ المدى . بَيْدَ ان نتائج هذا « الفن » قد لا يسرّنا خليقة لم تكن نتوقعُها . لقد أدركنا ان لها نتائج تنافي كل المنافاة تلك التي أمّلْنا فيها ، والتي كان لنا ان نرتقبها من أوجه الارتقاء التي اتاحت مساكننا وطرائق حياتنا وأغذيتنا وتعليمنا والجو العقلي الذي كوّنتهُ من حولها الخلائق البشرية في العصر الحديث

إذن نتساءل : كيف انتهينا الى هذه النتائج المتناقضة ؟

٥ — إن هذا التغير مضر ، مادام انهُ قد تمّ من غير لظر صادق في حقيقتنا

قد يمكن ان نجيب عن هذا السؤال جواباً بسيطاً ساذجاً ، فنقول : إن المدنية الحديثة قد تحرّجت وارتجّت دعائمها ، لانها لا توائمنا . ذلك بان قواعدها قد اقيمت من غير لظر في حقيقة

طبيعتنا أو معرفة بها ، وانها وليدة تزاوج الكشف العلمي ، وشهوات الناس وخيالاتهم ونظرياتهم ورغباتهم . فمهما تظن انك من أنها قد شبعت بحبوبها ، فانها خلقت بعيدة عن ان تكافىء منا الحجم والشكل

والظاهر الجلي ان العلم لا يتبع طريقاً مرسوماً او خطة معينة . أنهُ يسير خبط عشواء . وأوجه تقدمه رهن حالات اتفاقية ، القضاء الصرف مصدرها ، والقدر الاعمى ينبعها . مثل ذلك ميلاد المبافرة ذوي الكفايات ، وتكوين عقولهم ، والاتجاه الذي تتجه اليه قوة التطلع فيهم . وكل هذا لا يقع اتباعاً للرغبة في تحسين حالات الانسان . فإن المكتشفات التي أحدثت المدنية الصناعية إنما جاءت تبعاً لما تنطَّب على مشاعر العلماء وميولهم من الاهواء ، والظروف التي أحاطت بمنجماتهم . فلو أن غاليليو ونيوتن ولافوازيه كانوا قد صرفوا قواهم العقلية الى درس الجسم البشري والتريه اذن لكانت حياتنا غيرها الآن . فان رجال العلم لا يدرون في اي طريق هم مسوقون . انهم انما تقودهم المصادفة والتفكير العلوي ، وبالحري ضرب من الكشف النفسي — clairvoyance ، ان كان منهم بمنزلة عالم برأسه ، له سلطةُ التي تحكمهُ . وبين الفينة والفينة يتجلى لهم من الاشياء ، ما يظل غامضاً على غيرهم . وعلى الجملة نريد ان نقول إن المكتشفات إنما تأتي عفواً من غير تقدير للنتائج التي تترتب عليها . على ان تأثيرها قد أحدثت في الدنيا انقلاباً بالغاً ، صوَّر حضارتنا في الصورة التي نشهدها

انتقينا من تلك الثروة العلمية الضخمة أجزاء بعينها . على ان اختيارنا لتلك الأجزاء لم يكن حليف النظري ما تحتاج اليه الانسانية من المصالح العليا . لقد اتبعنا في الاختيار اتجاهاً أملتهُ علينا ميولنا الطبيعية . ان العوامل المسيِّرة التي أدت الى نجاح المخترعات الحديثة في حضارتنا قد ترجع في حقيقتها الى مبادىء تعلق بها الانسان هي : الحصول على الراحة والرضا ببذل أقل ما يمكن من الجهد ، والجذل الذي تحدثهُ السرعة او اختلاف المناظر ، مضافاً الى ذلك حاجة الانسان الى التخلص من ذات نفسه بعض الاحيان . ولكن فلنسأل أحدٌ نفسه : كيف يستطيع ان يواجه عوامل الاستسراع التي اثابت ألفة الحياة وانسجامها ، تلك العوامل التي تتجلى مظاهرها في سرعة الانتقال والمبرقة (التلغراف) والمسرَّة (التليفون) وأساليب التعامل الحديثة ، والآلات الكاتبة الحاسبة ، بل وجميع تلك الاجهزة التي تقوم الآن بأعمال المنازل الحديثة . فان النزعة التي حملتنا على استخدام الاجهزة الحديثة ، كالطائرات والسيارات والخيالة والمسرَّة والراديو ، والتي ستحملنا في القريب العاجل الى استخدام المرئاة Television هي في حد ذاتها نزعة طبيعية ، أشبه بتلك التي حملت آباءنا في ظلام القرون الاولى ، على ان يكفوا على تعاطي الخمور . فالمنازل المدفأة بالبخار والنور الكهربي والمراقي elevators وذيوع الاغذية الكيماوية والتزام حدود

أدبية خاصة في الحياة التناسلية ، عامةً ذا لم يتنبه الناس الا لأنها مخترعات محببة الى النفس ، مجلبة للرضا . ولكن لم يلتفت أحدٌ الى شيء مما لها من الاثر المحتمل في الخلائق البشرية

***

في تنظيم الحياة الصناعية لم يلتفت الى شيء مما للعمل من التأثير الوظائفي والعقلي في حياة العمال . فالصناعة الحديثة قائمة على قاعدة — « أكبر نتاج بأقل نفقة » — حتى يتمكن فرد واحد أو مجموع من الافراد من كسب أكبر مبلغ يمكن كسبهُ من المال . ولقد نمت هذه الطريقة وتشعبت من غير ان تساور انساناً فكرة ما في طبيعة الخلائق البشرية الذين يحركون الآلات ، ومن غير ان يؤبه بالتأثيرات التي تنتاب الافراد ، وبالتبعية اعقابهم ، من طريق ذلك الاسلوب المصطنع الذي تفرضهُ حياة العمل عليهم فرضاً . كذلك شيدت المدن العظيمة من غير ان يحسب حساب للخلائق التي تسكنها . فالمطرحات Sky-scrapers بصورها الدميمة وحجومها العظيمة لم تقم الا على فكرة الحصول على أكبر ايراد ممكن من كل قدم مربعة من الارض ، وتزويد ساكنيها ، أصحاب مكاتب كانوا أم طلاب إقامة ، بأماكن يرتاحون اليها ويأنسون بها . وكان هذا سبباً مباشراً في اقامة تلك العمائر المطرّحة العظيمة ، التي تزدحم بعدد كبير من أبناء آدم . وأبناء المدنية الحديثة يألفون هذا الاسلوب من الحياة . وبينما هم يمتعون بمباهج هذه الحياة وزخارفها التي تحوطهم في مساكنهم تلك ، ينسون أنهم قد جرّدوا من حاجيات الحياة . فان المدن الحديثة انما تتألف مما يشبه الاغوار السحيقة القائمة جنباتها حقافي شوارع مظلمة ضيقة شاع فيها لهب الغزولين وتراب الفحم والغازات المُسِّمة ، وتعالت فيها جلبة السيارات والعربات والترام ، وازدحمت على غير انقطاع بجماهير غفيرة من الناس . والمدرك من هذا جميعه ان المدائن الحديثة لم تُشد بحيث تتفق مع الخير الذي ينشده سكانها

ان حياتنا الحديثة تأثر الى حد بعيد بالاعلانات التجارية . ذلك بأن اذاعة هذه الاعلانات لم يلحظ فيه مصلحة المستهلك ، بل منفعة المعلن . ومثلنا على ذلك ان الجمهور قد لقن ان العيش الابيض خير من العيش الاسمر . فطفق تجار الدقيق يمعنون في تنخيل المرّة بعد المرة حتى تجرّد من كل عناصره المفيدة . وبذلك استطاع تجار الدقيق وأصحاب المخابز ان يحصلوا على أرباح أعظم مما كانوا يربحون ، في حين ان المستهلكين قد انحطت قيمة غذائهم ، وان اعتقدوا انهم انما يأكلون غذاءً أنضج من غذائهم الاول . وقد اتضح ان الامم التي يؤلف الخبز غذاءها الرئيس ، مضت تتحدر وتنحط . والحصل أن اموالاً طائلة تنفق على الاعلان . فكان من نتائج ذلك ان مقادير عظيمة من المنتوجات الغذائية والصيدلية ، منها ما هو غير مفيد ، ومنها ما هو مضر ، قد اصبحت من الحاجيات التي يكلف عليها الانسان المتمدن . وبهذا نجد ان طوائف من ذوي الطمع والجشع

قد استطاعوا بطرائقهم الخاصة في دفع الجماهير الى استهلاك سلعهم التي يعرضونها للبيع ، ان يحدثوا اثراً بالغاً في حالات العالم الحديث

ومع هذا فان الدعاوة التي توجه طرائق عيشنا في الحياة الجديدة ، لا تخضع دائماً للبواعث الأنانية . ذلك بان الظاهر من طبيعة تلك الدعاوة أنها بدلاً من ان تتجه الى فائدة الافراد المالية او فائدة جماهير منهم ، فانها في الاكثر ترمي الى النفع العام . غير انها الى جانب هذا قد تكون بالغة منتهى غايات الضرر والفساد ، إذا هي صدرت عن اشخاص تصورهم ، الذي كوّنوه عن هذا الكائن البشري ، ناقص او خاطىء . ولنضرب لذلك مثلاً . فان اطباءنا اذ ينصحون بالتزام ضروب خاصة من الطعام ، وكثيراً ما يفعلون ذلك ، يزيدون الاطفال تسارعاً في النماء ، وبدل فعلهم في مثل هذه الحال على انهم ولا شك يجهلون الموضوع الذي يعالجونهُ ، فهل الاطفال الذين هم اكبر حجماً او أكثر ثقلاً ، اصلح من اولئك الذين هم اصغر حجماً او أخف وزناً ؟ فان الذكاء والنشاط والهمّة والقدرة على مقاومة الامراض لا تتوقف على وزن الجسم او كبر الحجم ، أو ما يجري ذلك المجرى من الصفات . ومثل آخر نقتطعهُ من معاهد العلم . فان التعليم الذي تفرضهُ المدارس والجامعات انما يعنى غالباً بتدريب الذاكرة ومرانة العضلات على نمط اجتماعي خاص ، يُسلم حتماً الى شيء من الضعف النفسي ، يتجلى في عبادة الرياضيين ، فهل مثل هذه النظامات مفيدة لرجال العصر الحديث الذين هم أحوج ما يكونون الى الاتزان العقلي وثبات الاعصاب والحكم الصادق على الاشياء والهمة والشجاعة الادبية وقوة الاحتمال ؟ ولقد نتساءل لماذا يتصرف رجال الصحة تصرف المقتنعين بان الانسان عرضة لان يصاب بالامراض المعدية وحدها ، من غير ان يفكروا في انتهُ الى جانب هذا سيتعرّض الى الاضطرابات العصبية والعقلية والى ضعف العقل بصورة عامة . ومن هنا نرى ان الأطباء والمعلمين ورجال الصحة ، ولو أنهم يبذلون جهدهم رامين الى خير الانسان ، فانهم لا يصيبون الغرض الذي يسعون اليهِ . ذلك بانهم يعالجون مقدسات لا تتضمن من الحقيقة الا جزءاً ضئيلاً . وقد يصدق هذا الحكم على كل اولئك الذين يستعيضون بميولهم واحلامهم ومذاهبهم عن تلك الحقيقة الجامدة التي تدعوها الانسان . وما هؤلاء غير نظريين يحاولون ان يقيموا مدنيّات لا تلائم عند الواقع غير صورة مشوّهة ممسوخة من الانسان ، لا الانسان على حقيقته . والذي لا شك فيهِ ان أنظمة الحكومات التي تقوم في ادمغة أصحاب المذاهب الاجتماعية من غير ان تكون اصولها مستمدة من الحالات الراهنة ، اشياء معدومة القيمة حريّة الوزن . فمبادىء الثورة الفرنسية ، واوهام ماركس ولنين ، إنما تصلح لنوع من البشر خيالي لا حقيقة لوجوده . ولذا أقول انهُ من الواجب أن نؤمن بأنّ السنن التي تحكم الصلات الانسانية ما تزال مجهولة حتى ، وإن لنا ان

تقضي الى جانب هذا بأن علمي الاجتماع والاقتصاد علمان ظنيان حدسيّان، وبالحري علمان كاذبان

لهذا نقول أن المحيط الذي تعاون العلم والفن الصناعي على تلوينه وتحجيا في خلقه ليكون للانسان مباءة، محيط لا يوائم الانسان، ذلك بأنهُ شيد اعتباطاً، من غير نظر في حقيقة ذاته

٦ — حاجتنا الى معرفة أوفى بحقيقة ذواتنا

والمحصل: ان علوم المادة الجامدة قد أحرزت تقدماً عظيماً في حين ان علوم الكائنات الحية ظلت بدائية. فان بطء التقدم الذي نأسف في علم الاحياء — Biology — إنما يرجع الى الحالات المحيطة بالوجود الانساني والى تعقد ظاهرات الحياة والى الصورة التي انصب فيها ذكاؤنا، وهو ذكاء يميل بفطرته الى الأبنية الآلية والى الرياضيات المجردة. ذلك الى ان تطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عملياً قد قلب الآية في عالمي المادة والعقل. وكان من جراء ذلك الانقلاب أن حدث تأثير عظيم الخطر على حالات الحياة. أما اخطر ناحية من نواحي ذلك الانقلاب فتنحصر في أنهُ استحدث من غير نظر أو اعتبار لطبيعتنا. فان جهلنا بأنفسنا قد أوسع المجال لعلوم الآلة والطبيعة والكيمياء تلك القوة التي مكنتها من ان تكيّف تكييفاً أعمى انماط الحياة التي ألِفناها أسلافنا

والحقيقة ان الانسان ينبغي ان يكون المقياس الذي يقاس عليه كل الاشياء. وبالرغم من هذه الحقيقة وعلى عكس ما تقتضيه تماماً، يعيش الانسان غريباً في هذا العالم الذي خلقهُ من حوله. لقد عجز الانسان عن ان ينظّم دنياه، لانهُ لا يملك المعرفة العملية بحقيقة طبيعته. فكان التقدم العظيم الباهر الذي حازتهُ علوم المادة الجامدة وبثت به العلوم ذوات العلاقة بالكائنات الحية، من أعظم الكوارث التي انتابت الانسانية. والمحيط الذي أبدعهُ ذكاؤنا وتلك المخترعات التي اخترعنا، قد أثبتت انها غير ملائمة لنا من اكثر الوجوه. نحن أنما نشعر بأننا تعساء، وانا نتحدر أدبيّاً وعقليّاً، وتلك عثائر الانسانية وأممها التي بلغت فيها المدنية الصناعية أرقى مبالغها، هي بذاتها العثائر والامم التي نرى انها آخذة في أسباب الضعف شيئاً بعد شيء، بل انها العثائر والامم التي نلحظ ان رجوعها الى الهمجية سريع وشيك. غير انها لا تشعر بهذه الحقيقة. انها تعيش غير محمية من أثر البيئات المعادية التي كوّنها العلم من حولها. والواقع ان حضاراتنا، كالحضارات السابقة، قد خلقت حالات أصبحت معها الحياة، لاسباب ما تزال غامضة، أمراً يكاد يكون مستحيلاً. فان متاعب أهل المدن الحديثة وشقاواتهم، انما تعود الى نظاماتهم السياسية والاقتصادية ومعاهدهم الاجتماعية، وفوق كل هذا، الى ضعفهم الذاتي. وعلى الجملة نشعر أننا ضحية لتأخر علوم الاحياء وسبق علوم المادة عليها

أما العلاج الاوحد لهذه السيئات فاستمانتنا في المعرفة بحقيقة ذواتنا. فان استمانتنا وتفقهنا في هذه المعرفة سوف يمكننا من معرفة وسائل الحياة الجديدة التي تؤثر في وعينا وفي جسومنا. وبهذا نفقه بأي سبيل نكيِّف انفسنا بحيث نلائم بيئاتنا وكيف نبدل هذه البيئات، إذا ما أصبح قلب نظمها وانسها ضرورة محتومة. وانما باستظهار طبيعتنا الحقيقية وكفاياتنا والطرق التي نجعل بها هذه الكفايات قوة ذات اثر واضح في الحياة، نستطيع ان نجلو نواحي ضعفنا الوظيفي ولسنين حقيقة امراضنا الادبية والعقلية. اننا بغير الاستماق في درس علوم الاحياء نعجز عن معرفة السنن التي تحكم أوجه نشاطنا العضوي والروحي، كما نعجز عن ان نعرف ما يجب ان نتنكب وما ينبغي أن نقبل عليه من أشياء الحياة، او أن نحقق على الاقل مدى حريتنا في ان نحوِّر من بيئاتنا أو أنفسنا بمحض اختيارنا

ان حالات البقاء الطبيعية قد حطمتها الحضارة الحديثة. وهذا ما يجعلنا نشعر شعوراً عميقاً بأن العلم بالانسان قد أصبح أسَّ العلوم بكياتنا

في الادب

قال الطغرائي في ولدٍ لهُ وافاهُ على كبر:

هذا الصغير الذي أوفى على كبري ... أقرَّ عيني ولكن زاد في فِكَري
وافى وقد أبقت الايام في جسدي ... ثلماً كثلم الليالي دارَة القمر
والشيب أردف مسودًّا بمشتمل ... والدهر أعقب منصاتاً بمنتظر
سبع وخمسون لو سرَّت على حجر ... لبان تأثيرها في صفحة الحجر
فزاد حرصي على الدنيا وجدَّ لي ... ضنًّا بمالي واشفاقاً على عمري
أضوى عليهِ وأخشى ان يماجلني ... يومي، ولم أقض من تشريجهِ وطري
وأشتهي أن أراهُ وهو مقتبلٌ ... غض الإهاب خضيب الوجه بالشعر
أحي ما آثر آبائي وأشبههم ... في مجدهم، واقتني في هديهِ أثري

زواج الاقارب

أضارٌّ هو أم نافعٌ

للدكتور بقي لنز

مسألة الزواج بين الاقارب وما قد يسفر عنهُ هذا الزواج من اولاد أصحاء او أعلاّء ، مسألة شغلت عقول الناس من قديم العصور . وهي مسألة معقدة لان المرء يميل على الغالب الى الحكم حكماً قاطعاً في الموضوع وفقاً لحادثة استوقفت نظرهُ او مراعاةً لبعض القواعد الدينية . ولكن إخلاف النسل السليم القوي غدا في عصرنا مشكلة كبيرة الشأن . ولذلك أصبح لعلم اصلاح النسل مكانة عظيمة في دوائر العلماء والعامة على السواء ، والنتيجة التي خرج بها العلماء من بحوثهم وتجاربهم هي ان الزواج بين الاقارب لا خطر فيهِ ولا خوف منهُ اذا كانت الاسرة التي يتم الزواج بين افراد منها اسرة سليمة

ولنضرب على ذلك بعض الامثال : هو ذا شاب يريد ان يتزوج ابنة عمهِ . فاذا دلَّ البحث الدقيق على ان الاسرة سليمة من العيوب الوراثية ، فليس ثمة ما يعترض بهِ على هذا الزواج من الناحية الطبية والصحية . بل على الضدّ من ذلك ان العلم يرى في هذا الزواج خيراً كبيراً يتجلى في صحة الاطفال التامة . او خذ مثلاً آخر . يريد اثنان من أسرة واحدة سليمة ان يتزوجا . ولكنَّ في هذه الاسرة أفراداً مصابون بحسر النظر (ميوبيا) وهو عيب غير بارز فلا يسترعي النظر لان كثيرين من المصابين بهِ لا يستعملون النظارات . ففي هذه الحالة يستهدف الاولاد — ثمرة هذا الزواج — لخطر الاصابة اصابة شديدة بحسر النظر لانهم يرثون الاستعداد لهذه الاصابة من أبويهم

ولكن اذا تزوج أحد شبان هذه الاسرة فتاةً من أسرة أخرى غير مصابة بحسر النظر بل بالبول السكري ، ففي هذه الحالة يقلُّ خطر الاستهداف للاصابة بحسر النظر لان الجرثومة الحاملة لهذا العيب تنتقل الى الطفل من ناحية واحدة هي ناحية الوالد . وعلى قدر ما يستهدف

الطفل لخطر الاصابة بحسر النظر ، يستهدف كذلك لخطر الاصابة بالبول السكري لان أسرة الأم مصابة به . وليس في هذا ما يمنع ان يصاب الطفل بحسر النظر او بالبول السكري . ولكن التعرّض لخطر الاصابة بأحدهما قليل . واذن يصحّ ان نقول إن زواج الاقارب ، اذا كانوا من أسرة سليمة من العيوب الوراثية ، لا خطر فيه على الاولاد

والعلماء لم يصلوا الى هذا الرأي على أساس التأمل النظري ، ولكنهم خلصوا اليه من تجارب متعدّدة واسعة النطاق

ففي المانيا بحديقة قصر روزلشتين على مقربة من مدينة شتتغارت يعيش فريق من الاتباع الافطاعيين البيض وقد مضى عليهم مائة سنة وهم يتزاوجون حتى غدت صلات القرابة بينهم وثيقة جدًّا . وليس ثمة ما يجيز لنا ان نقول إنهُ يبدو عليهم أقل دليل من ادلة الانحطاط او الخؤول البيولوجي . وفي سنة ١٨٦٤ نقل الى انكلترا ثلاثة من الاتباع الافطاعيين من زيلندة الجديدة فنسلوا في ٦٤ سنة ستة آلاف خالين جميعاً من آثار الخؤول . ثم ان الجياد الشهب في فردريكسبورج تولدت من تشبية جوادٍ وثلاث عشرة أصيلة . وهي مشهورة بصفاتها الممتازة على الرغم من التزاوج بين نسلها

***

وكانت الشريعة تقضي على ملوك « الانكاس » بأن يتزوجوا شقيقاتهم . فلما تغلب الاسبانيون عليهم في أميركا الجنوبية كان ملك بيرو أحدهم خلفاً لاسلاف يستغرق تاريخهم الف سنة ومع ذلك كان سليماً . أما انهُ عجز عن مقاومة الاسبانيين فلا دخل لهُ في الامر

وما لنا وللاعتماد على الشواهد البعيدة وعندنا في تاريخ مصر القديمة ما يكفينا حيث كان زواج الملك بشقيقته اجباريًّا . ولم تكن هذه القاعدة مما يتميز به الاعيان بل كان عادة شائعة في جميع طبقات الشعب

ومع ذلك لا بدَّ من ان نقول ان الاسر السليمة من العيوب نادرة الندرة كلها واذن لا بدَّ من اتخاذ الحيطة الكاملة عند النيَّة على عقد زواج بين قريبين لصيقين . ونحن نشير الى هذا عنايةً منا بالصحة الخاصة والعامة وسلالة الاطفال من العيوب الوراثية ، وهذا يفسّر عناية بعض الحكومات الاوربية بانشاء عيادات طبية خاصة حيث يعنى الاطباء المختصون بتنوير الخطيبين في هذا الموضوع الخطير واطلاعهما على ما يجب ان يطّلعا عليه . ومما يؤسف له ان مصر لم تنشىء حتى الآن عيادات من هذا القبيل

الدستور

والروح الوطنية

للأستاذ الفرسي

استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

مما ذكرناه آنفاً يتضح ان ما تدفّق به الشعر الدستوري من عواطف الحبور والتهليل راجع بالاكثر الى ما نشأ في نفوس الشبانيين عموماً والعرب خصوصاً من ايمان ثابت باخلاص الدستوريين ورجاء حيّ بحسن المصير. فكنت تراهم على شبه يقين من انهم أصبحوا ابناء لدولة عظيمة تحبّهم وترغب في تقدّمهم

ذلك الايمان وذلك الرجاء بثا في الشرق العربي روحاً جديدة أيقظت القلوب وأضرمت فيها الشعور بالفخر والكرامة الذاتية فألبست الادب حللاً قشيبة من الجمال. وقد ظهر ذلك في مظهرين رئيسيين هما الاعتزاز بالوطنية، والدعوة الى الاتحاد القومي. واليك البيان عما اختبرناه بأنفسنا وعرفناه من اختبار الآخرين

﴿ الاعتزاز بالوطنية ﴾ أشرنا في فصل سابق الى ما كان للحرب الروسية اليابانية ١٩٠٥ من أثر في تخمير الشرق العربي بروح الكرامة الشرقية. وقلنا ان ذلك لم يكن الا سبباً تمهيديًّا لحركة أعمق وأوسع نطاقاً. وقد بدأت هذه الحركة فعلاً عقب اعلان الدستور. وسنرى كيف تطورت مع الزمان. وكيف تغيرت أشكالها في شتى البلدان

ولا يخفى ما كان للاجانب في السلطنة العثمانية من نفوذ سياسي واقتصادي وفكري. فهم أصحاب الامتيازات وفي معاهدهم نشأ سواد المتعلمين، فلا بدع ان يتولد في نفس الشرقيّ ازاءهم ما يسميه علماء النفس بالصغار الذاتي[1]، حتى صار عند الجمهور كل شيء غربي أفضل من كل شيء شرقي، تاجرهم أصدق، وعالمهم أعلم، وصانعهم أحذق، بل وعنصرهم، أشرف وأرقى. وجرى ذلك بين الناس في الشرق العربي وألفوه حتى صار جزءاً من كيانهم النفسي. على ان النهضة العلمية أخذت منذ القرن الماضي تعمل على إضعاف هذا الشعور، فنشأ بين المفكرين من أثار على الصغار

(١) مقابلة للتعبير الانكليزي Inferiority Complex

الذاتي» حرباً شعواء داعياً الناس الى احترام النفس واكرام الوطن. كقول أحدهم[1]: «كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن في صناعة بلاده، ويفضل ما كان أو نجيًّا مهما كان». وقد نظر الكاتب هنا الى الوجهة الاقتصادية وهاله ان يرى تأخر الوطني لتأصل فكرة سقيمة فيه. ومنهم من نظر الى الوجهة الاجتماعية او الروحية فآلمه ان يرى ما يسود الناس من اعتقاد بأفضلية الغربي وتفوقه القطري على الشرقي. فقال[2]: «ام لا ترى انك لو نشيت بأس قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بأمره، وتولع بشكره، لما لبثت أن ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان رفيعاً، ومن يدرك سعيه وإن كان سريعاً».

وعرف الغربيون ذلك الشعور في الشرقيين فاستغلوه بل تمادوا في استغلاله حتى صاروا لا يتورّعون عن التشامخ على بني الشرق وامتهانهم في عقر دارهم. فمن الطبيعي ان يولد ذلك في نفوس الأباة من الشعراء. والكتبة «ردّ فعل» يظهر في منظومهم ومنثورهم كما ترى في قصيدة للزهاوي قالها قبل الدستور ومنها[3]:

كفى الغربُ فخراً انهُ متقدّم ... وانّ له مالاً به يتنعم
وانّ لهُ في البرّ جيشاً عرمرماً ... يماثله في البحر جيش عرمرم
ترقّى فلما اشتدّ ساعدهُ عتا ... وبات بنيط الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه بحقوقه ... سكوتاً كأنّ الشرق ليس له فمُ
فيا أيها الغرب المدلّ بنفسه ... رويدك ما هذا الغرورُ المذمّمُ
أتزعم ان الشرق يلبث صاغراً ... أمامك مقصوباً وأنت المكرّمُ
وتبقى عليه هكذا متسيطراً ... تمصُّ دم الاموال منهُ وتهضم

والقصيدة حوالي ثلاثين بيتاً وكلها على هذا النسق من البرم بهذه الحال ويتخلّلها فخر بالماضي وأمل بالمستقبل. وظلّ الامر كذلك إلى اوائل القرن الحالي حين أخذت الحضارة الجديدة تعمّ البلاد وحين توفّر الشرقيون على دراسة العلوم الحرّة، فعرفوا ما لهم وما عليهم. وكبرت نفوسهم فصارت الطبقة المثقفة منهم تشعر بوجودها، فيسؤها ما تراه في الوطن من اثرة أجنبية وتحاول القضاء عليها بشتى الوسائل ولا سيما بإحياء الروح الوطنية. على انها كانت تصطدم بالامتيازات الاوربية. ويفتّ في عضدها خنوع الدولة للاجانب وجهل العامة معنى احترام النفس والوطن. وقد زاد الطين بلّةً تلك الثمرات الطائفية وما ولدته من ضغائن ومخاوف، مما فتح الباب لتدخل الاوربيين بحجة حماية الاقليات، وبالتالي لازدياد نفوذهم الروحي والسياسي وشيوعه في جميع انحاء الشرق

(١) سليم البستاني مجالي الدرر (١٩٠٦) ١٠٠
(٢) أديب اسحق على الدرر ١٤٨ (٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٩٣

فلما اعلن الدستور وارتفع الضغط المضني عن الالسن والصدور ، اتقد الشعور الوطني اتقاداً لم يعهد من قبل واخذ الادب العربي يتغنى بالقومية تغنياً غريباً اشتركت فيه جميع العناصر والطوائف . وقلما كانوا يفرقون يومئذٍ بين الكرامة الشرقية والكرامة العثمانية ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك في حماستهم الدستورية فقلبوا للاجانب ظهر المجن ورفعوا الهلال العثماني الى اوج التعظيم

وقد كان شيء من ذلك قبل الدستور ولكنهُ لا يقاس بما وصل اليه بعده والذين ادركوا ذلك العهد لا ينسون قط تلك الهبّة القومية التي كان لها في نفوس الشبيبة فعل السحرات فأنهم حتى نساءهم مساوىء العهد السابق ، واطلقوا لاقلامهم وألسنتهم العنان فجرت في هذا المضمار جري السوابق . فلا تستغرب اليوم اذا قرأت لاحد ادباء بيروت المسيحيين الاصلاحيين قوله من خطاب القاهُ في الاسكندرية [1] :—

« ليبتهج العثمانيون فقد نشر الدستور ، وجاء اليوم الذي الّمّ فيه شعث الامة العثمانية وتآلفت اعضاؤها ، وتآخت اجزاؤها . فكلنا بنعمة الدستور عثمانيون — عثمانيون لا نعرف غير هذا اللقب لقباً ، ولا نتخذ سواه نعتاً . عثمانيون قبل كل شيء . عثمانيون طول الحياة . عثمانيون مذهبنا الحرية وشعارنا الوطنية وفخرنا الراية الهلالية وملجأنا الدولة العلية »

ومثله ما جاء في لسان الحال من التهنئة [2] : — قال الكاتب يصف حالتنا الاجتماعية والروحية قبل الدستور ويقابلها بما صارت عليه بعده — « لم يكن حالنا حال المريض فقط . بل لا نجازف اذا قلنا اننا كنا قد بلغنا حال المحتضر . وطال هذا الدور (اي دور الاحتضار) الى ان اتانا الدرياق فنشطنا من عقال الخمول ووثبنا وثبة الاسد من العرين » وبعد ان يصف هذه النهضة يشير الى علاقة الوطنيين بالاجانب فيقول (وهو من المعروفين باعتدال النهج) — « وسيرى الغريب من الفرنجة وغيرهم كيف يعاد مجد الامم وتتجدد حياتها بقوة افراد رجالها »

وقال احد الكتبة المسلمين [3] واصفاً ما كانت تقاسيه الدولة من السياسة الاوربية — « ان الدول كانوا يواصلون الضغط على جسم المملكة العثمانية ويضاعفون السعي لايقاع الشلل في عروقها الكثيرة التشعب . ولكن قضى ربك ان يردّ كيد اولئك المتسابقين الى نحر هذا الجسم المتضعضع الى نحرهم ، وتعود العثمانية بفضل الدستور قوية الشكيمة تقف في وجوههم وقفة الرجال لا جزعة ولا فزعة »

وعلى هذا المنوال نسج كثير من المقالات والخطب وكلها تشير الى ما كان يملأ النفوس من

(١) خليل زيلع جريدة الثبات ١ عدد ٦ (٢) عدد ٢٦ (تشرين اول : اكتوبر) ١٩٠٨
(٣) طه المنور في لسان الحال ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٠٩

النقمة على الاجانب او على الاقلّ من الامل بهوض الدولة فيسترد ابناؤها (الترك والعرب على السواء) مجدهم الغابر ولا يضطرون بعد ان يقفوا امام الاجنبي وقفة الضعيف امام القادر

اما الشعر فحدّث عن انقياده الوطنيّ ولا حرج . فيه اشتركت جميع الاقطار العربية والمهاجر حتى لبنان فانهُ برغم استقلاله الذاتي وبرغم اتجاهه نحو الغرب علقت به شرارة من ذلك اللهيب فكان من ابنائه في الوطن والمهجر شعراء يهزجون بعظيم الانقلاب والاستبشار به ، ويهللون للعرش العثماني وابطال الحرية . ومن اراد الاطلاع على ما قيل في هذا الباب فليرجع الى الصحف العربية في العامين ١٩٠٨ و١٩٠٩ (١)

ومما لا ريب فيه ان الشعر الدستوري في السنتين المذكورتين مفعم بروح التفاؤل شديد الحماسة للكرامة الشرقية والجامعة العثمانية . سواء في ذلك المسيحيّ والمسلم ، القائم على سياسة عبد الحميد او غير القائم . ومن امثلته هذان البيتان لسعيد شقير من قصيدته المار ذكرها —

لا زلتَ يا جيشنا فخراً لامتنا وظلّ اعلامك الاتحاد والشلبُ
ترقى المعالي وتركبنا لنا وطنٌ للعزّ والمجد فيها تُرفع القببُ

والابيات التالية من قصيدة للدكتور نقولا فياض (٢)

يا بني عثمان إنا امةٌ اصبحت موضوع اعجاب الامم
سعيد المدلُ تاريخاً لكم طبع المجد به منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسل واسع الذمة كفاف الذمم

وبعد ان يصف حماة الدستور الاحرار وافعالهم المجيدة وخوالج الامة يلتفت الى الغرب وعلاقته بتركيا فيقول : —

قل لاهل الغرب عنا حسبكم ان للادراك بأساً وكرم
حرّروا الشرق وذي افعالهم جدّدت صوته بعد الحرم

وكأنهُ يرى ما كان يراه كثيرون من الاجانب سبب التفريق بين الشرقيين فيقول : —

ولمن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهدٌ والصرمْ
غير دين الحبّ لا دين لنا نحن في البؤس سواء والنعمْ

ولعلّ الابيات التالية تمثل رؤوات الشباب الوطنية عهدئذٍ وعصبيتهم الشرقية الثائرة . وهي من قصيدة تليت يوم افتتاح « المبعوثان » (البرلمان العثماني) (٣) وتصف تألم الشرقيين من غطرسة الغربيين وشعورهم ان العهد الجديد سيضمن للشرقي حقوقه وكرامته . تبدأ بذكر

(١) راجع خصوصاً المنار (بيروت) (٢) راجعها في مجلة الهلال ١٧ — ٩٧ (٣) للكاتبة سنة ١٩٠٨

كانت عليه مصر وسوريا وما كان يعانيه أبناء الضيم فيها وفي سائر الاقطار العربية من صلف الاجانب حتى يحمل الناظم شعوره الى قوله : —

أترتجي الذلّ من أيدٍ تقبّلها كأنها للهدى والدين معتصمُ
ونحن نحتر في القطرين سيدنا ونكرم الزعفر الصلوك بينهمُ
دالاسرى في دم ابن الشرق فانقلبت أهنوه لا همٌ فيهم ولا شيمُ

ويتقدّم من هنا الى ذكر الانقلاب الدستوري وانبثاق النور الجديد من العرش العثماني وان هذا النور سيجلو ظلمات الهوان عن البلاد وسيربطهم معاً برابطة الوطنية الحقة والولاء لصاحب العرش . ثم يلتفت الى الغرب فيقول متحسراً

لظّى من النيل للدانوب متقدٌ الى العراق الى البحرين ملتهمُ
ان يكرمونا فان الشرق يكرمهم او يحقرونا فان الشرق ينتقمُ

ومما يلاحظ أن هذه الحماسة كانت شديدة الانقاد في شعراء المهاجر . كقول أحدهم [1]

حسب الغرب هبّة الشرق يوماً ورماها بأنها وهميّـــه
كذب الغرب ان في الشرق يوماً بشفار الصمصام شقّوا الدجيّه

وليس ما قدّمناه الاّ نماذج قليلة من الشعر الوطني الذي أنشأه الامل الدستوري في الاوساط الادبية المسيحية ، فما قولك بالاوساط الاسلامية وما نشأ فيها من حماسة شعرية وما أثارته من عواطف قومية والمسلمون عموماً أكثر ميلاً الى العثمانية وأشدّ نفوراً من السيطرة الاجنبية

ومن الخطأ الفادح أن يُساء الظن بتلك العواطف الوطنية وان يقال انها لم تكن الاّ من قبيل التزلف او المداهنة . قد تكون عواطف منترٍ او سكران ولكنها كانت بوشئ تخرج من قلوب كان كثير منها طافحاً بالامل والاخلاص . واليك تركيةً لذلك قول أستاذ عرف ببعد نظره وتروّيه في الامور . فقد لشر لهُ المقتطف خطبةً اختارها من بين كثير من خطب ذلك العهد اذ رآها من أدلّ ما ألقي في وصف تلك الحالة [2] . وقد جاء فيها وصف دقيق لحالة العثمانيين قبيل الدستور كقوله — « كنا منذ بضعة أسابيع والصدور خاشعة بما فيها . والنفوس واجمة من هول ما نرى من موقفها ، والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون . وكأنما أطبقت عليهم السماء أو سدّت عليهم منافذ الرحمة . وبينما نحن في هذه الظلمة المدلهمة وفي حالٍ من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية »

(١) آداب القرن التاسع عشر شيخو ٢ — ١٧٣ (٢) المقتطف ٣٣ — ١٩٠٨ الاستاذ جبر ضومط

ثم يتقدَّم الى شرح معنى الدستور وتأثيره حتى يصل الى قوله — « ترون مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا أرى ان أفراحنا به صبيانيَّات تافهة ، ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكريمٌ لهُ وخطاته نهوّسات صارة . بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جنب أهميته ومقدار قيمته . وأيُّ قيمة أعظم من قيمة الحياة — حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد ، وحياة العزة والقوة والتوازر والاستقلال والاستسلال للامة . فمن أراد الحياة فليقل لحي الدستور العثماني والقائمون به ومن أراد الموت موت الذلّ والصغار والاستعباد فلا رحمهُ الله . ولبئت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرَّة »

وقد شعر الاستاذ كما شعر أكثر العقلاء بوشك يطغيان ذلك التيار الوطني وخشي كما خشوا ان يقود الى الغرور والتهوّر او ان يستغلهُ أهل المآرب فناشد الناس قائلاً « دعوا التسرّع فان تسرّعكم لا يفيدنا الآن وان كنتم أخلص المخلصين وأغير أهل الغيرة الحقة على شرف العثمانية ومصلحة العثمانيين . انا في حاجة الى المخلصين أصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يعملون كما يقولون . مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادتنا وتدبيرنا »

ومن ظواهر الاعتزاز بالوطنية في ذلك الحين تلك الغارات الشعواء التي شنها الشعراء على بعض الدول الاوربية لتعديها على بعض الممتلكات العثمانية وضمها نهائيًّا الى أملاكها . كما فعلت النمسا بالبوسنة والهرسك . والبونان بكريت . ثم ما فعلتهُ ايطاليا بطرابلس الغرب : فكان شعراء العربية على اختلاف محلهم ومنازعهم يداً واحدة على المعتدين . وكان شعرهم غالباً كالبحر الثائر يرمي صخور الشاطىء بالزبد الصاخب . كقول الشاعر اللبناني من قصيدة وطنية (١)

ألا من يبلغ النمسا كلاماً ... تسجّلهُ ونورتهُ البيّنا
بان عهودها كانت سراباً ... وكان وِدادها (بلفاً) مبينا
فلا تجد السنون الى التصافي ... سبيلاً ما تعاقبت السنونا
او النمسا تكفر عن ذنوب ... جنتها فاغتدت عاراً وهونا
أتحسب جارة الدانوب أنّا ... نذلُّ لمثلها ابداً جبينا

ولا ريب ان الشاعر كان في هذه الابيات يعبّر عن الشعور العام في المملكة العثمانية ، وقلَّما خطر يوشك بباله ان « جارة الدانوب » منصبح عن قريب حليفة الدولة العثمانية في الحرب العالمية . وفي حادثة كريت كان من تحمس العثمانيين عموماً ما حمل شاعراً لبنانيًّا آخر على نظم قصيدة بدوية النزعة ومنها (٢) :—

(١) شبلي الملاط — راجع شيخو ١٧٧ (٢) لامين ناصر الدين راجعها في ديوانه صدى الخاطر تحت موضوع قادة كريت وكذلك في شيخو ١٩١ على ان في الروايتين بعض الاختلاف

أظنَّ بنو اليونان ان سيوفنا تنامُ ام اخفى علينا التأخرُ
ألم يذكروا بالامس ما كان بيننا على حين خفنا الموت والموت يزخرُ

لعله يشير بذلك الى الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧

صدمناهم تحت الجاجة صدمةً كما راع اسراب الظباء غضنفر
وكان لنا معهم وقائع لم تزل احاديثها في الخافقين تُكرَّرُ

ومنها يخاطب اليونان : —

تحيَّنتمُ وقتاً توالت خطوبهُ لادراك امرٍ نيلهُ متعذّرُ
وخلتم توالي الظلم اورث شعبنا خمولاً واصبحنا على الهون نصبر
قهرناكمُ والملك قد كان ذاوياً فكيف وروض الملك فينان اخضرُ

أي قهرناكم أيام عبد الحميد والدولة في حال البؤس فكيف الآن وهي زاهية بعهدها الدستوري الجديد

فاضمُمْ إكريت بهلو فدونهُ صدام الرزايا والهلاكُ المقرَّرُ[1]

ولشاعرنا اللبناني نفثات كهذه في حوادث البلقان وأدرنه وحرب طرابلس الغرب وغيرها من الوقائع السياسية التي كانت مثاراً للخواطر قبل الحرب الكبرى

ومثل ذلك نجده في الشعر العراقي . فالرصافي مثلاً ، وقد عرفنا انهُ كان قبل الدستور من الاحرار أو الثائرين على سياسة الحكومة الحميدية ، اصبح بعده من الغالين في نصرتها المتحمسين في مقارعة أعدائها . وله قصائد رائعة يستنهض فيها المسلمين الى الجهاد ذوداً عن الوطن العثماني كقوله من قصيدة في الحرب الطرابلسية موضوعها « الى الحرب »[2]

ألا انهضْ وشمِّر أيها الشرق للحربِ وقبل غرار السيف واسلُ هوى الكتبِ
ولا تغترر ان قيل عصرُ تمدّنٍ فان الذي قالوه من اكذب الكذبِ
ألست تراهم بين مصرٍ وتونسٍ أباحوا حمى الاسلام بالقتل والنهبِ
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنبِ

وله أشدُّ من ذلك في هذه الحرب وفي ادرنه والبلقان وسواها . والظاهر ان اقامته في الاستانة قد أثرت كلَّ التأثير في الناحية القومية الدينية من نفسه . فلما نشبت الحرب العالمية وخاضت غمارها تركيا الى جانب المانيا والنمسا اخذته الحمية الدينية كما اخذت كثيرين سواهُ فنظم قصيدة موضوعها « الوطن والجهاد » يدعو فيها المسلمين الى قتال أعداء الوطن والدين (اي الحلفاء) ولكي يدرك القارىء ما كان يسود بعض الاوساط العربية في ذلك العهد (أي قبل

(١) والظاهر ان هذا البيت حذف من القصيدة في صدى الخاطر (٢) وليها وراجع اعتطافي باب الحريات من ديوانه (بيروت ١٩٣١)

ان تبدّل الحال بظهور الدعوة العربية والثورة الحجازية ،) تنقل لهُ منها بعض أبياتها الاولى — قال : —

يا قومُ إن العدى قد هاجموا الوطنا فانهضوا الصوارم وأحموا الاهل والسُّنّا
واستنفروا نعدوّ الله كلَّ فتىً من نأى في أقاصي ارضكم ودنا
واستنهضوا من بني الاسلام قاطبةً من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطنٍ به تقيمون دين الله والسُّنّا

وبعد ان يجري شوطاً في هذا المضمار يلتفت الى مصر فيندّد بحكومتها (أو قل بسلطانها يومئذٍ ووزارته) لمجاراتهم الانكليز والانقياد لسياستهم . ويعود بعد ذلك الى الوطن والدعاء لهُ فيقول

لا زلتَ ياوطن الاسلام منتصراً بالجيش يزحف من ابنائك الأُمنا
إنّا نحبّك حبًّا لا انتهاء لهُ يستغرق الارض والاكوان والزمنا

ويخصُّ العراق بالقسم الاخير من القصيدة وما أشبع عن اقتراب العدوّ منه ، فيحضّ العراقيين على الاستبسال في صدّه —

إن العراق لعمرُ الله سبّةٌ تواثب الأُسْد فيها من هنا وهنا
هم الفناديرُ ان صالوا بملحمةٍ فلا يرون لهم غير المنون سُنى

ويجري مجرى الرصافي من شعراء العراق محمد حبيب العيدي ، وخيري الهنداوي ، ومحمد الحسين كاشف الغطاء ، وعبد العزيز الجواهري وسواهم ممّن نفخ فيهم الدستور روحاً جديدة فحملهم على مناصرة الخلافة والهجّم على اعدائها في أوروبا ، وأضرم فيهم الغيرات الشرقية والدينية ، حتى قال أحدهم من قصيدة موضوعها « بعد حرب الطليان والبلقان » . (١)

اظهر الغرب ما أجنَّ من الغدر — وأبدى كوامن الاضغانِ
وأحاطت بالمسلمين طوجُ البغي — من كل جانبٍ او مكانِ
أيها المسلمون هبّوا فليس الموتُ — الاّ حياتكم بهوانِ
قد دهاكم ويلٌ فاذا التغادي وأتاكم سيلٌ فاذا التواني
جاءكم جارف من الغرب تيّارٌ — يهدُّ البنا وأمّ المباني

ولحبيب العيدي قصيدة اسمها « ألواح الحقائق » القاها في المنتدى الادبي العربي في الاستانة بعد خطاب له في الحرب الطرابلسية وهي تقرب من خمسمائة بيت وقد ضمّنها أهمّ الحوادث التاريخية من عهد الرسالة الى زمن انشادها (٢) . ومما نقل الينا منها يصح ان نحكم انها تعبر

(١) محمد كاشف الغطاء . راجعها في كتاب الادب العصري في العراق لروفائيل بطي الطبعة الاولى ج٢ — ٨٢
(٢) راجعها في الادب العصري : لبطي ١ — ١٤٨

تعبيراً جليًّا عن هذه الهبّة المعنوية في نفوس الشرقيين وعن أمانيهم في ارجاع مجدهم الغابر ونفض ما كان قد لحق بهم من عار التأخر — كقوله —

كيف ترضى ياشرق ان يمشيَ الـــغرب اماماً وانت تمشي وراه
أفلم يأنُ ان تجدد عهداً شهد الصُبح فضله والمساء
أنـام الهوان دون المنـــايا انما الموت والهوان سواء

وهو يصل هذه النهضة الشرقية بمجد العرب الاقدمين ويحثها بذكر مفاخرهم التاريخية . ويدعو بني الشرق عموماً الى النهوض والجري في سبل العلى والتقدّم . ومثل ذلك خيري الهنداوي في قصيدته « أيها الشرق »[1] ، وقصيدته « فتاة ملايك »[2] ومن هذه الاخيرة قولهُ متألماً —

أُم البلاد أضاعك الاقوامُ فبكى مرابع مجدك الاسلامُ
يا أيها الشرق الذي قد عمّهُ الغرب من بعد الشروق ظلامُ
ما الغرب أوّل ظالم لك بالذي يأتيه بل ابناؤك الظلاّمُ
قد أهملوكَ وانت معقل عزّهم فاستهوتك بوطئها الاقـــدامُ

ولقد يجوز أن تتهم بعض شعراء ذلك العهد بمداهنة الاتراك وان شعرهم لذلك لا يعكس لنا الشعور العربي الحقيقي . وهنا نكرّر قولنا انّا انما نؤرخ العواطف العربية كما تظهر في نفثات أدباء العرب الشعرية ، ومهما تكن الاغراض النفسية وراءها فذلك لا ينفي حقيقتها وانها ناشئة عن الحوادث متصلة بالشعور العام . والحقّ يقال ان ما اختبرناه بأنفسنا ، وما عرفناه من اختبار الآخرين يدفعنا الى تنزيه كثير من الشعراء بومئذٍ عن المداهنة المقصودة ، ويميل بنا الى ان نعزو عاطفتهم الى ما أثارتهُ الاحداث السياسية من شتى النعرات في نفوسهم

ففي أوائل العهد الدستوري كان الشعر العربي في سوريا ومصر والعراق يجلّي الوانا من الوطنية غير واضحة الحدود . ولكن كما ان ألوان الطيف اذا مزجت معاً كوّنت شيئاً واحداً هو النور . كذلك تلك الالوان الساطعة من دينية او قومية مرجعها واحد هو الاحساس الحادّ بكرامة شرقية لم يعهدها الشرقيون او العرب منهم قبل ذلك العهد . وقد كان للنشوة الدستور يدٌ في تعميم ذلك الاحساس والباسه حيناً لباس الجامعة العثمانية . وكانت تلك النشوة على اشدها في السنة الاولى من اعلان الدستور ايام كان الناس لا يزالون يطفرون فرحاً بزوال الاستبداد ، وينظرون الى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار ، ثم اخذت بالتراخي تدريجيًّا

على أن النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة في الادب العربي الى أوائل الحرب العالمية . ومما يزكي ذلك ما نظمه الشعراء سنة ١٩١٣ في حادثة الطيارين التركيين فتحي

(١) الادب العصري : لبطي ١ — ١٦٦ (٢) الادب العصري : لبطي ١ — ١٧١

وصادق وهما اول طيارين شرقيين ظهرا في سماء الشرق العربي . فلما وصلا سوريا ولبنان قابلهما الادب العربي بهبّة وطنية هزّت اعصاب الناس وأثارت نخوتهم الشرقية او قل اليمانية . كقول الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة حماسية : — (١)

خيمًا فوق الرؤوس فأشرقت ... منا الوجوه وأزهرت انوارها
وفتحت يا فتحي القلوب بزمرة ... احيا مروات رجائنا تذكارها
ونزعت منا اليأسَ وهو بلية ... شنعاء عمّت قومنا اضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى في اقوال اكثر الشعراء لذلك العهد . ثم طار الطياران يقصدان مصر ، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما فسقطا قرب طبريا وكان لمصرعهما رنة اسف عمت جميع الاقطار العربية . وقد جعلهما الشعر العربي مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب . وفي ذلك يقول الياس فياض — (٢)

فتحي أطلّ من العلاء مكذّباً ... من قال إنا امة لن تقدما
من قال ان الشرق شعبٌ خاملٌ ... لا يستطيع مع الشعوب تقدّما
اليوم قــد جددتما لشبابه ... عهداً ينسّي عهده المتصرما
أهرقتما للعلم افضل مهجةٍ ... كانت تراق على المظالم قبلما
هذا هو الدرس المفيد وهذه ... عظة الزمان فهل لنا ان نفهما
من ليس يعرف ان يموت مكرماً ... هيهات يعرف ان يعيش مكرّما

ويتجلى شعور المصريين يومئذٍ في قول شاعرهم حافظ من قصيدة (٣)

اخت الكواكب ما رمــاكِ وأنتِ رامية النسور
ماذا دهاكِ وفوق ظهــركِ مربض الاسد الهصور

ومنها مخاطباً فتحي : حاولت ان ترد المجرّة ... والوردُ من السير
فوردتَ يافتحي الحمامَ ... وأنت منقطعُ النظير
وهويت من كبد السماء ... وهكذا تهوى البدور
ان كان اعياك الصعــود بذلك الجسد الطهور
فاسبح بروحك وحدها ... واصعد الى الملك الكبير

وعلى هذا النمط نظم كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة وسواها من حواضر العالم العربي

واذا قيل كيف ذلك والعرب يومئذٍ كانوا قد بدأوا يستكرون سياسة الاتحاديين الاتراك

(١) الورد الصافي ٥ — ٢٤٣ (٢) الورد الصافي ٥ — ٣٠١
(٣) الورد الصافي ٥ — ٣٠٢ مطبعة المقتطف ١٩١٦ ص ١٢٧ — ١٣٨

ويتشوّفون الى حياة قومية وكيان مستقل بدليل ما نراه من جمعياتهم السياسية في مصر وغير مصر تلنا ان تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما يشيع في جميع الانحاء مبادئها او ما يجمع القلوب على نصرتها . فظلّ السواد الاعظم من ابناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية . لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة العثمانية . ثم ان الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية . ويخيل الينا من دراسة عواطف الناس في ذلك الحين ان الزعماء الذين كانوا يعملون في سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من هذا الامر . ولو راجعت الرسائل التي كان يتبادلها سرًّا أمثال عبدالحميد الزهراوي ، ومختار بيهم ، ومحمد المحمصاني ، وسليم الجزائري ، ورشيد رضا ، واخوانهم من اعضاء المؤتمر العربي او الجمعية الاصلاحية ، لوجدت ما يزكي قولنا ان الاصلاح الذي كانوا ينشدونهُ لم يكن يراد به اولاً القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار[1] . ولو عرفت تركيا يومئذ كيف تستغل شعور الناس لألّفت من الكتلتين التركية والعربية جامعة عزيزة الجانب صادقة الوطنية . لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الاسباب المعجلة لنجاح الدعايات الاوربية في الشرق العربي ، ثم لاشتعال الثورة العربية في اثناء الحرب الكبرى

وسواء أصح استنادنا الى تلك الرسائل ام لم يصح فالواقع المشاهد ان الشعر العربي كان في اوائل العهد الدستوري أسرع الى الصفح عن مساوىء العهد الماضي والى تمزيز الرابطة العثمانية . ثم حدث الاحتكاك بين العنصرين التركي والعربي وأخذ البعض يلهجون بحقوق العرب في السلطنة وقد ظهر ذلك في الشعر العربي (كما سنرى) . على ان الشعر لم يقطع صلته بتلك الآمال الدستورية التي كان يشيد بذكرها . وقد ظلّ طيلة العهد الدستوري أميل الى التوفيق بين الاماني القومية والجامعة العثمانية ولو تأملنا لرأينا انهُ لم يصح عدوًّا لهذه الجامعة الا بعد الثورة العربية والحرب العالمية

فليس من الغريب ان نراه من حين الى آخر يتأجج بالشعور العثماني إزاء بعض الحوادث الوطنية كالتي مرَّ ذكرها من حوادث التعدي على الدولة في البلقان وطرابلس او من حادثة الطيران التي اضرمت القلوب في مختلف الاقطار حتى قال فيها شاهد عدل هو الدكتور هورد بلس رئيس جامعة بيروت الاميركية السابق وكان يوم الحادثة في مصر — « ان ما آنسته من حماسة اخواننا المصريين وشدة استعدادهم لاستقبال الطيارين واقامة المآدب والاحتفالات اللائقة بهما جعلني اتصور شيئاً مما صنعته عن عظمة الاستقبال الذي جرى لهما في بيروت وعن الابتهاج الذي شمل الاهلين لمشاهدتهم الطيارين العثمانيين لاول مرة »[2]

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب ثورة العرب (لاحد أعضاء الجمعيات العربية) (٢) مجلة الكلية

الانسان الآلة

لفلمور د فوري

قدّر ان تكون فلسفة الفيلسوف الفرنسي ديكارت منشأ المشكلات الفلسفية والمعضلات التي لا يزال يعالجها اهل الفلسفة الى يومنا هذا . وقد أبنت في مقال سابق نشره المقتطف تحت عنوان « العقلي والمادي » كيف ان قضية الفصل المطلق التي فصل بها ديكارت بين العقل والمادة ادّت الى كثير من النظريات والافكار المختلفة وكيف تعددت فيها وجوه المسائل والقضايا الفلسفية وما انتهت اليه في وقتنا الحاضر

ولدينا هنا مشكلة الانسان الآلة (man machine) ولكن هذه لم ينشئها ديكارت بل خلقها فلاسفة القرن الثامن عشر الذي كان بنوع خاص خصماً لفلاسفة المادة وعلماء الطبيعة . الاّ ان فلسفة ديكارت كانت منشأ هذه المشكلة ومنبت غرسها واليك ايها القارىء بيان ذلك :

قضت فلسفة ديكارت بالفصل التام بين المادة والعقل وجعلت كلاًّ في دائرته الخاصة فلا تفاعل بينهما على وجه السببية ولا تداخل على الاطلاق . وقد ارتأى ديكارت هذا الرأي وجرّد الطبيعة من كل اثر للعقل خلافاً لمن تقدمهُ من الفلاسفة ليدع للعلم الطبيعي مجالاً لتفسير حوادث الطبيعة ونواميسها تفسيراً طبيعيًّا ميكانيكيًّا بحتاً . وعليه فلا يكون ثمَّ من قصد في الطبيعة كما يزعم الفلاسفة ولا غاية لانهُ اذا سلمنا بوجود قوة عقلية تدبر الكون فاننا نكون قد حكمنا بوجود العقل في الطبيعة نفسها وهذا غير ما يريدهُ ديكارت . ثم ان ديكارت لم يقف عند هذا الحد بل اطلق هذا المبدأ حتى تناول العالم العضوي (organic world) أيضاً فجعل حياة الحيوان والنبات خاضعة لهذا الحكم وكذلك جسم الانسان لانهُ من العالم العضوي . فعندهُ ان حياة الحيوان ومثلها الحياة في الجسم البشري تمشي على طريقة ميكانيكية بحتة فنظير الآلات الصماء كالساعة مثلاً او غيرها مما يدور بحركة ذاتية ميكانيكية غير ان الفرق بينها ان المحرك في الساعة هو الرقّاص اما في الجسم البشري فالحرارة المتولدة في القلب . ويقول ايضاً انهُ لا حاجة الى فرض اية قوة لتدبر هذه الحركة الحيوية في الجسم فمجرد تركيب الجسم على هذه الصورة هو كتركيب ادوات الآلة كافٍ لتقوم الاعضاء بوظيفتها تماماً . وان وجود الدم والحرارة هو كل ما يقتضي لهذه الغاية

يتضح مما تقدم ان ديكارت لم يطلق هذه اللفظة «الآلة» على الانسان بل على الحيوان فقط

فقال الحيوان الآلة (animal machine) لا الانسان . أما الفلاسفة الماديون الذين عاصروا فولتير مثل لامتري وكوندياك وتولاند وهارتلي وهولباخ وهلفيتيوس وديدرو وغيرهم من فلاسفة القرن الثامن عشر فانهم تناولوا هذه الفكرة ووجدوا فيها دعامة قوية لمقاصدهم ومبادئهم المادية فجعلوها حجر الزاوية واخذوا يبنون عليها ما شاء لهم التصور من غريب الآراء والافكار. وكان اول ما شرعوا فيه بهذا الصدد قولهم « اذا كان الحيوان آلة » فلماذا لا يكون الانسان ؟ « وما الدماغ » ؟ هو آلة الفكر كما ان اللسان هو آلة الذوق . وزعم هارتلي ان الفكر نتيجة اهتزازات ذرات الدماغ وهذه تتحرك تبعاً لنواميس طبيعية آلية . وذهب بريستلي وهو مكتشف الاوكسجين الى ان الاعمال والحركات الفكرية هي من نوع حركة الاجسام المادية . وقال كابانيس ان الفكر وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة وافراز الصفراء وظيفة الكبد . وفي سنة ١٧٧٤ وضع البارون هولباخ الالماني كتاباً في المذهب المادي تحت عنوان « نظام الطبيعة » يفسر فيه جميع النواميس الطبيعية وحوادث الكون بمجرد المادة والحركة فقط . ويزعم ان الفكر هو عمل الدماغ وليس خالداً سوى المادة . وانهُ لا يوجد شيء مما نسميه روحاً . ولا قصد ولا غاية في الطبيعة ولا خارجاً عنها . انما ارادة الانسان فهي غير حرة بل خاضعة حتماً لناموس الضرورة واحكام القدر

وجملة القول ان هذا هو رأي الفلاسفة الماديين في العقل البشري وقد بنوه كما تقدم على نظرية ديكارت . ولما كان رأي ديكارت ايضاً انهُ لا علاقة ولا تأثير للعقل في اعمال الحياة العضوية تبادر لاذهان غلاة المادية انهُ اذا كان لا علاقة للعقل ولا تأثير في اعمال الجسم ووظائف الاعضاء فأي حاجة اليه . ان هو الاَّ تابع من توابع المادة وخاصة من خواصها وليس له وجود مستقل عن المادة اصلاً

هذا وان للفلاسفة العقليين او الروحيين ردوداً حجة على آراء الماديين هذه ولكن ليس هذا مجال بسطها لاني قصدت بيان قضية الانسان الآلة حسبما تطورت بين ايدي فلاسفة المادة. على أنا اذا بسطنا رأي العلامة الفيلسوف الالماني هرمان لوتزي (١٨١٧—١٨٨١) وهو احد أعلام الفلسفة العقلية وقد حاول الجمع او التوفيق بين مختلف الآراء الفلسفية وخصوصاً بين الرأي الميكانيكي والمبدأ العقلي الروحي. فاننا نكون قد اشرنا الى رأي الفلاسفة العقليين بهذا الصدد وهو نقيض الرأي المادي المتقدم ذكره والى الاتجاه الفلسفي الغالب بعد القرن الثامن عشر

يقول لوتزي « ليس الانسان مجرد مرآة تنعكس عليها صور الاشياء والحوادث الخارجية . ان العالم المادي الذي يسير سيراً ميكانيكياً لا يستطيع ان يفيدنا شيئاً عن الوجود المعنوي وأسرار الحياة العميقة ومقاصدها السامية . ان هذه جميعها لا يمكن ان يكون لها أثر في عالم ميكانيكي بحت . ومع هذا فلا بد من تفسير النظام الطبيعي وفقاً لهذه النظرية الميكانيكية . ان الجسم الحي انساناً كان او حيواناً يحيا ويقوم بوظائفه كما تقوم الآلة الصناعية بعملها تماماً ولا

نرق بينها من هذه الجهة مطلقاً . ثم ان الفرق بين المواد الآلية وغير الآلية ليس بكون الاولى تمتاز عن الاخرى بوجود قوة حيوية فيها بل بتركيبها وترتيب أجزائها بنسبة بعضها الى بعض . وهذا الترتيب فيها هو نتيجة عوامل طبيعية تحدد لكل جزء صورتهُ ووجهة تطوره وارتقائه

« وان رأيَ كهذا اذا أخذناهُ بظاهره كثيراً لا يدع مجالاً لحقيقة الانسان ومقاصده العظيمة ومطالبه انسانية . غير أنّا اذا اختبرنا الاسباب الاولية والمقدمات التي بني عليها الرأي الميكانيكي هذا نجد ان هذا هو غير الواقع . ذلك لان العالم الخارجي الذي نخالهُ ونعتقدهُ عالم الحقيقة انما هو عالم ظاهري فقط (phenomenal world) أي الذي تمثلهُ لنا الحواس لا العالم الحقيقي بالذات — هو نتيجة شعورنا وادراكنا للمؤثرات الخارجية وتفسير العقل لها . بيد ان هذه الاحساسات والادراكات ليس الاّ تأثيرات عقلية في العقل نفسهِ، وما الحس والادراك فينا بل والمبادىء العقلية التي نفسرها لمختلف الحوادث والمؤثرات، الاّ وظائف متنوعة في العقل الواحد الانساني

اذاً ما هو جوهر الاشياء الخارجية وبعبارة أخرى ما هي الحقيقة بالذات ؟ انا اذا أنعمنا النظر وتخبرنا الاسباب والمقدمات وجدنا ان الاستقراء يؤدي بنا الى نتيجة واحدة فقط وهي المبدأ التصوري (Idealism) ودليل ذلك ان الاشياء بالذات [1] (things-in-themselves) يجب ان تكون من طبيعتها ان تؤثر في غيرها وان تتأثر به . ان كائناً بهذه الصفة لا نجدهُ الاّ في انفسنا فقط وما هو إلاّ ذلك الجوهر في داخلنا والذي يؤلف وحدة الوجدان فينا وهو مانسميه الروح او النفس . هذه الوحدة في الوجدان التي تستطيع ان تجمع بين مختلف التأثيرات الخارجية والداخلية وتؤلف منها أبداً وحدة كاملة هي التي تحدو بنا الى الاعتقاد بوجود نفس ذاتية الحس غير قابلة التجزئة ومستقلة أو متميزة كل التميز عن الجسد . وانهُ في النفس وفي النفس البشرية فقط نجد هذه الوحدة الدائمة بين الاشياء المتعددة والثبوت على حال واحدة وسط جميع عوامل التحول والتغير والنشوء

لذلك فالجواهر التي يتكلم عنها العلم هي غير مادية بالمعنى المتعارف ولا يمكن تعريفها الاّ بانها أشبه الاشياء بوحدات ليبنتز (Leibniz's monads) او بانها مراكز قوة فقط كالتي نختبرها في أنفسنا . وحتى الدقائق التي في أدنى طبقات المادة ليست اشياء ميتة جامدة كما نتوهم بل مملوءة حياة وحركة ونشاطاً . وان في الطبيعة درجات متفاوتة من الحقيقة ولكن أسماها العقل البشري بيد ان في أحط ضروب المادة أثراً من القوة العقلية ايضاً

هذا هو رأي الفيلسوف لوتزي في العقل والوجود المادي وهو يعبر بهِ عن رأي معظم الفلاسفة العقليين فيما نعلم . ولعل فيهِ اشارة كافية لتبين لنا ان في الوجود اسراراً لم تتجل بعد للعقل البشري فلا يتوهمنّ الواهمون ان فلاسفة المادة فكوا الطلاسم وحلوا الالغاز وقذفوا بمادتهم الى اعماق الحياة . فهذه لم تؤت بعد لمخلوق وأسرار الوجود لم تشرق بعد انوارها على عقول بني الانسان

(١) هذا هو تعبير الفيلسوف الالماني كانت وهو يقصد به التمييز بين الاشياء كما هي في حقيقتها الاصلية وبينها كما تبدو للحواس

العبقرية والنبوغ

الفروق العقلية بين الوراثة والمحيط

للدكتور شريف عسيران

من الامور الظاهرة فروق البشر الجسدية فمنهم الطويل والقصير والاسود والابيض والاصفر والبدين والنحيف واسود العينين وازرقهما الى غير ذلك . وكذلك نجد مختلف الفروق العقلية كالبقري والاحمق والذكي والابله والعاقل والمجنون والمفكر والجامد وهلم جرًّا . وليست الفروق العقلية اكثر من الجسدية فقط بل تفوقها شأناً . نجد في كل امة وكل جيل افراداً يسمون على اترابهم كما يسمو الجبل الشامخ على ما يحيط به من البقاع امثال كنفوشيوس وسقراط والمعري وغليليو ونيوتن وباسكال وباستور وشكسبير والمتنبي وبتهوفن وشوبرت والرازي وانشتين واضرابهم وهم معروفون عندنا معرفة النجوم الساطعة في السماء . وتظهر امارات التفوق على المرء منذ ان يشب عن الطوق . فقد رجا باسكال والده ان يسمح له بدرس الرياضيات وهو صبي فرفض طلبه ريثما يدرس اللغات والتاريخ وطالما كان يشاهده منكبا على درس الهندسة وغماً عن ممانعته لميوله الفطرية فاستطاع ان يحل عدداً من نظريات اقليدس . وكان يعزف موزارت الموسيقي في الرابعة من عمره والف قطعاً موسيقية وهو ابن ست سنوات . وظهرت بواكير بتهوفن الموسيقية في الثانية عشر من عمره وكتب شلر روايته اللصوص وعمره ٢٣ سنة والف شكسبير كثيراً من رواياته وهو في الرابعة والثلاثين من عمره[1] ونظم المعري الشعر وعمره يقرب من الاربعة عشر سنة ومثله المتنبي

ونشاهد هذه الفروق بارزة في المدارس الابتدائية والعالية والجامعات فبعض الطلاب يحلون اعوص المسائل الرياضية دون عناء ويسر على غيرهم حلًّا بسيطا ويصل بعضهم الليل بالنهار درساً وسعياً ولا يتوصلون الى درجة اقرانهم ممن لا يجهدون انفسهم بالدرس . ونعرف كثيرين ممن تبحروا في اللغة العربية وآدابها وتضلعوا من فلسفتها وصرفها ونحوها وبيانها وعروضها وسائر ما

(١) Human Heredity p. 581

يتعلق بها ولا يستطيعون رغماً عن ذلك نظم بيت من الشعر وترى آخرين يجهلون القواعد والقوافي ويأتون بمعجزات الحفظ فالفروق بين مختلف الافراد ظاهرة في كل مرهبة من المواهب في الموسيقى والشعر والرياضيات والتصوير وغير ذلك فالقوى العقلية محدودة في كل امرىء بحسب وراثته ولا يفيدها التمرين الاَّ بقدر القوة المدخرة فيها

واول من اثبت ان العبقرية والمواهب العقلية وراثية هو السير فرانسيس غالتون وقد مرَّ بنا انهُ تتبع سِيَر ٤١٥ شخصاً من مشهوري انكلترا ينتمون الى ثلاثمائة اسرة يوجد في تلك الاسر ما يقرب من الالف مشهور

***

ويجدر بنا أن نقف هنيهة لنميز بين العبقرية والنبوغ والموهبة . ان ألسنة الناس والصحف والمجلات تلوك هذين اللفظين وتستعملهما في شتى المناسبات وتغدق بهما على لفيف كبير من البشر حتى ليخيَّل الينا ان ارضنا تموج بالعباقرة والنابغين فاذا نظم فلان قصيدة او كتب مقالاً في مجلة او جريدة دعتهُ عبقريًّا واذا ارادت التنويه بفضل فلان قالت عنهُ نابغة فلنخرج هذين اللفظين عن معناهما وامتهنا اي امتهان

﴿ العبقر ﴾ جاء في الطبعة الرابعة عشر من دائرة المعارف البريطانية تحت لفظة Genius انها من اصل لاتيني ومعناها المولِّد وكانت تُرمز في العصر الروماني القديم الى عقيدة دينية خاصة وهي جونو Juno ربَّة الزواج والولادة تقابلها لفظة هيرا Hera عند اليونان وهي ربَّة النساء والزواج ثم انحرفت عن معناها الاصلي وصار يقصد بها العفريت أو الروح (Spirit) او الملاك الحارس وصارت تستعمل في الانكليزية مقابلة للفظة جن العربية وهي طائفة من الارواح الصالحة او الشريرة حسبما جاء وصفها في قصة الف ليلة وليلة [1]

وجاء في تاج العروس : عبقر كجعفر بالبادية كثير الجن يقال في المثل كأنهم جن عبقر ثم نسبوا اليه كل شيء تعجبوا من حذقه او جودة صنعته وقوته وقال ابن الاثير قرية يسكنها الجن فيما زعموا فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصنع عمله او شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه اليها وقيل العبقري الذي ليس فوقهُ شيء [2] وجاء فيه ايضاً تحت لفظة جن والجن بالكسر خلاف الانس والواحد جني يقال سميت بذلك لانها تتقي ولا ترى كما في الصحاح وكانوا في الجاهلية يسمون الملائكة عليهم السلام جنًّا لاستتارهم عن العيون [3] . فنستنتج من هذا التعريف اللغوي ان العبقر هو الجن وان العبقرية تقابل لفظة genius اللاتينية والانكليزية

﴿ النبوغ ﴾ جاء في تاج العروس نبغ الشيء كمنع ونصر وضرب اي ظهر نبغ الماء نبوغاً

(١) ملخص عن دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر تحت لفظة genius
(٢) تاج العروس لفظة عبقر ص ٣٢٩ (٣) تاج العروس لفظة جن ص ١٦

مثل نبع بالنين ومن المجاز نبغ فلان اذ قال الشعر وأجاده ولم يكن في اول الشعر وفي اللسان في ارثه الشعر وسمّي النوابغ من الشعراء والنابغة الرجل العظيم الشأن والهاء للمبالغة [١] وأرى ان لفظ نبوغ اكثر مقابلة للفظ Talent الانكليزية ومعناها الموهبة

وبعد ان عرفنا معنى اللفظين اللغوي نأتي على تعريفها العلمي : يعرّف غالتون العبقري بأنهُ الرجل ذو المواهب المتفوقة ويميز العبقرية عن المقدرة بانا لا نستطيع تجريد الاخيرة من اثر التهذيب أما العبقرية فطبيعية تخلق مع المرء [٢]. ويجعل الشهرة مقياساً لتفوق الفرد ويقول يجب على الانسان ان يظهر مقدرة بارزة في موضوع ما على الاقل ليحصل على شهرة عالية او ان يمتاز بأنهُ أتى بشيء لم يستطعه غيره او ان يكون زعيم فكرة [٣] ويجعل المتفوق او العبقري الرجل الذي يصل الى مرتبة لم يبلغها سوى ٢٥٠ من بين مليون او واحد من أربعة آلاف [٤]

ويفرق الدكتور لز بين العبقرية والموهبة او النبوغ . فالموهبة Talent هي أعلى مراتب الفن . أما العبقرية فتعددة المواهب والتفاوت بينها وبين الموهبة في التفوق العقلي كالتفاوت بين الاحمق والاخرق في الانحطاط العقلي . ويوجد بين مليون شخص يختارون صدفة عدّة نوابغ او موهوبين اما العباقرة فقليلون جدًّا فكل عبقري نابغة او موهوب ولا يعكس . ومن رأيهِ أنهُ ليس ضروريًّا ان يكون العبقري مبتكراً او مولداً Creative بل انساناً متعدد المواهب [٥]

﴿ العبقرية والجنون ﴾ يجعل بعض العلماء صلة بين العبقرية والجنون . وأول من قال هذا القول العالم الايطالي لمبروزو وجاراه غالتون ولز وغيرهما ويأتون بشواهد متعدّدة على ذلك وحجتهم ان في أكثر العباقرة والنوابغ المشهورين ضرباً من الانحراف العقلي والانحراف يعدُّ علة خاصة اذا كان لا يمكن الشخص من القيام بأود نفسه وحمايتها Self Preservation وتؤدي المواهب الشاذة الى حالة كهذه لان كثيراً من النابغين يقصرون عن القيام بتكاليف الحياة اليومية التي تسهل على الرجل المعتدل وما يصدق على الفرد من وجهة كفاء النفس في تحصيل العيش يصدق بصورة اكثر على الاسرة . فكثيرون من العباقرة لا يتزوجون واذا تزوجوا كانت حياتهم الزوجية تعسة لانهم يفشلون في القيام بما تتطلبهُ الحياة الزوجية السعيدة فالنتيجة فناء تلك الاسرة . ويوصف صاحب الحالة العقلية التي لا تمكن المرء من كفاء نفسه أو أسرته بـ « المضطرب النفس Psychopathic » واقصى درجاته الجنون . وأغلب العباقرة والنابغين لم يخلوا من ضرب من هذا الاضطراب كفوقيه وبسمارك ولوثر ونيوتن ولمبر وفردريك الكبير وباسكال وروسو وبلوشر وشوبنهور ووجنر ونيتشه وتولستوي ونابوليون وأضرابهم [٦]

(١) تاج العروس لفظة نبغ ص ٣١ (٢) Hereditary Genius ص ٧ (٣) Ibid : ص ٩
(٤) المقدمة ص ٨ (٥) Ibid: (٦) Human Heredity p. 567 Human Heredity p. 609—613

ولا نسترسل في تحليل هذه الناحية لنعود الى موضوعنا الاصلي ورعا عدنا فصلاً خاصًّا لهذا البحث في المستقبل . ينكر غالتون ان للمحيط تأثيراً في اكتساب القوى العقلية ومن أقواله المأثورة : إن التهذيب والمؤثرات الاجتماعية لا تؤثر في انماء القوى العقلية بقدر ما يؤثره التمرين في انماء عضلات ذراع الحداد . ويعترض البعض على غالتون بان ابناء المشهورين لا يكونون كآبائهم وحجة غالتون ان الفرد يرث ربع صفاته من أحد والديه والصفات الباقية من الأب الآخر او من أسلافه الماضين واذا علمنا ان نطفة الذكر ونطفة الانثى تفقدان نصف عواملهما الوراثية قبل ان تمتزجا اتضح لدينا صحة قول غالتون . اضف الى ذلك ان عدداً كبيراً من العباقرة يموتون بلا عقب امثال بتهوفن وشوبرت وغيرهما

وقد توصل الدكتور فردريك ودس في أميركا (Dr. Frederick Adams Woods)[1] الى نتائج تشابه نتائج السير فرانسيس غالتون فتتبع سيَر ٣٥٠٠ مشهور من مشهوري أميركا المدونين في قواميس كبار الرجال ووجد انهم يمتون بصلة قرابة بعضهم الى بعض بنسبة ١ — ٥

***

واذا كان المحيط عاملاً في تكييف القوى العقلية فيجب ان يتساوى ابناء الملوك في هذه الناحية — ولاسيما أولياء العهد الذين تتاح لهم جميع الاحوال اللائمة من تعليم وتهذيب وتدريب وتثقيف وسائر المؤهلات التي تؤهل المرء أن يكون ذكيًّا خلوقاً مثقفاً . وقد تتبع الدكتور ودس المذكور في كتابه الوراثة في الاسر المالكة Heredity in Royalty فلم ير ان المساواة في المحيط التي تتاح لكل فرد من الاسر المالكة تخلق منهم رجالاً متساوين في مواهبهم ويبين الفرق بين الهوهنزلرين Hohenzollern المتفوقين بمواهبهم والهابسبرغيين العديمي الذكاء[2] وقد ذكر وودس على سبيل المثال فردريك الكبير وايزابلا ملكة أسبانيا ووليم الصامت وغوستافس ادلفس Gustavus Adolphus مقابلة لهم مع غيرهم من المنحطين من نفس الطبقة

ولا ينكر ان الفرص تفسح المجال أحياناً لبروز المواهب المكامنة كما زاد عدد علماء الالمان في نصف القرن الاخير فلا تعزى هذه الزيادة الى ازدياد معدل ولادات هذه الطبقة بل ان تقدير العلم كان حافزاً لابراز تلك المواهب

وقد ناقش كتل J. Mckeen Cattell نظرية المواهب في درسه الف عالم من علماء اميركا وقال « لو ولد دارون في الصين سنة ١٨٠٩ لما كان دارون ولو ولد لتكلن هنا (يقصد اميركا)

(١) Applied Eugenics p. 14 (٢) The Eugenic Predicament p. 6

في نفس اليوم الذي ولد فيه ولم تكن الحرب الاهلية قد اصبحت لتكون . فلو استبدلنا الاثنين لما كان دارون في اميركا ولا لنكن في انكلترا . . . » وقصده ان يبرهن ان الظروف هي التي تخلق الرجال . صحيح ان للظروف اي المحيط تأثيراً ولكنهُ تأثير ثانوي او يسير بالقياس الى المواهب الطبيعية . ربما لو ولد دارون بأميركا لا يكون دارون الذي نعرفه الآن ولكنهُ على كل حال ما كان يموت مجهولاً فالمحيط لا يخلق الرجال بل يبرز مواهبهم . فالمساواة في المحيط تزيد الفروق بين البشر اكثر مما تنقصها [1] ويجب ان يكون هناك مساواة في المحيط ليصبح كل امرىء ميسراً لما خلق له

ودرس الدكتور بيركس ٢٠٠ ربيباً دفعوا الى من تبنّاهم حين ولادتهم او في السنة الاولى من العمر [2] وقابلهم مع مائة ولد نشأوا في احضان آبائهم الحقيقيين ومن السهل تمييز تأثير الوراثة في الفئة الثانية لعدم وجودها في الاولى وكان تمييز ذكائهم وتأثير المحيط والحياة البيتية ممكنين فيهم فلو كان للتدريب وتقليد الآباء والمحيط تأثير في تكييف الاولاد لكان لزاماً ان يشبه الابناء المتبنّون الذين تبنوهم شبهة الابناء لآبائهم الحقيقيين ولكن النتيجة لم تكن هكذا بل ظهر ان تأثير الوراثة في هؤلاء الاولاد بنسبة ٧٥ — ٨٠ بالمائة وتأثير المحيط البيتي بنسبة ١٧ بالمائة . والمحيط البيتي اهم من المحيط المدرسي في امتحانات الذكاء [3]

***

﴿ القياس ﴾ اذا كان للمحيط تأثير فيجب ان يصدق على اليتامى الذين يربون في الملاجئ اذ يعيشون في محيط واحد ويدربون نفس التدريب ويجب ان يختلفوا عن غيرهم ممن تختلف تربيتهم باختلاف الاسر التي ينتمون اليها . وقد جاء درس الف يتيم في تكساس مخالفاً لهذه الفكرة لان الفروق بين الايتام الذين عاشوا في محيط واحد وتربوا تربية واحدة كانت كالفروق بين سواهم من غير اليتامى مما يدل على ان الوراثة لا المحيط هي الاصل في تكييف الشخصية

﴿ النقطاء ﴾ وتتبع بعض العلماء في انكلترا عدداً من النقطاء الذين أُدخلوا المعاهد الخاصة فوجد ان ذكاء معدل ذكاء ابناء التجار وارباب المهن منهم ١٠١ بينما كان معدل اولاد الصناع labourers ٩٢ مع ان الفريقين تربوا في محيط واحد ولم يحتكوا بآبائهم وقد اتخذوا ضابطاً لهم control اولاداً من لندن عاشوا في احضان آبائهم وتربوا في المدارس العامة فكان معدل درجة ذكاء الطبقة العليا منهم ١٠٥ والسفلى ٩٦ وهكذا جاءت نتائج درس التوائم من وجهة

---

(١) Applied Eugenics p. 17

(٢) اختبروا في هذا السن لسببين ١ ﴾ انصاح الوقت الكافي لتأثير المحيط ان كان له ذلك التأثير ٢ ﴾ خشية اختيار العائلات الذكية الاولاد الاذكياء

(٣) Applied Eugenics p. 3

الاجرام وامتحان الذكاء والامراض وغيرها من العوامل مؤيدة لفكرة ان الوراثة هي العامل الاكبر في تكييف الفرد

***

﴿ تلامذة المدارس ﴾ قابل دف Duff ٧٣ تلميذاً من الممتازين بلغ حاصل ذكائهم ١٣٦ فما فوق سنة (١٩٢١—١٩٢٢) مع فئة اخرى حاصل ذكائها مائة اتخذها ضابطاً وتتبع سير الفئتين في المدرسة فكانت نسبة الذين دخلوا المدرسة الثانوية من الفئة الاولى اكثر من الثانية ونال ٥٥ بالمائة منهم جوائز بينما لم ينل احد من الفئة الثانية اي جائزة. ولما قوبل بعض افراد الفئة الاولى الذين لم يدخلوا المدرسة الثانوية مع الذين دخلوها من الفئة الثانية فاقوهم في التهيئة وحسن التعبير وجودة القراءة ونطاقها وروح الطموح ولم يتقدم احد لنيل الشهادة الثانوية من الفئة الثانية عدا واحد بلغ درجة حاول بها نيلها بينما نال ٣٠ بالمائة من الفئة الاولى الشهادة و٧ لم ينجحوا و١٠ بدلوا مدرستهم و٢ كانوا صغاراً ولم يحاولوا دخول الامتحانات واثنان تركوا المدرسة . وذكر هولنز ولداً امتحن ذكاءه هولنورث بطريقة «ستانفورد — بينه» وعمره ٨ سنوات فنال ١٨٧ درجة وبلغت درجاته بعد مضي عشر سنوات ٤٤١ بينما كان معدل درجات هذا الامتحان ٤٤٠ فخرج من المدرسة بدرجة شرف ونال جائزة Phi Beta Kappa (١) ونال درجة معلم علوم وهو ابن ١٦ سنة (٢).

وقد حاولت مس أوتس تزييد ذكاء بعض البنات الناقصات العقل اللواتي تجاوزن سنهن السادسة عشرة بتمرينات خاصة على القراءة وغيرها ولما امتحنهم بطريقة «ستانفورد بينه» وجدت درجة ذكائهم تقدمت ولكنَّ هذا التقدم من مفردات الكلام وفهمه لا من تحسن ذاكرتهم او قابليتهم (reasoning) ولم تستطع تقدير تقدمهن من هذه الناحية لانها لم تكد تتقدم وبقي كانت القوة العاقلة مفقودة فلا سبيل لتمرينها

وتتبع الدكتور تيرمان ومساعدوه سيرة مائة ولد ذكور وأناث بلغ حاصلهم الذكائي ١٤٠ فما فوق ولا يبلغ هذه الدرجة من مجموع طلاب المدارس الا النزر اليسير فدرسوهم درساً مفصلاً من جميع النواحي قبل عهد الدراسة وبعدها فوجدوا أنهم تفوقوا بدروسهم طيلة حياتهم المدرسية ولم يرسب منهم احد بأي موضوع من الموضوعات ونالوا أحسن الجوائز وغير ذلك من الميزات التي ينالها الممتازون. وظهر من تتبع سجلات أجدادهم انهم كانوا يمتهنون المهن التي تتطلب معدل المقدرة العقلية

(١) شارة امريكية ممتازة في الجامعات تدل على التفوق الجامعي

(٢) The Eugenic Predicament p. 72

واعدد العدد الاكبر منهم من هذه الطبقة وكان أباء عدد منهم من رجال الاعمال وفريق يسير من أرباب المهن الرفيعة (Skilled) وواحد بالمائة فقط من ارباب المهن الوضيعة (Unskilled) (١)

وقد فحص بيترس W. Peters الاخصائي بعلم النفس تقارير عدد كبير من أولاد المدارس ووجد على الاغلب مشابهة بين الآباء والابناء وقابل تقارير الآباء مع اجداد الاولاد وتوصل الى نفس النتيجة فاستنتج ان أثر المحيط (كالمذهب البيتي وما أشبه) ضئيل جدًّا في حياتهم النفسية. وأجرى تجاريب نفسية على عدد من التلاميذ الذين يمتون بعضهم الى بعض بصلة نسب وقابلها مع تقارير آبائهم فوجد الفروق بين الابناء كبيرة حينما تكون كذلك في الآباء والعكس بالعكس

وقد درس بيرسون وشستر والدرن تقارير خريجي جامعة اكسفورد وقابلوها مع تقارير آبائهم فوجدوها متقاربة

***

﴿ التوائم ﴾ فحص تورندبك ٥٠ تيمًا فحصًا نفسيًّا فوجد ان مشابهتهم بعضهم لبعض ضعف مشابهة الاقارب غير التوائم ولكنه لم يميز بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة

ودرست لس غوردون ٢١٦ تيمًا في أحد ميتم كالفورنيا فامتحنهم بطريقة « بينه » وكانت نتائجها قريبة من نتائج غيرها ولا يمكن أن تكون الفروق القليلة ناشئة عن المحيط في الميتم لان المحيط واحد

وذكر بوبنو حادثة تشتين ماتت أمهما وعمرهما أسبوعان فحضن احداهما ربيب من الحضر وبقيت في المدرسة مدة أربع سنوات ثم انصرفت الى الاعمال التجارية وصارت أمينة لاحدى الشركات وكانت وظيفتها تقضي عليها بالتجوال أحيانًا في غير بلادها . ونشأت الأخت الاخرى في الريف وأتمت تحصيلها المدرسي ثم دخلت الجامعة وتزوجت عقب مدة قصيرة من دخولها ورزقت بولدين ثم انتظمت في سلك التعليم ومع أن هاتين الاختين عاشتا في محيط مختلف فانهما كانتا متقاربتين في عقليتهما وطباعهما (١)

﴿ الاسر ﴾ من المعروف لدى أكثرنا ان المواهب تسري بين الاسر سريانها في الافراد وأكثرنا يعلم عن كثير من الأسر العربية التي اختصت بموهبة من المواهب كأسرتي اليازجي والبستاني بالادب واللغة وأسرة المعلوف بالشعر . ونأتي الآن على ذكر بعض الاسر التي اختصت ببعض المواهب كالموسيقى والرسم والشعر والرياضيات والعلوم وما أشبه فمن هذه

(١) The Eugenic Predicament p. 73-74

(٢) Human Heredity p. 558

الاسر أسرة باخ Bach التي استطاع ان تتبع مواهبها الموسيقية مدى خمسة أجيال في الذكور. وظهر بين أولاد Johan Sebastian Bach ما لا يقل عن خمسة موسيقيين. ويستطيع المرء ان يتتبع الموهبة الموسيقية عدة أجيال في اسرتي موزارت وفبر Weber واحداهما تمت الى الاخرى بنسب وقد جمع H. Rurella مستندات عن ٢٨ أسرة استطاع ان يتتبع فيها مواهب متفوقة في الموسيقى مدى أربعة أجيال امثال أسرة بتهوفن وشوبرت ولزت Liszt ولسوء الحظ ان بعضهم كبراهمس وبتهوفن وشوبرت ماتوا عقيمين

﴿ الرياضيات ﴾ ومن الاسر المشهورة بالموهبة الرياضية اسرة Bernouillis التي اشتهر منها على الاقل ثمانية رياضيين بارزين او ثمانية

﴿ الصناعة ﴾ ومن الاسر المشهورة بالمخترعات الصناعية اسرة كروب الشهيرة بصنع الاسلحة فقد ظهر تفوقها بهذه الناحية في النساء والرجال

وقد ذكر غالتون في كتابه النبوغ الوراثي بعض الاسر التاريخية المعروفة بمواهبها العسكرية والسياسية امثال اسرة اسكندر الكبير ووليم اورانج وللكيمياري الطبيعي الفيلسوف Boyle المعروف ١٤ نسبياً من ذوي المواهب الخارقة. ومن الاسر الممتازة بمواهبها العقلية اسرة دارون وغالتون. فالسير فرانسيس غالتون ابن عم شارلس دارون مؤلف كتاب اصل الانواع وغيره من الكتب القيمة. واسرة اراسمس دارون Erasmus Darwin معروفة بتفوقها فاولاده (١) روبرت دارون كان طبياً معروفاً وعضواً في الجمعية الملكية (٢) وكان يرجى لابنه شارلس دارون الذي مات بسن العشرين مستقبل باهر. وشارلس روبرت دارون الذي تنسب اليه نظرية التطور هو ابن روبرت وقد تزوج Emma Wedgwood وقد كان والدها من مشهوري المؤسسين لصناعة الخزف بانكلترا فولدت اربعة اولاد وهم فرانسيس دارون النباتي الشهير وجورج الفلكي المعروف وهوراس المهندس البارع وليونارد المؤلف في السياسة والاقتصاد ورئيس جمعية تحسين النسل سابقاً. وتتبع Primfall سير ٩٥٦ عالماً من علماء اميركا وتوصل الى تاريخ تقرب من تاريخ غالتون ووجد علاوة على ذلك ان تزاوج ذوي المواهب امر متعارف الى حدٍّ ما فنحو من ٢١ عالمة من عالمات اميركا تزوجن علماء بعلم ايوان

***

هذا وشل من بحر من هذا الموضوع الواسع وفيه البراهين الساطعة على ان الوراثة هي العامل الاكبر في تكوين الشخص وان اثر المحيط ضئيل اليها وقد اكتفينا بهذا القدر خشية الملل

تفرق المجرات

مقالة الموضوع

اذا ثبت الرأي الحديث في ظاهرة تفرق المجرات كان اكتشاف هذه الظاهرة الفلكية العجيبة في الطبقة العليا بين المكتشفات العلمية الباهرة في جميع العصور . ذلك ان الصورة الكونية التي رسمت وفقاً لهذا الرأي تمثل لنا الكون وقد اخذت أجزاؤه الكبرى في الابتعاد بعضها عن بعض ، بسرعة تزيد في بعضها على سرعة دقائق « ألفا » المنطلقة من الراديوم . فكأن الكون فقاعة من الصابون ، مضت تنتفخ وتنتفخ ، حتى غدا ما على سطحها وما فيها من ذرّات وجزيئات يبتعد بعضهُ عن بعض بسرعة عظيمة . وقد طلع هذا الرأي على العلماء فجأة فأخذوا به حتى كادوا يمكون أنفاسهم ، وعجزوا عن تفسيره تفسيراً مقبولاً عند جمهرتهم ، لما فيه من الغرابة والجرأة

هذا الموضوع يعالج من ناحيتين ، إحداهما ناحية الحقائق التي اثبتها العلماء بالرصد والتصوير والثانية ناحية الآراء التي تفسرها هذه الحقائق

كان هبل Hubble [1] زعيم هذا البحث الجديد . وكان هيوماسون Humason ساعدهُ الايمن . أما كيف دخل هيوماسون ميدان البحث الفلكي وصار من أعلامه ، فقصة عجيبة . ذلك ان والد هيوماسون كان صاحب مصرف في كاليفورنيا . ولكن الولد كان راغباً عن المدرسة وعن أعمال المصارف . وكان يرى من سهول پاسادينا بكاليفورنيا قمّة جبل ولمس فاستهوتهُ فذهب الى فندق قائم على مقربة من المرصد المشهور ، وجعل يخدم فيه ، آناً يسوق سيارتهُ ومركباته لنقل ما يجب نقلهُ اليه من المدينة عند السفح . وآناً يساعد موظفيه وخدامهُ في شتى الاعمال . وعهد اليه في أحد الايام بأن يسوق مركبة تجرُّها بغال ، وكانت المركبة تقلّ أجهزة علمية ثقيلة الى المرصد . فاتصل ببعض رجاله ، فعطفوا عليه وكان يُدعى للقيام ببعض الاعمال في حجرة الساعات او في حجرة التصوير . وما لبث الفتى حتى برع في أساليب التصوير الضوئي Photography [2] ثم تزوج ابنة احد رجال المرصد ومن ثمَّ أكبَّ على دراسة

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٣٨ صفحة ٣٥٥ مقال « المجرات » (٢) فضلنا استعمال لفظي « التصوير الضوئي » على « التصوير الشمسي » لان التصوير قد يتم بضوء المغنيزيوم مثلاً لا بضوء الشمس

علم الفلك وغدا يستند عليه في كثير من أعمال التصوير النجمي وفي سنة ١٩٢٢ بلغ من تقدير مدير المرصد لبراعته ان عينهُ في منصب رسمي بين رجال المرصد وأتاح لهُ استعمال التراسف الكبيرة

***

بعد ان أثبت هبل — على نحو ما بيَّنا في المقال السابق — ان وراء مجرتنا عوالم لا تحصى النفت هو وهيوماسون الى موضوع فلكيّ جديد كان قد طرقهُ اولاً عالم فلكي آخر هو صلفر Slipher مدير مرصد فلاغستاف بولاية اريزونا الاميركية وهو المرصد الذي كشف فيه اولاً السيّار التاسع « بلوطو »

كان صلفر قد عني بدراسة طيوف المجرّات الحلزونية وهي المجرّات التي خارج مجرتنا لانهُ وجد ان قياس بُعدها بطريقة اختلاف الزاوية لا يجدي . فالتفت الى دراسة طيوفها لعلَّهُ يستطيع أن يتبيَّن حركتها من خطوط الطيف . وهذه الطريقة تعود الى العقد السابع من القرن الماضي وصاحبها الاول عالم انكليزي يدعى هجز Huggins وهي قائمة على مبدإ طبيعي اكتشفهُ اولاً عالم بوهيمي يدعى كرستيان دوبلر Doppler في سنة ١٨٤٢ ويعرف بمبدإ دوبلر. ولعلّ خير وصف لمبدإ دوبلر هذا ضربٌ مثلٍ عليه . ذلك ان القطار الصافر اذا كان مقترباً منا علا صفيرهُ واذا كان مبتعداً عنا انخفض صفيرهُ . فأمواج الصوت في الحالة الاولى تتلاحق في مدى يقصر باقتراب القطار فتقصر اذا قصرت ترتفع الصفير . أما اذا كان القطار مبتعداً فان أمواج صفيره تتلاحق في مدى آخذ في الاستطالة بابتعاد القطار عن السامع ، فتطول الامواج فاذا طالت انخفض الصفير . وقد كان مبدأ دوبلر مقتصراً على عالم الصوت وأمواجه . ولكن اللون في الضوء يقابل الارتفاع والانخفاض في الصوت . فالاحمر في الضوء اقل تذبذباً وأطول امواجاً من البنفسجي في الطرف الآخر من الطيف . فاذا طبقنا مبدأ دوبلر على الضوء قلنا انهُ اذا كان هناك جسم مضيء ضوءاً يقترب منا تلاحقت امواج ضوئه في مدى متقاصر فتقصر الامواج فينحرف فيه اللون من الاحمر الى جهة البنفسجي . وعلى الضد من ذلك اذا كان جسم مضيء ضوءاً بنفسجيًّا يبتعد عنا تلاحقت امواج ضوئه في مدى متطاول فتطول وينحرف فيه اللون من البنفسجي الى جهة الاحمر . ولا يخفى ان في طيوف النجوم خطوطاً مميزة لها . فاذا قلنا الآن المتقدمة وكان لدينا طيف جسم مضيء ووجدنا في هذا الطيف الخطوط الطيفية المميزة في غير مكانها المألوف وانها حادت الى جهة الاحمر، قلنا ان ذلك الجسم يبتعد عنا . واذا كان الحيود الى جهة البنفسجي قلنا ان ذلك الجسم مقترب منا . ومقدار الحيود يدلُّ على سرعة الابتعاد او الاقتراب

واذن ففي وسع الباحث الفلكي ان يتخذ من مقدار الحيود مقياساً لسرعة ابتعاد الجسم المضيء او اقترابه . وقد كان هجنز اول من اعتمد على هذا المبدإ في دراسة حركة الاجرام

السوية . فأخذ طيوف بعض الاجرام السوية وتبين فيها الخطوط المميّزة لبعض العناصر فيها. ثم قابل مواقع هذه الخطوط بمواقع الخطوط المقابلة لها في طيوف اجسام منيرة ثابتة على سطح الارض . فوجد ان الخطوط المميزة للعنصر الواحد في طائفتي الطيوف لا تتوافق . فأسند الخلاف الى حركة الاجرام السموية وثبوت الاجسام التي على الارض . فلما أعلن رأيهُ هذا في سنة ١٨٦٨ قوبل بكثير من الريب . ولم يقم لهُ الوزن الصحيح الاّ بعد ان أعيدت تجاربهُ واتقنت وسائل تصوير الطيوف ودراستها . وعلى هذه الطريقة اعتمد صليفر في دراسة احدى المجرّات الحلزونية فوجدها تدور بسرعة عظيمة . فطرف منها يقترب من الراصد الارضي بسرعة لان الخطوط في طيفهِ تحيد الى البنفسجي والطرف المقابل يبتعد عنهُ بسرعة لان الخطوط في طيفهِ تحيد الى الاحمر

واجتمع لديهِ في سنة ١٩٢٨ حقائق عن حركة ثلاثة واربعين سديماً من أقرب السدم الى الارض فظهر لهُ انها جميعاً آخذة في الابتعاد عنا . الاّ ان صليفر لم يدرك مغزى هذه الارقام فلما اتجه اليها هبل وعني بها تبين صلة غريبة وثيقة بين سرعة ابتعاد هذه السدم وابعادها . وان سرعة الابتعاد كما تقاس بالحيود الى جهة اللون الاحمر في خطوط طيوفها تزداد وفقاً لبعدها عن الارض . فالسدم البعيدة أسرع ابتعاداً من السدم القريبة . فهل هذه الصلة بين البعد وسرعة الابتعاد سرعة اساسية ؟ وهل يمكن تطبيقها على الآفاق الكونية التي وراء ما بلغناه بمراقبنا ومصوّراتنا من رحاب الفضاء ؟ وهل جميع السدم آخذة في الابتعاد عن الارض ؟

ما كادت ترتسم هذه الاسئلة في ذهن هبل حتى ثبت لهُ ان لا بدَّ من امتحان هذه الصلة ليعلم أحقيقة أساسية هي ، ام ظاهرة عارضة ؟ وان هذا الامتحان يجب ألاّ يقتصر على السدم التي في نطاق ما بلغناهُ بآلاتنا من الفضاء ، بل يجب ان يشمل كذلك أبعد ما يمكن ان نبلغهُ بها . واذن فالامر الاول الذي يتعين عليهِ هو ان يقيس ابعاد السدم بالاعتماد على الطريقة التي كشفتها المس لفيت — طريقة المتغيرات القيفاوية (مقتطف ابريل ١٩٣٨ ص ٣٥٥) — وثانياً عليهِ ان يعين مقدار الحيود الى الاحمر في طيوفها بالطريقة الطيفية التي ابتدعها هجنز وجاراهُ فيها صليفر . أما العمل الاول فأخذه على عاتقهِ . وأما العمل الثاني فعهد بهِ الى صاحبهِ هيوماسون . وأنبأ مدير المرصد بما ينوي فأتاح لهُ استعمال المرقب الكبير الذي قطر مرآته الماكة مائة بوصة

ليس من السهل أن نرسم طيوفاً للضوء القادم الينا من سدم تبعد عنا ملايين من سني الضوء بل أن سنة الضوء نفسها صورة ذهنية لا نكاد ندرك لها معنى بالقياس الى الابعاد على سطح الارض لان سرعة الضوء ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية الواحدة . وفي السنة ٥٣٦٠٠٠ ٣١ ثانية على اعتبار السنة ٣٦٥ يوماً . فكيف بنا اذا شئنا ان نتصور مليون سنة ضوئية او عشرة ملايين او مائة مليون ! وكذلك كان على هيوماسون ان يبقي الضوء الواصل في سديم معين ، مخترقاً هذا

الجوّ الحافل بالسدم والنجوم ، واقعاً من أنبوب المرقب على شق صيق في المطياف المتصل به . ثم انهُ كان يتعين عليه ان يرقب ذلك الضوء الليل كلهُ حتى يبقى انبوب المرقب مسايراً المصدر الضوء مع دورة الفلك ، فلا يحيد عنهُ والاَّ اختلط ضوؤه الواقع على المطياف بأضواء أخرى

نعم ان للمرقب اجهزة ميكانيكية غاية في الدقة ، يمكن ضبطها فتحفظ المرقب مسايراً للجسم المرصود ، ولكن سرعة حركة المرقب تتغير قليلاً بتغيُّر الحرارة ، فلا بدَّ من المراقبة الدقيقة للفوز بالنتائج الدقيقة . ثم يأخذ الليل في الانقضاء ، ويقرب الفجر من الانبلاج ، فيجب حينئذٍ ان تنطى لوحة التصوير الحسّاسة ، حتى الليل التالي ، وكذلك حتى الليل الذي يليه ، حتى يتمّ تصوير السديم ، وهو كثيراً ما يستغرق من سبعين الى خمس وسبعين ساعة ، اي من ثماني ليالٍ الى عشر ليالٍ من العمل المضني . وليس بالسهل ان تقضي سبع ساعات او ثماني ساعة كل ليلة مدى ثماني ليالٍ او عشر ، وانت ترقب نقطة من الضوء الخفي ، ولكن هيوماسون نهض بهذا العمل الاخّاذ ، ولم يقتصر على سديم واحد بل صوَّر عشرات ومئات

بعد ذلك يؤخذ الفلم المصوَّر ، ويحمض ويثبت في حجرة خاصة بالمرصد ، ثم تؤخذ صورة الطيف ويبدأ البحث فيها عن الخطوط المميزة للعناصر ، ليعلم هل هي في مكانها ، ام هي حائدة عنهُ الى جهة ما ، وما مبلغ الحيود . وهذا الضرب من العمل دقيق الدقة كلها . لان طيوف النجوم والسدم ، حافلة بالخطوط الدقيقة المتلازّة ، فكيف بها اذا كان الطيف في صورة طولها عشر بوصة . وكثيراً ما كان هيوماسون لا يتبين شيئاً واضحاً فيعيد عمل التصوير من اوله . فاذا تبين خطوطاً معينة معروف مكانها في طيف جسم مضيء ثابت ، قابل المكانين وعين مقدار الحيود وعلى اساسه تقدَّر سرعة السديم

كان تقدير سرعة السديم ، وعلاقة ذلك ببعدهِ عنا ، منوطاً بالدكتور هبل . ولم يكن هذا العمل بالعمل الهيّن . هنا رأي يقول انهُ كلما بعدت السدم زادت سرعة تباعدها . وهذا صور دقيقة فيها خطوط مبهمة تدلُّ على اطراف الخطوط الطيفية . فهل يثبت الحساب ان السدم جميعاً آخذة في الابتعاد عنا وفي الابتعاد بعضها عن بعض ، وهل يثبت الحساب كذلك ان سرعتها تزداد بالقياس الى بعدها عنا ؟ لذلك كان البحث في كل صورة من هذه الصور ، وكأنهُ استكشاف سيّار جديد . وكانت النتيجة ان جمع الصور أيَّدت الرأي السابق — اي ان السدم جميعاً آخذة في الابتعاد . وأبعدها عنا اسرعها ابتعاداً

ومضى هبل وهيوماسون في سبر اغوار الفضاء واستخراج النتائج من الصور التي تنجح عندها . ثم أخذا يرتبان تلك النتائج في جدول . هوذا السديم المرقوم N.G.C. 385 في صورة القرس الاكبر يبعدُ عنا ثلاثة وعشرين مليوناً من سني الضوء وهو آخذ في الابتعاد بسرعة ٢٤٠٠

ميل في الثانية . ثم هناك سديم أبعد من السديم السابق وأسرع . فتحة السديم المرقوم N.G.C.2562 في عنقود السرطان بعدهُ عنا تسعة وعشرون مليوناً ونصف مليون من سني الضوء وسرعة ابتعاده عنا ٣٠٠٠ في الثانية . اما السديم في فرساوس فبعده ستا وثلاثين مليوناً من سني الضوء وسرعة ابتعادهِ ٣٢٠٠ ميل في الثانية . والسديم N.G.C. 4654 الذي في شعر برنيقة بعدهُ خمسة واربعون مليوناً من سني الضوء وسرعة ابتعادهِ ٤٧٠٠ ميل في الثانية . وفي صورة الدب الاكبر عنقود اكتشفهُ واتر باد من بضع سنوات وقدر بعدهُ بخمسة وثمانين مليوناً من سني الضوء وهو بحسب هذه الصور العجيبة آخذ في الابتعاد عنا بسرعة ٩٥٠٠ ميل في الثانية . ولما كُشف عنقود الاسد في سنة ١٩٣٠ وعرف ان بعدهُ ١٠٥ ملايين من سني الضوء صوّر طيفه فاذا الصورة تقول انهُ يبتعد عنا بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية . وفي التوأمين عنقود يبعد ١٣٥ مليون سنة ضوئية ويبتعد بسرعة ١٥ الف ميل في الثانية . وفي العوّاء عنقود فيه سديم يبعد ٢٣٠ مليون سنة ضوئية وسرعة ابتعادهِ بحسب هذه الصور ٢٤ الف ميل في الثانية

الصورة السموية	المسافة بملايين سني الضوء	سرعة الابتعاد بالاميال في الثانية	عدد السدم التي رصدت وصورت
العذراء	٦	٧٠٠	٢٣
الفرس الاكبر	٢٣٫٥	٢٤٠٠	٤
السمكتان	٢٤	٢٩٠٠	٤
السرطان	٢٩٫٥	٣٠٠٠	٣
فرساوس	٣٦	٣٢٠٠	٤
شعر برنيقة	٤٥	٤٧٠٠	٨
الدب الاكبر	٨٥	٩٥٠٠	١
الاسد	١٠٥	١٢٠٠٠	١
الاكليل الشمالي	١٢٠	١٣٥٠٠	١
التوأمين	١٣٥	١٥٠٠٠	٢
العواء	٢٣٠	٢٤٠٠٠	١

هذه هي حقائق الموضوع . اثبتها بالرصد والقياس باحثان متمكنان . فما مغزاها ؟ أتعني أن الكون آخذ في التفرق والتشتت ؟ وما صفة هذا الكون وما صورتهُ ؟ هذا موضوع المقال التالي

الشيخ ابو علي

ابن سينا

بقلم منوشهر مؤدب زاده

صاحب جهره نما الايرانية

— ٢ —

ان أبا علي كما نرى في سيرته كان من نوابغ عصره الذين لا يشقّ لهم غبار فان عبقريته الفذّة مكنتهُ من أن يتقن في زمان قليل علوماً لم يتمكن غيرهُ من فهمها واتقانها إلاّ بعد عناء شديد وممارسة تحتاج الى زمن ليس بالقليل . نعم ان هذا الرجل اللوذعي العظيم قد حوى ما استعصى على الناس من العلوم والمعارف في ابان شبابه وأحاط بها إحاطة تامة وفهم مسائلها وأوضح ما أشكل منها وكشف غطاء اسرارها وشرح نكاتها الدقيقة ولم يترك باباً من العلم إلاّ طرقهُ ولم يبق مسألة إلاّ نظر فيها وبلغ به الامر انهُ لم يحصل له اي تفاوت في زمن الكهولة عن زمن الشباب الذي هو أوان الطيش والعيش تضطرب فيه الافكار وتزلّ فيه الاقدام فكان له في شبابه ما للشيوخ من الافكار والمسائل في شتى العلوم والمعارف

ومن هنا قال بعضهم ان دماغه كان مخلوقاً للفلسفة ومعجوناً منها بل في وسعنا ان نقول ان دماغ أبي علي كان خلقاً للفلسفة وموجداً لها . فقد كان للرجل ذكاء وفطنة قويان نادران قلما وجدا في شخص فكانا عاملين قويين في استخراجاته ومستنبطاته في الطب ومعالجة الامراض فقد استنبط بفضل هذه المواهب ما ربما عجزت عنهُ اليوم الافكار مع ما في متناولها من الوسائل الكاملة التي جهّزها بها العلم

يقال انهُ اصيب مرة بصداع خُيّل اليه ان مادة من المواد قد توجهت الى دماغه فاذا لم يدفعها بأضمدة ولطوخات خارجية أحدثت قرحة في دماغه فبادر الى مداواة نفسه ونجح فيها استنبط

وفضلاً عن هذا الذكاء النادر والفطنة التي فاق بها أهل عصره كانت جميع قواه في حد الاعتدال والكمال فكان متفرداً في القوى المادية والمعنوية ومتمتعاً بها . ولاجل هذا يمكن

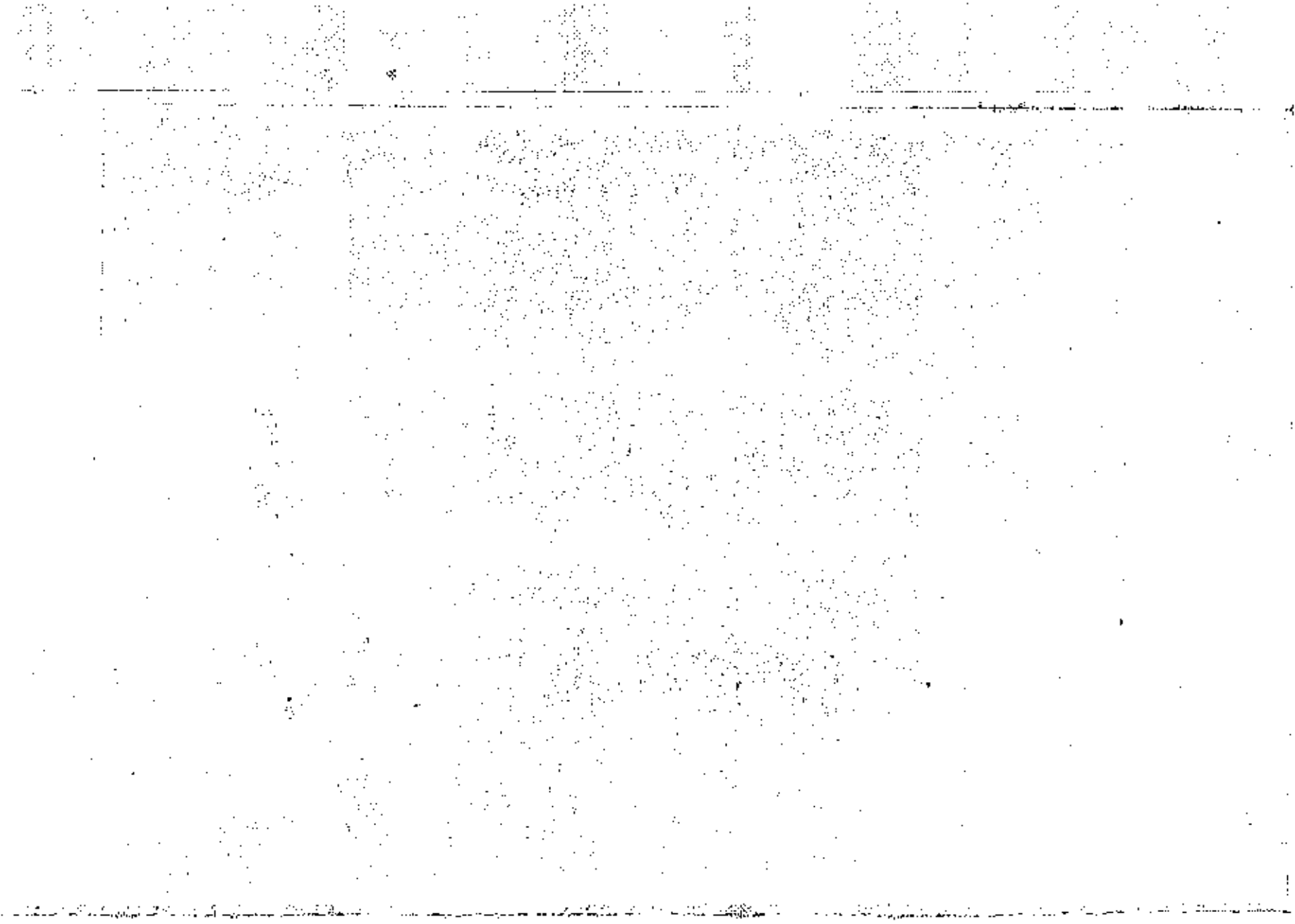

ابن سينا
كما تخيّلهُ ورسمهُ جبران خليل جبران

ان يقال عنهُ انهُ كان انساناً معتدلاً تام القوى ونحن نعلم حق العلم ان لاعتدال القوى المادية اثره الفعال في اعتدال القوى الفكرية . والفلسفة الجديدة تبرهن على هذا وتثبتهُ لنا ولذا كان أبو علي من الوجهة الفكرية من أعدل الفلاسفة المشائين وكانت طريقته أقرب الطرق للبرهان والحقيقة وفضلاً عن هذا فان القوى المذكورة قد أكسبت الرجل قوَّة من الاجتهاد والمثابرة على الاعمال تناسبها تمام المناسبة ولذلك نراهُ قد تمكَّن من إعمال القوَّة المادية والروحية واجتنى منها ثماراً ناضجة وأحرز منها نتائج باهرة لا يستهان بها بل لا يحصر مداها . فقد روى لنا أبو عبيد : قال عند ما وصل منطق كتاب النجاة الى شيراز أورد عليهِ علماء تلك المدينة بعض إشكالات أرسلوها للشيخ على يد أبي القاسم الكرماني فتناول الشيخ الرسالة وراح يشتغل بأمور كانت لديهِ وكان وصولها عند الاصيل فقضى الشيخ تلك الليلة مع أبي عبيد ولكن أبا عبيد يقول لم ينتصف الصبح حتى وجه اليَّ فحضرت ووجدتهُ جالساً في مصلاه فناولني الجواب وكان مكتوباً على خمسين صحيفة

ويروي لنا هذا الرجل أيضاً ان ابا علي قد ألف مبحث الالهيات والطبيعيات من كتاب الشفاء سوى مبحث النبات والحيوان في مدَّة لا تزيد على عشرين يوماً ولم يحتج في تأليفه الى مراجعة اي كتاب واليوم لا يمكننا ان ندرس ونفهم ما كتبهُ هذا العبقري في أقل من سنتين . فانظر الى حافظة هذا الرجل واستحضاره للمسائل والمطالب ثمَّ تصوَّر شخصيتهُ الفذَّة . ولعلَّ هذه القوى والحافظة والذكاء النادر وتمكنه من ممارسة العلوم والاحاطة بجميع المسائل وفهم المطالب أكسبتهُ في مجالس الدرس والتقرير تلك الحدَّة التي طالما أشار اليها المؤرخون وصرَّحوا بها في كتبهم ومؤلفاتهم . فقد ذكر الشهرزوري في عدَّة مواضع من كتابهِ تاريخ الحكماء ان أبا علي كان يحتد ويكثر من ذم العلماء ولذلك كثر أعداؤهُ والحاقدون عليهِ وأخذوا يسعون بشتى الطرق في احتقاره واستصغاره . ونرى كل هذا واضحاً مكتوباً في رسالاتهِ ومنها رسالته المسماة بالأضحوية وقد قال في أولها «وقد اتتابني حوادث وصُبَّت عليَّ مصائب ومحن لو أصيبت بها الجبال الرواسي لتصدَّعت واندكَّت منها »

ومنها معارضة أبي علي لأبي القاسم الكرماني وأبي علي المعروف بمسكويه وهي دليل على هذه الدعوى . يقال ان أبا علي مرَّ يوماً على مجلس درس لمسكويه فرمى اليهِ بجوزة وقال لهُ ما مساحتها ؟ فناولهُ مسكويه رسالةً كان ألفها في علم الاخلاق وقال لهُ يجب عليك أولاً ان تسعى في تهذيب أخلاقك

لا ريب في ان الامر لا يخلو من مبالغة وان أكثر هذه الامور قد نسبها اليهِ أعداؤهُ وخصومه الكثيرون في حياتهِ وبعد مماتهِ

وكيف يمكن ان يصدَّق ان رجلاً بلغ من العلم والحكمة مبلغاً فاق به الاقران والاتراب يكون على جانب عظيم من سوء الخلق والحدَّة التي تنزَّه سمعته ؟

فاذا سلمنا جدلاً بما يقال عنهُ فانا لا يمكننا إلاَّ ان نعترف بأن أبا علي كان من أعظم الفلاسفة بل كان على رأس اولئك الذين ثقفتهم المدنية الاسلامية الزاهية وأعجبوم ذلك العصر الذهبي الزاهر. فقد درس فلسفة ارسطاطاليس من دون إلمام باللغة الاغريقية او اللاتينية فعلمها بفضل قواه النادرة وذكائه العجيب ومع انهُ لم يكن لديه إذ ذاك سوى تراجم ناقصة فقد تمكن من أن يتكلم فيها ويقررها أحسن تقرير ويبينها بياناً ما عليهِ من مزيد حتى نسخت مؤلفاته كتب المتقدمين ورغب فيها الناس ورغبوا عن كتب أرسطاطاليس فاحتلت هذه مكانها

ولم ينكر المتقدمون ولا المتأخرون مقامه هذا وقد أقروا لهُ بالفضل واعترفوا له بانهُ أحذق استاذ قرر تعاليم أرسطاطاليس وقد عرضوا عليهِ كل مسألة أشكلت عليهم واخذوا برأيهِ وجعلوا أقواله وآراءهُ مستنداً لهم في اثبات المسائل الفلسفية والحكمية . ومن جملة فلاسفة الاسلام وعلمائهم الذين يشار اليهم بالبنان ابو حامد الغزالي فقد قال في مقدمة كتابه (تهافت الفلاسفة) ان أقوال المترجمين لكلام أرسطاطاليس لا تخلو من تبديل او تحريف يحتاج الى تفسير او تأويل وقد صار هذا سبباً للنزاع بينهم وبين اكبر فلاسفة الاسلام نقلاً وتحقيقاً اي الفارابي وابن سينا ، ولذلك فنحن نبذنا ما اختاراه وقالا بصحتهِ لاننا لا نشك فيما لم يختاروه ان يكون سقيماً او مختلاً

ولاجل ذلك يعتقد بعض العلماء ان الغزالي لم يقدم على تأليف كتابه هذا الموسوم بتهافت الفلاسفة إلاَّ وهو يريد هدم آراء ابي علي الفلسفية والتحامل عليهِ والحط من مقامه وكذلك كتاب المصارعة لمؤلفه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فهو يحكي لنا الصراع الدائم القائم بين مؤلفه والشيخ أبي علي بن سينا . وقد جاء في بعض الرسائل الفلسفية أنهم اتفقوا على ان أبا علي قد تفرَّد وفاق الاقران في الحكمة وأصبح في الفلسفة علاَّمة دهره فلم يبلغ شأوه احد ولم يشق له غبار وكل من ادرك كلام أبي علي وفهم معناه فقد فاز بقصب السبق ونال أعلى مقام في الحكمة والفلسفة. وكان عمر الخيّامي من فلاسفة القرن الخامس والسادس من الذين يعتقدون بأبي علي أي اعتقاد وقد سألهُ بعضهم شأن الاعتراضات التي اوردها ابو البركات البغدادي على آراء ابي علي في الفلسفة والحكمة من الصحة والبطلان فأجاب الخيّامي ان أبا البركات لم يفهم كلام ابي علي بعد

وقد بلغ المقام بأبي علي في الفلسفة والحكمة حتى اصبح تعلُّم مؤلفاته وتعليمها من الامور الضرورية المسلَّم بها حتى اصبح المقصود من درس الفلسفة على مرِّ الزمان هو دراسة كتب ابي

علي ليس إلاَّ ولذلك هدأت الحركة الفلسفية وتوقف سيرها الى حدٍّ ما فآل ذلك الى انحطاطها في القرون الاخيرة فقام بعض العلماء وعارض اقوال ابي علي وآراءه وأورد عليه ولم يكن ذلك الاَّ اظهاراً للفضل واسلم وثمر آخرون للدفاع عنهُ وعن تآليفه وكتبه . ومن المعارضين للشيخ والموردين على كتبه شكوكاً كثيرة الامام فخر الدين الرازي الشارح لاشارات ابي علي وقد رد على آراء الشيخ وبنايه حتى سمّى بعضهم هذا الشرح (بالجَرح)

ثم جاء نصير الدين الطوسي من جملة حكماء القرن السابع وقرر اقوال الشيخ احسن تقرير وأبطل اعتراضات فخر الدين الرازي وحسبها واهية وانتقد كتبه وجرَّحها باشكال مختلفة . وكذلك محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فقد كرر في كتابه المصارعة آراء ابي علي وأقواله واعترض على اكثرها اعتراضات واهية حسبها واردة وقد يتجاوز هذا الرجل في بعض الاحيان حده فيعدُّ كلام ابي علي كالهذيان والمجذوبين وقد رد الخواجة نصير الدين على كتابه المسمى بالمصارعة بكتاب سمَّاه (مصارع المصارع) وابطل اقوال الشهرستاني وانتقد اخلاقه ولامهُ على تعرضه للشيخ بما لا يليق من الكلام ولعمر الله ان نصير الدين لعلى حق فيما يقول

ولما شاعت وانتشرت فلسفة المشائين ومعتقداتهم على يد ابي علي وكتبه واذعن لها تقريباً قام رجل من اعاظم علماء ايران معارضاً لهذه المعتقدات وجاء بالعقيدة الاشراقية وهي التي تعرف بالحكمة الاشراقية وجعل يقررها ويشيد لها صراحاً على انقاض اصول المشائين التي أوشكت ان تنقرض ويأفل نجمها . وقد راجت الحكمة الاشراقية وكثر تابعوها وكسدت سوق مؤلفات ابي علي ورغب عنها الى حدٍّ ما وذكر تفصيل ذلك في تاريخ الفلسفة للقرن السادس

***

وقد حاز ابو علي فضلاً عن الفلسفة مقاماً شامخاً في الطب ووقف منهُ موقف الاستاذ فقد نسخ كتابه المسمى بالقانون كتب المتقدمين وقضى على تعاليمهم . وكان ابو علي يتحيز لارسطاطاليس ويميل اليه ويتحامل على جالينوس ويحقره في كتبه ويسميه احياناً (فاضل الاطباء) ويقول عنهُ ان فاضل الاطباء جالينوس هو طبيب غير انهُ يجب ان يتفلسف

أما محمد بن زكريا الرازي فكان جالينوسيًّا ولم يكن يعتقد بأرسطاطاليس كثيراً — فطريقة أبي علي التابع لارسطاطاليس في تدوين الطب وتقريره لهُ منطقية بينما طريقة الرازي أقرب للعطابقة والسهل

فلما شاع منطق أرسطاطاليس بين الناس ولم يكن الاشتغال بالتشريح والتجارب الكيماوية بالامر الهين كان لتقرير أبي علي وقوَّة بيانه أحسن تأثير في انتشار طريقته وأقوى عامل وضامن للاخذ بها فنسخت طريقة جالينوس التي نشرها محمد بن زكريا وغيره من الذين عرفوا

بالزندقة وعدم التمسك بمذهب فصار كتاب قانون ابي علي يدرس في جميع مجامع الطب والمجالس التي تعقد لدراسة هذا العلم وغدا الكتاب الذي يستند عليه . ولم يقتصر أبو علي في الطب على التقليد بل كانت له تجارب وآراء وتأملات وكان اكثرها في معالجة الامراض وسببها وقد ذكرها في القانون وقد فقد ما كان منها على صورة مذكرات لم تدوَّن بعد في كتاب — هذا ما يرويه لنا ابو عبيد

وقد ظن بعضهم أن أبا علي — كما يستفاد — من كتبه لم يكن إلاّ تابعاً لارسطاطاليس وقد قلّد المعلم الاول في آرائه قولاً وفعلاً وخصوصاً في المنطق وكتاب التعليم الاول . ولكن الامر على خلاف ما ظنوه فقد كان للشيخ في كل قسم من اقسام العلوم التي اخذها عن ارسطاطاليس آراء اودعها في كتاب مخصوص سمّاه (الحكمة المشرقية) وأما الخطة التي كان قد قرّرها لنفسه في تآليفه وكتبه كالشفاء فهي تقرير آراء المشائين ليس إلاّ ولذلك لم يتعرض لرد آراء شيعة أرسطاطاليس وتضعيفها بل على العكس من ذلك سعى في تأييدها جهد طاقته وقد اتبع نصير الدين الطوسي الذي خلفهُ هذه الخطة في كتبه التي ألفها في تقرير آراء المتكلمين والحكماء من الاشراقيين والمشائين . ومع ان الشيخ أبا علي يقول كل من أقرَّ بشيء وآمن به بلا دليل لديه فهو خارج من الفطرة الانسانية مفسلخ من الطبيعة البشرية نراهُ عند اثباته للنبوة أجاز للفرد الكامل اباحتهُ صيت مخالفيه ودماءهم . ولعل آراءه هذه حملت المؤلفين على ان يعتقدوا فيه التكتم ولكنهُ لم يكن معروفاً بذلك في عصره بل كان معاصروه يرمونهُ بالكفر والالحاد والزندقة . والذي يلوح لنا من سيرة حياته أنهُ لم يكن منكراً للمبادىء الدينية وكان كلما وقعت له مسألة لم يفهمها دخل المسجد الجامع وسأل الله تسهيلها وكشفها له . ولما أيقن بالوفاة تاب الى الله ووهب امواله للفقراء والمساكين ولعل ما اتهمهُ به المعاصرون من الكفر والالحاد جعله يعتقد في كتمان الحقائق الفلسفية وعدم البوح بها وقد اوصى في آخر كتاب الاشارات بكتمانه والضن به على غير اهله وأن لا يظهر عليه إلاّ من كان أهلاً له . وأما من الوجهة التعليمية فقد كان يشابه أرسطاطاليس كل الشبه . ولم يأخذ برأي فلاسفة الهند الذين يعتقدون ان عمران الروح لا يكون إلاّ باضعاف الجسم وهدم بنائه . وقد اخذ بهذه العقيدة بعض المتصوفين ولكن أبا علي لم يقدم على هدم قوى الجسمانية بل تمتع بقواه الروحية والجسمية كما يقول المحققون والفلاسفة والعرفاء أن الانسان يجب ان يكون جامعاً وذا عينين ويهتم بكل من مراتب الوجود في حدة . فكان كما يقول أهل العرفان : « لا الكثرة تمنع وحدته ولا الوحدة تحجب كثرته »

[لها بقية]

الجيش المصري

والاستكشاف في أفريقيا

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

— ٢ —

اقليم هرر

اذا تحوّلنا من بلاد الصومال الى مديرية هرر التي زارها الرحالة الانجليزي برتون R. F. Burton بين عامي ١٨٥٤ و١٨٥٥ وجدنا ان النتائج العلمية التي حصل عليها كانت قليلة جدًّا ولا يصحّ الاعتماد عليها ويمكن ان نتحمل بعض الاعذار لهذا الرحالة فنقول ان الاحوال التي احاطت به أثناء اضطلاعه برحلته جعلت اقامته في هرر لا تزيد على عشرة أيام. ثم انه تعذّر عليه ان يستعمل من اجهزة البحث الا بوصلة الجيب وساعة وثرمومتر ومع ذلك فقد أفادت له بعض الفائدة [١] ويحتوي كتاب برتون بجانب تخطيط عام لهرر على خارطة اخرى لا قيمة لها البتة من الناحية الجغرافية تبين الطريق الذي سلكه الى هرر. وقد كان الموقع الذي أثبته لمدينة هرر أصح من الموقع الذي اثبتهُ هاريس واعوانه الذين قاموا برحلة الى شوا [٢] او الرحالة كراتندن [٣]

ولقد ظلّت مهمة الفوز بمعلومات صحيحة عن داخلية تلك البلاد شاقة جدًّا زمناً طويلاً لغيرة الاهالي الوطنيين وتعصبهم. فكانت المعلومات المكتسبة مبنية على التخمين والرواية وليست مؤسسة على التحقيق العلمي. وظلت الاحوال على هذا المنوال مدة عشرين عاماً عقب زيارة برتون. ولم يحاول احد خلالها ان يقوم بفتح داخلية البلاد حتى ظهر المصريون وأفلحت جهودهم في عام ١٨٧٥ وحينذاك سهل القيام بالرحلات. فتجمعت تدريجيًّا المعلومات والنقط الرئيسية للارشاد وللمرة الاولى عملت خارطات لاقليم كان بالامس مجهولاً تماماً. واستطاع

(١) R. F. Burton. First Footsteps in East Africa. London 1856. p. 62
(٢) W. C. Harris. Highlands of Aethiopia, 3 Vols. London 1844
(٣) C. J. Cruttenden. J. R. G. S. Vol XIX. 1849 pp. 49-76, also-J.R.G.S. Vol. XVIII, 1848. pp. 136—139.

الضباط المصريون بقيادة البكباشي مختار ان يزحوا بسلهم الانساني فانتشلوا هرر من الظلام الجغرافي الدامس الذي رقدت فيه قروناً كاملة

لقد وصل المصريون الى تاعجهم الباهرة التي لم يصل اليها أحد من قبل لانهم كانوا يشرفون على ادارة تلك الاقطار ولانهم كانوا ايضاً يتمتعون بمزايا لم يتمتع بها غيرهم من المستكشفين . وقد استفادوا من تلك المزايا بدليل النتائج الغزيرة التي حققوها والتي نراها أمام أعيننا اليوم

في عام ١٨٧٦ بعد ان انتهى البكباشي محمد مختار من جولاته لاستكشاف بلاد الصومال[١] نشر مع زميله فوزي باللغة العربية الخارطة الاولى لهرر والبلدان المجاورة . وقد ظهرت في مجلة اركان الحرب . وكتب ايضاً الضابط فوزي مقالاً طويلاً عن نتائج أعمال الكشف الذي قام به المصريون في مقاطعات شعوب العيسي وجالا وهرر[٢] . وتمتاز الخارطة المذكورة بدقة ما احتوته من الحقائق كالمحطات المهمة والمدن وطرق التجارة ومقاطعات القبائل وأهم اوصاف الارض الطبيعية ومعالمها[٣] . وفي هذه الخارطة أثبت موقع هرر كما يأتي :

٤٨° ٢٢′ ٩٠″ من خط العرض و ١٥° ٢٠′ ٤٢″ من خط الطول[٤] . واثبات هذا الموقع لا يختلف الا بضع دقائق الى الشمال ومثلها الى الشرق عن موقعها الجغرافي الذي أثبت أخيراً بغاية الضبط كما يختلف شيئاً قليلاً عن الموقع الذي أثبته رءوف باشا في تقريره عن مدينة هرر وضواحيها[٥] في تقرير رءوف باشا أثبت موقع المدينة على خط عرض ٢٠′ ٩٠° شمالاً و ٤٢′ ١٧° طولاً كما أثبته برتون . ولكن لم كان الاختلاف بين تقرير القائد العام للحملة الى هرر وبين تقارير ضباط هيئة اركان حربه ؟ هذا مما صعب فهمه

والخارطات الهامة الاخرى التي أحرز فيها مختار وفوزي نجاحاً باهراً خلال الاعوام الاولى للاحتلال المصري هي أول تخطيط عمل لمدينة هرر (١٨٧٦) وقد بيّنا عليه أسوار المدينة وأبوابها وقلاعها وأهم الايضاحات الطبوغرافية ورسما قطاعاً واضحاً يقطع المدينة في اتجاه شمالي جنوبي تقريباً[٦] وهذا الرسم (قياس $\frac{١}{٢٠٠٠}$) يعتبر عملاً فائقاً من الطراز الاول من ناحية التفاصيل الموضحة عليه ومهارة العمل ودقته اذا قورن بأي عمل آخر تم فيما بعد لهذه المدينة

(١) راجع النبذة التي كتبها البكباشي مختار على استكشافه في بلاد جادبيورسي المفروحة في العدد السابع من القسم الاول من مجموعة الجمعية الجغرافية (٢) مجلة اركان الحرب — السنة الثالثة — المجلد ١ — الجزء ٥ — القاهرة ١٨٧٧ ص ٣٨٥ — ٤٠٠ وجزء ٦ ص ٤٦٢ — ٤٧٩ (٣) أحمد فوزي — وصف عمل الاستكشاف في العيسي والمالا وهرر — مجلة اركان حرب — السنة الثالثة ١٨٧٧ — المجلد ١ جزء ٥ ص ٣٩٢ . ومحمد مختار — الجمعية الجغرافية — ملاحظات عن مقاطعة هرر — السلسلة ١ — ص ٣٦١

(٤) في هذه الخارطة يعتبر خط الطول المار بباريس صفر (٥) رءوف باشا : تقرير عن مدينة هرر وضواحيها — مجلة أركان حرب ١٨٧٦ — السنة الثالثة : المجلد ١ — جزء ١ ص ٤٤

(٦) محمد مختار واحمد فوزي : خارطة مدينة هرر عام ١٨٧٦ — مطبعة اركان حرب العامة — القاهرة ١٨٧٧ — مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٧٧ — السلسلة ١ رقم ٤

ونذكر ايضاً في هذا الصدد — الخارطة العربية — لبلاد الصومال التي رسمها الضابط فوزي وعرضها في المؤتمر الجغرافي بالبندقية عام ١٨٨١ (٢) . لكن مما يؤسف لهُ ان تلك الخارطة قد فقدت . ومن المحتمل ان تكون قد أودعت في مكان وظلت فيه منسية مجهولة

عود الى الصومال وبربرة والحبشة

وقبل اختتام هذا البحث نعود الى ذكر بعض الاعمال الجغرافية التي قام بها الضباط المصريون في افريقيا . فقد رسم الملازم الاول عبد الرزاق نظمي وكثير من زملائه من ضباط اركان حرب الجيش ميناء بربرة وضواحيها الى جبل دوبار . وكان المستر « سدني أنسور » مكلفاً اتمام البحث فيما يختص بانشاء سكة حديد بين بربرة والقاشر

ولما نشبت الحرب بين مصر والحبشة (١٨٧٦) رسم بعض ضباط اركان الحرب برآسة الامير الاي لوكيت عدداً كبيراً من الخارطات التفصيلية لبلاد الحبشة ورسموا خارطة عامة لبلاد الواقعة بين مصوع وهضبة الحبشة . ويعتبر هذا العمل من أهم وأفضل ما اشتغلت به هذه الجماعة المنتخبة من اكفاء الضباط المصريين . كما حقق الكباشي عبد الله فوزي (باشا) حدود الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ثم رسمت خارطتها (٣)

وفي عام ١٨٧٨ عهد الخديو اسماعيل الى الكولونيل جريفز (Col. Graves) والقائمقام محمد مختار بارتياد شواطىء الصومال على المحيط الهندي لاختيار موقع يقام فيه فنار لارشاد السفن فخطط القائمقام مختار بك خارطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية اميال جنوبي رأس جردوفوى (٣) وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجري فيه الماء العذب . لكن لم ينشأ الفنار لانتهاء حكم اسماعيل في يونيو سنة ١٨٧٩ . وفي عام ١٨٨٠ كان الامير الاي محمد مختار قد جاب نواحي السودان الشرقي لما كان رئيساً لأركان حرب السودان يصحبه من ضباط خليل بك فوزي والملازمان محمد خير الله وعلي خيري وقد نشر بحثاً مسهباً في تخطيط أبو حراز والقضارف (ابوسن) والقلابات وطوبات واميديب وغيرها من مدن السودان الشرقي (٤)

الاعمال الحديثة

ونتجه الآن لدراسة آخر اعمال الخرائط التي انجزها الضباط المصريون في هرر التي تعتبر تقدماً باهراً على الاعمال التي سبق عملها بمعرفة مختار وفوزي وغيرهما : ففي أواخر عام ١٨٨١ مسحت هرر وملحقاتها من جديد بتفصيلات متقنة وايضاحات اكثر مما جاء في المحاولات التي تمت من قبل

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٨٢ — السلسلة ٢ — رقم ١ — ص١ — ٢١ (٢) عبد الرحمن الرافعي — عصر اسماعيل — ص ١٧٩ (٣) مجلة الجمعية الجغرافية المجموعة ١ عدد ٩ (أخطىء — نوفمبر ١٨٨٠ ص ٢٩) (٤) مجلة الجمعية الجغرافية المجموعة ١ عدد ١١ — فبراير ١٨٨١ ص ٥

وقد قام بهذا العمل البكباشي أحمد وعدي والملازم الاول عبد الكريم عزت . وكانت مصر في ذلك الحين قد أخضعت بعض قبائل من الوطنيين الذين لم يقبلوا التسليم في بادىء الامر . وكان كلما اتسع الافق السياسي امتدت أعمال الكشف وازدادت . ولذلك جاءت الخارطات الجديدة بطبيعتها اكثر استيفاء للمعلومات من سابقاتها او التي اعقبتها وامتازت في احوال عديدة في ذلك الوقت الذي عادت فيه هرر الى حكم أمرائها السابقين واخلاء المصريين لتلك البلاد (١٨٨٤ — ١٨٨٥) وأخيراً لما أصبحت هرر تحت الحكم الحبشي (١٨٨٧) . ففي خلال عامين كان عمل الضابطين وعدي وعزت قد تم . ويمكن الاطلاع عليه في مجموعات خارطات الجمعية الجغرافية . وقد عرف « بولتشكي » قيمة تلك الخارطات العلمية والجغرافية واثنى على العمل الفني الذي اضطلع به الضباط المصريون في هرر كما أنهُ امتدح جهود الضباط مختار وفوزي وعزت[1] وبينما كان هؤلاء الضباط النابهون يقومون باكتشافاتهم كان الجنرال ستون[2] يشرف في القاهرة على رسم خارطة كبيرة شاملة للاملاك المصرية قياسها ـــــ . وكان الغرض من انشاء هذه الخارطة جمع النتائج المتحصلة في خلال ثماني عشرة سنة انقضت كلها في الفتوحات والاستكشافات والمباحثات والمراجعات . وقد كتب عنها الجنرال ستون : — « ان مسطح الارض التي شملتها تلك الاعمال يعادل مجموع مساحة فرنسا وامبراطوريتي المانيا والنمسا . وقد قضت هذه الاعمال على حياة ضابط وعالم ألمانيين واثنين من الفرنسيين ومثلهما من الاميركيين ومثلهما من الطليان ومثلهما من المصريين وجميعهم استشهدوا في سبيل الاخلاص للعلم . هذا غير من اختارهم الموت من « الجنود البواسل الذين رافقوا الضباط وأهل الريادة . فانهم لقوا حتفهم في تلك البلاد المجهولة مثل زملائهم الذين صحبوا البعثات العلمية المحضة ايضاً »

وليس في وسع احد ان يتجاهل ما كان لمصر من شأن المتقدم وفضله في ميدان الاستكشاف الجغرافي في بلاد الصومال وافريقيا الشرقية وجميع انحاء السودان وصحاري مصر[3] . وهذه الاعمال الخالدة صفحة مجيدة تفاخر بها كل أمة حية . وهي جهود اعوام متتالية كما وصفها الجنرال ستون قامت كلها على أكتاف الضباط المصريين في صمت وهدوء وتواضع وكفاح مع الامراض المتوطنة في تلك الاقاليم البعيدة والتي كانت في يوم من الايام قطعة من أرض الوطن

(١) Paulitschke. pp. 575—591

(٢) هو شارلس بوسوي ستون رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري من عام ١٨٦٩ الى عام ١٨٨٢ . وقد كان كولونيلاً في الجيش الاميركي عندما استقدمه الخديو اسماعيل باشا لرآسة بعثة عسكرية اميركية لاصلاح الجيش المصري كما ذكرنا في صدر المقال . راجع مقالة لهُ بامضاء بأشا بعنوان الجنرال ستون ومقالنا بالمقتطف ج يوليو بالمجلد ٩١ ص ٢٠٢ — ٢٠٨ (٣) من مقال الاستاذ حسين بك رئيس قسم الجغرافيا بالجامعة المصرية وكان اقتبس مرجع لك في كتابة هذا الموضوع

ساعات في هياكل الشعراء — ٣

الياس فياض

وقصيدة النجوم

ليوسف البعيني

مضى خمسة أعوام وأزيد على وفاة الشاعر الرقيق الحساس الياس فيّاض ذلك البلبل الفريد الذي فتن بأناشيده أبناء العربية على السواء . وكنت طوال هذه الاعوام أمنّي النفس بكتابة كلمة ضافية عنهُ لا لشيء بل قدراً لروحه الكبيرة وإنصافاً للشعر العربي الذي أحبتهُ وآثرتهُ على الآداب الاخرى لما في اوزانه من رنين ، ولما في الفاظه من حبّ لم يخبُ نوره ولم تزمّده جراتهُ ! !

أما أدلّتي على ذلك فهي تلك المقاطع الساحرة التي ردّدها تحت سماء الشرق المقمرة عُمَرُ بن أبي ربيعة ومجنون ليلى وغيرهما من شعراء الحبّ والغرام . . . وقد طوت أشعارهم الحقب الخوالي طافيةً كالاحلام فوق أمواج الدهور دون ان يفقدها تقادم العهد تلك النشوة المسكرة ، وذلك الدبيب المستحبّ

على انني لا احاول في هذه الكلمة الموجزة أن أعطي للقارىء صورةً شفّافة عن الياس فياض ، ولا ان أجهد نفسي بتبيين اسرار شعره السائغ اللذيذ . . . كلاّ فأنا لا أقصد هذا ولا ذاك . . . بَيْدَ اني أريد التحدث عن قصيدة « النجوم » التي كانت ولا تزال موضوع إعجاب وفتنة لدى ادباء العربية في كلّ مكان !

وقبل ان ابدأ بحديثي أُحبُّ ان اطلع القارىء على إني أسرف اكثر أيامي ولياليّ بين الكتب . فلمطالعة الكتب عندي لذّة لا تعادلها لذّة في الحياة . . . ولذلك توفرت لديّ ثروة أحاديث ادبية طريفة ، ثروةٌ لا حدود لبحورها ولا نخوم . . . وعلى هذه القاعدة اسستُ واقفاً على سير الادباء ، ليس عند العرب فحسب ، بل عند كثير من الامم الغربية التي تتذوّقُ الادب الرفيع ، وتقدّس الفنّ والجمال ! !

ولطالما عثرتُ في مطالعاتي على مآخذ ادبيّة جمّة ، مآخذ شعرية ونثرية ، فكنت امضي في سبيلي وهو سبيل الاديب الذي لا يطلب من مطالعاته الاّ اللذّة الشافية وإشباع ميوله وعواطفه بروحانيّة علوية سامية . وظلّ عهدي كذلك حتى وقع بين يديّ ديوان — الياس فيّاض — وهو من أفضل الدواوين الشعرية التي اصدرتها المطابعُ العربية في مستهل هذا الجيل لكونه مطبوعاً بطابع يختلف عن غيره ويتهادى في موكب من الجدّة والانسجام. وقد حُرِمت من هاتين الميزتين أغلب دواوين الشعر في تلك الايام

قرأت الديوان فأسكرتني قصائده العذبة وعلى الاخص قصيدة — النجوم — تلك القصيدة الرائعة المؤثرة التي قلّدها جمهور من كبار شعراء العربية في مصر ولبنان . وهؤلاء لم يقلدوها الاّ لما تحمل في ابياتها من حرقة ، هي حرقة الشاعر الظامىء المتألم الذي يتعانق فجر الحياة ومساؤها في ظلال اجفانه ! !

وهذه هي القصيدة :

قُلتُ للنيّرات ذاتَ مساء أتُرى أنتِ مثلنا في شقاء
ساهراتٌ الجفونِ — هل لفراقٍ خافقاتٌ الضلوعِ — هل للقاء
هائماتٌ مع المجرّة نجرِ نَ الى غير غايةٍ او رجاء
مثلَ سربٍ من القطا ظامئاتٍ حول ماءٍ يُمنعنَ وردَ الماء
أو عذارى من حولِ نبعٍ جارى في صلاةٍ ما تنقضي ودُعاء
إنّ في لحظكِ الشجيّ حنيناً نافذاً سهمهُ الى احشائي
وأرى نورك الضئيل كدمعٍ سائلٍ من محاجرٍ بيضاء

***

أنورٌ كئيبةٌ ام جراحٌ أنتِ في اللانهاية السوداء
أنتِ يا جدّة الخلائق ام الد هر يا ربة الهدى والضياء
أنتِ تبكين يا نجوم ؟ أجابتْ نحن في عزلةٍ بهذا الفضاء
بيننا البحر من قديم فلا يغرُ رُ لنا ما تقارب الاضواء
كلُّ نجمٍ منا يعيش بيداً عن أخيهِ في وحشةٍ وجفاء
محرقاً نفسهُ بغير انتفاعٍ ذاهباً نوره سدًى في السماء

***

قد فهمتُ الذي تقولين يا شهـ ـب فأنتِ انفس الشعراء
هكذا نورُها يضيع بأفقٍ نزلتْ منهُ منزلَ الغرباء

لا ترى الانفس القريبةُ منهـا ما بها من توقد وذكاء
فتثير الظـــلام حيناً وتمضي في ثياب الخـــلود نحو الفناء

***

ولكنّني لم أكدْ استيقظ حتى علمتُ بأنها مأخوذة عن الشاعر الفرنسي المشهور — سولّي برودومّ — وأحببتُ ان انبه المرحوم الياس فياض الى هذا المأخذ الصريح فكتبتُ اليه رسالة لطيفة طويتها على إعجابي به وعلى تبيان الحقيقة . وعلى الرغم من تقادم العهد فأنا لا أزال اذكر من تلك الرسالة جملة مقتضبة فيها جمالٌ وإغراءٌ وهي : —

اخي الحبيب الياس ،

أعجبتني ريشتُك الساحرة من رياض الجنّة ومعطّرةٌ بأنفاس الخلود . . . أم قبستها من جنب الانبياء حتى جاءت تقطّر في جراحات القلوب ما تقطّرُهُ ، وتسكب على الاجفان الذابلة ما تسكبهُ ؟ فللهِ درّك من شاعرٍ حنون اذا ما اهاب بأوتار قيثارهِ مشت رعشةٌ برياض الشعر وبلابله . . . .

بعثت اليه بتلك الرسالة نازفاً في مراشفها عاطفةً من عواطفي المرتعشة كزنبقة الغور عندما يلاعبها نسيم الاودية وهي اول رسالة بعثتُ بها الى شاعرٍ يلمعُ اسمهُ في سماء الادب اذ كنتُ انتقل خطواتي ايامئذٍ بحيرة واضطراب كأني الفرخُ يهمُّ للطيران من اخوصه واهياً ضعيفاً على اني ما انتظرت ان يجيبني مبيناً لي الحقيقة . ولكنهُ اجابني رحمهُ الله بكتابٍ ضافرٍ ينمُّ على أدب سامٍ وروح معذبة تزهقها اشباح الشاعرية . وهذا الكتاب لا ازال احتفظ به كأثرٍ غالٍ له قيمته المقدسة

اليك بعضه :

أخي !

أي فهم موجعٍ مؤثرٍ هو هذا النغمُ الذي جئتَ تسمعني اياه ؟ لقد أيقظ في صدري حلماً هامداً كنتُ أحسبني رقدت معه يوم ودعت الشعر وقبعت صامتاً الى ان يسمح الله بغيب شمس الحياة

تسألني يا اخي عن قصيدتي — النجوم — وتلح عليَّ ببيان حقيقة أمرها . لقد قلت لي انها وقعت من نفسك في الغربة موقعاً الطف منها وهي في الفرنسية . لماذا لم تكتف بهذه اللذة قانعاً بها وحدها ؟ أما وانت تريد ان تعرف اسرارها فما عليَّ اذاً الاَّ ان احدثك بإسهاب ، وهذا الحديث يرهقني كثيراً لكوني مريضاً اليوم بداء قديم سوف لا يبارحني إلاَّ وحياتي في قبضته !

من عشرين عاماً تقريباً كنت أدرس الحقوق في باريس — باريس المدينة الشعرية الفاتنة — فعرفت فيها فتاة جميلة شقراء على جانب كبير من الثقافة والتوسع في الفنون. وكثيراً ما أنشدتني الرائع من الشعر الفرنسي. ومن بين ما أنشدتني اياه، وكان لهُ تأثيراً عميق على عواطفي وافكاري، قصيدة — سولّي برودوم — المسماة (الجرّة) فقد رسخت هذه القصيدة في فكري رسوخاً امتزج بقلبي وروحي

وبعد مضي زمن طويل على هذا الحادث عدت الى الاسكندرية. وفي ذات ليلة اشتدّت عليَّ آلامي النفسية فرحت أبحث عمّا يعزّيني. ولما لم القَ في الاسكندرية من أشُدُّ مصابي بكيت متألماً !! ولم يكن امامي الا النجوم اشكو اليها كآبتي. فقابلت بين احتراقها في الظلام وبين احتراق نفسي الحزينة فجاش الشعر في قلبي . . . ولم يطلع الفجر حتى كنت اتم آخر بيت من قصيدة النجوم

هكذا نظمت قصيدة (النجوم) وأنا أحسب انها من توليدي. ويمكنك الاعتقاد يا يوسف اني لم أكن انتظر ان أحيي ّ مني أبيات بكاملها من قصيدة الشاعر الفرنسي المجدّد، وان نبرة تلك القناة الحسناء ما زالت تتردّد في مخيلتي ... ولذلك لم أقل في ديواني انها مأخوذة !

(أخوك الياس)

***

بعد شهر على تسلّمي هذه الرسالة قرأت في جريدة كانت تصدر في بيروت تهجماً على الياس فيّاض من قلم أحد أدعياء الادب والفن يعيب فيه قصيدة النجوم ويتهم الشاعر الحسّاس بالسرقة والتقليد. لقد أذهلني ذلك التهجّم وتلك الإغارة لكوني واثقاً بأن معارف الناقد المستتر وراء امضاء مستعار هي معارف لا تتعدّى البسيط من الادب والنقد والمضحك ان الناقد أخذ الخبر عن المرحوم الياس ذاته ثم رفع عقيرته بالسباب والشتائم، وهي غالباً ما تكون شيمة الاديب المقصر العاري من الفن والعبقرية

ولكن الامر الذي يدعو الى الدهشة والعجب هو ان اديبنا الكبير الاستاذ امين الريحاني ترجم قصيدة النجوم الى اللغة الانجليزية دون ان ينتبه الى شيء . . . وقد لاقت ترجمة صديقي فيلسوف الفريكة استحساناً عاماً من ابناء هذه اللغة. وذلك لان الياس فياض سكب عليها شعوره فراحت تتراءى بين انامل المترجم العبقري في حلتين ساحرتين، حلة الشاعر اللبناني الرقيق، وحلة الاديب الفرنسي الظريف — سولي برودوم — الذي نفح الشعر العالمي بقصائد هي تماثيل خالدة في هياكل الارواح

الى ذكرى

الدكتور صروف

كان حضرة صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا قد تبرّع بمائة جنيه للمقتطف لتوزعها جوائز أدبية على الذين يفوزون في مباراة تقترح موضوعها ، احتفاء بذكرى الدكتور صروف ، واجتمعت لجنة التحكيم في يناير الماضي وأصدرت قرارها (المنشور في مقتطف فبراير صفحة ٢٤٤) ورغبت فيه الى الواهب ان يبقي هذا المبلغ من المال رهن عمل أدبي آخر رأت اللجنة ان يكون على غير أساس المباراة بأن يعهد الى كتّاب مختصين بكتابة فصول في موضوعات مختلفة وان يوزّع عليهم هذا المبلغ مكافأة لهم ، ثم تقوم ادارة المقتطف بطبع هذه الفصول في كتاب تهديه الى مشتركيها باسم سعادة الواهب لذكرى الدكتور يعقوب صروف» . ويسر ادارة المقتطف ان تذيع أنها تلقت من سعادة أسعد باسيلي باشا انهُ متبط بالنزول على رأي اللجنة . وقد شرعت الادارة في اعداد المعدات لهذه الفصول بارشاد حضرات اعضاء اللجنة وستوزع مجموعها هدية على حضرات المشتركين

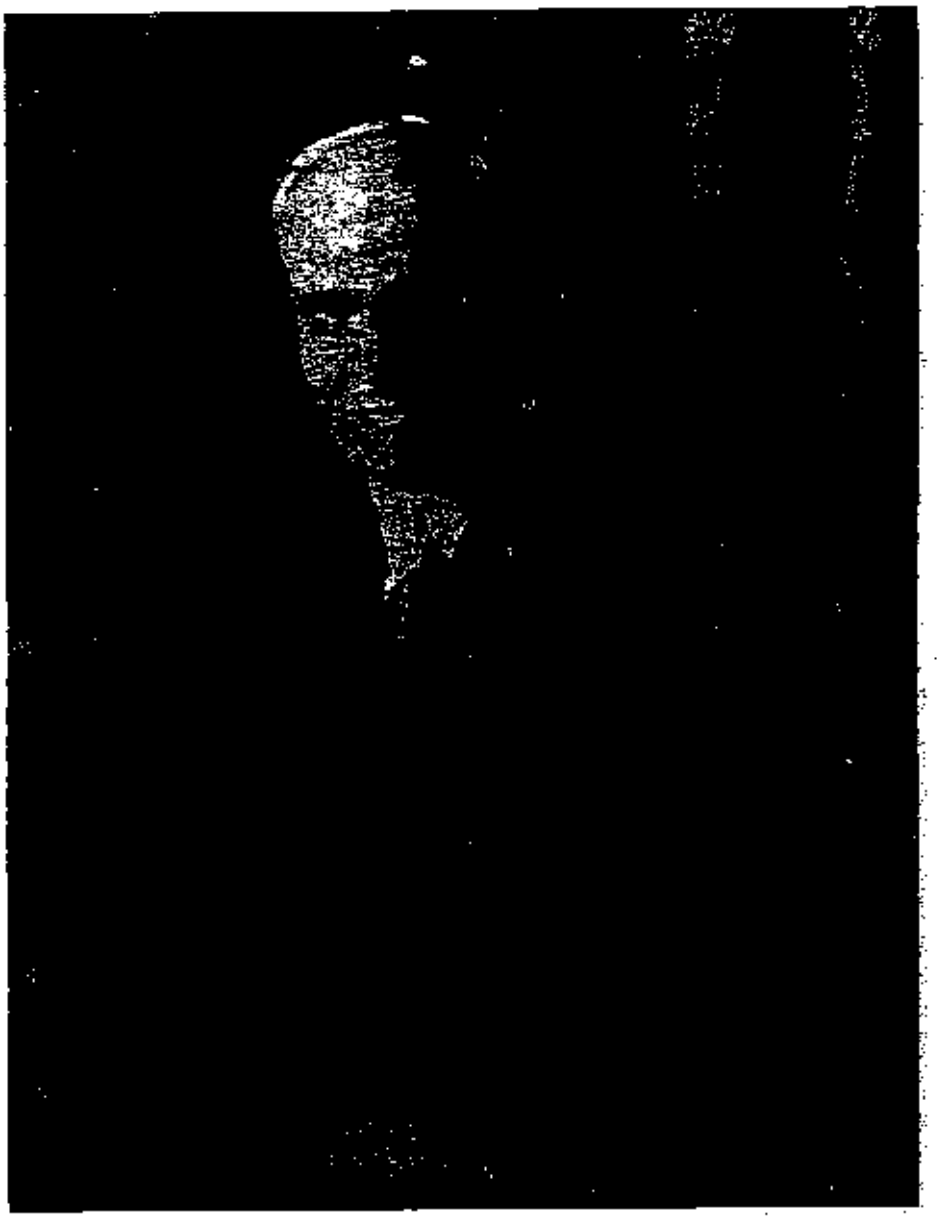

أسعد باسيلي باشا

صورة قلمية

اسعد باسيلي باشا

بقلم نقولا شكري

رجلٌ مثقف ، هادىء ، قوي الارادة ، واسع أفق التخيل شديد الملاحظة ، متسع الذكاء ، أوتي من رزانة العقل وقوة النفس ، وشدة الطبع ، وسعة الحيلة ، ما لم يرزق كثير

تقابله فتلقى رجلاً من الطراز الاول ، في العقد السابع من العمر ، نحيف الجسم ، معتدل القامة ، متواضع السمت ، تبدو عليه مخايل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون ان يتكلم ، على وجهه البالغ النبل الهدوء العجيب ، والرقة والحزم معاً ، يحدثك في صوت هادىء ، وعبارات سهلة ، فيبهرك بوفرة معلوماته ، لانهُ دائم الاطلاع على الحركات الفكرية في العالم ، فلا تفوتهُ بادرة من حوادث العالم ، وقد درس فلاسفة عصره وكتَّابه العظام ، من أميل زولا الى تولستوي . ذلك هو مجموع الخطوط الرئيسية التي تتألف منها صورة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا

وشخصية اسعد باسيلي باشا الى هذا كله فيها سهولة وفيها تعقيد ، وفيها جوانب لا تدق على الباحث ، وفيها جوانب اخرى تدق على المستقصي ، ولكنها في الحالين شخصية الجيل التي قلما تتكرر . وهي شخصية فيها ما يجتذب الاديب ، وما يجتذب الفيلسوف ، وما يجتذب التاجر ، لانها جمعت اليها انواعاً من الخصائص التي اتاحت لها ان تكون جذابة ، وان تكون مؤثرة في اولئك وهؤلاء

واني — مع عرفاني البالغ بهذه الشخصية الكبيرة — لن ازعم للقراء اني استوعبتها وتناولتها من وجوهها جميعاً ، لن ازعم ذلك فما هو بالهين ان يضم هذا الفصل اليسير خصائص ، وما هو بالامر الهين ان يكون البحث وراء هذه الشخصية وليد السرعة والايجاز ، ولكني مع ذلك سأتحدث عن اسعد باسيلي الاديب والباحث والتاجر . واني لأرجو ان اكون في

دراسته موفقاً بعض التوفيق ، وألاّ يدخل في روع احد اني أقرضهُ الثناء ، فما لشيء من هذا كله أتحدث عن اسعد باسيلي ولكني أتحدث عنهُ لانهُ كما أسلفت شخصية قلما تتكرر في جيل واحد . . .

ويطيب لي ان اتناوله من مرحلة شبابه ، تلك المرحلة التي اكتملت فيها اسباب التكوين لهذه الشخصية الممتازة ، فأقول ان اسعد باسيلي لم يكن من اولئك الذين يعيشون في ظل محدود ، وفي موطن محدود ، وانما كانت له اطماع الرجل الذي اتقبه الى خصائصه وفطن الى ما فيها من جلال ، وما لها من روعة ، فاتخذ منها مشعلاً لنفسه وكان هذا المشعل باهر الضوء ، رائع الشعاع . ثم كان من شأنه ان يمضي في كشف هذا الضوء وان تكون خطواته لا تعزفها ولا التواء

ولقد كانت مرحلة شبابه مقترنة بهذا البعث الهائل لتلك الرسالة الضخمة ، رسالة التجديد الشامل في بعض مراميه ، المتحفظ في كثير من اغراضه ، وقد تحمّل نصيبه من ادائها أيام دراسته في مدينة طرابلس الشام حين كان يتولى الاشراف على التعليم في مدرسة « مار الياس » كعضو بارز في الجمعية الخيرية الارثوذكسية ويراسل امهات الصحف في بيروت والقاهرة

***

واكبر الظن عندي ان تأثير هذه المرحلة كان التأثير القوي الفعال ، فهذه شخصية أسعد باسيلي قد بدأت تعبر الفضاء الرحيب ، متجاوزة حدود مدينة طرابلس ومتجاوزة مع ذلك حدود الطلاب الذين يهرهم هذا القائد الشاب

ونحن في هذه المرحلة حيال ناحيتين : تمثل الناحية الاولى في جهاده كاتب واديب وقف حياته لهدم التركيك من القديم . ولبث الآراء والمبادىء الجديدة في مجلة « الجامعة » التي تولى اصدارها الكاتب الاجتماعي الكبير المرحوم فرح انطون ففي وسع الذين يميلون الى مراجعة الابحاث الطيبة التي كانت تنشر في أثناء النهضة الاخيرة ان يطلعوا على نخبة من الموضوعات الفلسفية التي كان أسعد باسيلي الاديب يعلن فيها وتتشزر أيه في « العلم والدين » وما الى ذلك من الآراء الجريئة التي كان يجاري فيها مذهب الفيلسوف « سبنسر » ومذاهب غيره من الفلاسفة ويبني على احكامهم

وتتمثل الناحية الثانية في الحقبة القصيرة التي قضاها في تجارة الاخشاب مع شقيقه المرحوم انطونيوس باسيلي في طرابلس الشام . وأنها لناحية جزيلة الاثر في حياته ، فقد استطاع بمواهبه ، وبأعماله الحافلة بمشاهد الصدق والاستقامة ان يوقظ في بني وطنه عاطفة التوقير لمقامه التجاري

هاتان الناحيتان — ومكانة أسعد باسيلي منهما هي مكانته — قد أبقتا في شخصيته الجوانب التي أصارته فيما بعد رجلاً في الطبقة الاولى بين الرجال

واخذت شخصية أسعد باسيلي بعد ذلك تتجاوز البيئات الخاصة وتفرض نفسها على الحياة العامة من ذلك اليوم الذي أبحر فيه الى مصر مع مواطنه الاديب الكبير فرح انطون لاصدار جريدة يومية يبثان فيها آراءهما الجريئة ولكنهما لم يلبثا ان اختلفا على تفصيلات هذا المشروع فأفضى هذا الخلاف الى انصراف اسعد باشا عن الصحافة الى ميدان التجارة حيث برزت كفايته التجارية وأطلت على مصر من هامة الارز . وآثر فرح انطون ان يظل في ميدان الكتابة والتأليف ويسير فيه الى آخر الشوط

ونعتقد انهُ لو تخيَّر اسعد باشا وتتلمذ ان يكون ذلك الصحفي البحاثة المشتغل بالمباحث العالية لما كان أقل توفيقاً وربما كان نجاحه يعود على الجيل بنتائج شديدة النفع والاثر

***

اذن لم يسلك أسعد باسيلي سبيل العمل المادي إذ ذاك بعقلية محدودة كأكثر المشتغلين بالتجارة ، وتخليه عن سبيل العلم والادب انما يرجع الى مذهبه الوضعي وعقيدته التي لا تؤمن الاَّ بالحقائق الملموسة . على ان مذهبه الوضعي باعتباره من رجال الاعمال لم يحل دون تدينه وصدق ايمانه وهو ممن يرون « ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض وأن هناك حقيقة أساسية قام عليها بنيان الاديان »

اما فنه في الكتابة فمع انهُ كان محتفظاً فيه بشيء من الرشاقة الاَّ انهُ اصبح مسبوقاً بطائفة من الكتاب المحدثين الذين انجبهم تطور العصر . ولكن رسائله ستبقى على الزمن لانها من صميم المثل الاعلى . . . وقد كان كاتباً متنوّعاً كثير الابواب ، جم الاحاطة ، بالغ التفوق ، فقد كتب في أدق مسائل الاجتماع ، وأعمّ مسائل الحياة ، فلهُ رسائل قيمة في العلاقات الزوجية ، وبحوث أدبية شائقة . ولما تخلى نهائيًّا عن الاشتغال بالدراسات الادبية والعلمية الرفيعة ، وأقبل على تجارة الخشب ، أحرز في الزمن القصير مقاماً ونفقة واتساعاً في الاعمال لا تتوافر لغيره في الزمن الطويل

***

أقبل أسعد باشا على تجارة الخشب في الاسكندرية والسوق التجارية ممتلئة بجبابرة التجار ودهاتهم . ولكنهُ لا ينقصهُ النشاط الذي يكافح به ، وعرف كيف يقاوم العوامل العديدة التي تعمل على محاربة التاجر الناشيء وهزيمته ، فقد وقف وحده غير مبال بضروب النضال التي

حُشدت لمقاومته ، واستطاع ان يهزم خصومه بأسلحة أشد من أسلحتهم ، تساعده في ذلك ارادة صلبة وخبرة واسعة وذكاء متوقد

وقد ظلّ يشق طريقه بين الصفوف حتى سيطر على سوق الخشب وربما قامت واردانه مقام الضعفين من واردات سائر التجار . وحسبنا ان نعترف بأننا لا نستطيع الاشارة اليه دون ان نلقبهُ بملك الخشب

وبعد ، فقد تمتد الطريق وتطول أمام الذين يتمنون الوصول الى الغاية . ولكن الذين لا يكلون ولا يقفون يخلفون من ورائهم خطًا مستقيماً هو سبيل النجاح في الحياة ، هو الخط نفسه الذي يخلفهُ البطل بين الصفوف ، دليل جهاده المقرون بالفوز ، وهو الخط الذي يتركهُ في التربة محراث المزارع مبشراً بالانتاج

***

قلنا ان الطريق تمتد وتطول أمام الذين يتمنون الوصول الى الغاية . ونضيف الى ذلك ان الاقدام رأس النجاح ، وفي أمثال الاميركيين المعاصرين ان فرصاً على المرء ان يخاطر وان عاقبة هذه المخاطرة محمودة لانها تعلّم الجرأة ، والتاجر الجريء موفور النجاح لان لا جرأة بلا بصيرة

وما زال أسعد باشا رغم مشاغله التجارية الكبيرة يعطف على الفكر والادب . فمن عاداته ان يأوي بعد الغداء الى مكتبته الانيقة ليعيش فيها بين كتب الادب والاجتماع ، ثمرة أذهان جيل او يزيد تحوطهُ وتشارفهُ . فلا يحرم من الجو الذي لا يموت فيه الذهن ، ولا تصدأ فيه القريحة ، وفي هذا ولا ريب عزاء الادباء بعد اعتزاله اياهم

ومن الحق ان نقول ان العمل التجاري لم يمنع هذا الرجل المفكر من ان يطل على الناس الحين بعد الحين . ولم يحل بينهُ وبين عرض الصور التي تلوح في ذهنه على الجمهور ، واخراج ثمرات قريحته كلما رأى الفرصة سانحة والزمن مواتياً ، فقد قرأنا لهُ في العام الماضي بحوثاً طريفة في الازمة الاقتصادية بعث بها الى جريدة المقطم من اوربا وهكذا أقام الدليل على انهُ لم ينس الناس ولم ينصرف عن الجمهور شأن كثيرين من أهل الفكر بلغوا الذروة في التجارة ، أو قعدوا مقاعد الحكومات ، وتولوا الوزارات والرئاسات ، فقد كان لورد بكونسفيلد على رأس الوزارة الانجليزية فلم يمنعهُ منصبه على خطورته ان يضع ذهنه في كل مكتبة ، ويعيش في خزانة كل قارىء فينا هو ينشىء المحالفات ، ويوقع المعاهدات ، ورأس الوزارات ، اذ هو طارح عنهُ كل ذلك عائد الى حجرته ، ليغيب في تفكيره ، ويأخذ في وضع رواياته ، ثم نحن لا ننسى ايضاً

ان جوته كان وزيراً ورئيس بلاط دوق فيمار فما كان ذلك ليقتل فيه الروح المضطرمة في جانحته ، والنزعة الفكرية التي تتقد في فؤاده . ثم لا ننسى كذلك ادباء العرب الذين عاشوا في قصور الخلفاء ، وولوا الولايات ، فابوا الاّ ان يظلوا مع ذلك ادباء وكتّاباً اكثر منهم ولاة وحكومين ...

وأسعد باسيلي باشا قد شق طريقه الى المجد باقدامه وشجاعته ، وهو قدوة صالحة لمن يبغي ان يسلك سبيل التجارة او الاقتصاد ، وهو يجمع الى مواهبه وصفاته الممتازة حبًّا للخير وللانسانية ويرى في الاحسان وسيلة تقوى بها ارادته في العمل ، وحياة الضمير في دائرة العمل المادي أقوى منها في سائر الاعمال الاخرى ، فهو أريحي كريم ، والتاجر الكريم عنصر غريب في أهل صناعته ، لان اكثر التجار يستمسكون بالاخلاق التجارية في الحياة العامة لانهم يدخلون أموالهم في الدفاتر والسجلات ولعلهم يرون خروج شيء منها ضرباً من التكلف والمشقة وفساد النظام . ولكن المبرات التي يخرجها التاجر من فضل ارباحه هي وسيلة جميلة من وسائل الزيادة فيها ومباركتها ، وانت ترى روكفلر الاميركي ملك المال ، قد كان لهُ من ملايينه العديدة غنى عن التماس حب المساكين ، واكتساب قلوب المنكوبين في الحياة ، لان لهُ متاجر ضخمة لا تعد وأموالاً مركومة لا تنفد

ولكن الحياة لا قيمة لها اذا خرج الانسان منها ولم يستطع ان يكتسب قلباً واحداً من قلوب هذه الارض ، ولو كان روكفلر هذا قصر عنايته على ماله وثرائه ، فلم ينشىء الملاجىء والمعاهد والمستوصفات والجامعات ، ولم يخرج من دفاتره جزءاً كبيراً مما دخلها ، لخرج هو الآخر روكفلر فقط ، ولكن روكفلر عرف معنى الحياة وأدرك قيمة المال في نفسه ، فاشترى بكل ثروته كلمة واحدة اراد ان يذهب بها الى الابد وهي كلمة « روكفلر محسن »

***

وعلى هذا المبدأ سار اسعد باسيلي فهو ينفق جزءاً كبيراً من ارباحه على الفقراء والمحتاجين واعانة الاسرات التي ادركها البؤس ، فلم يلبث ان اصبح محبوباً من الناس ، جميل الذكر بين الطبقات ، وكان من ذلك ان انتخب رئيساً للمجلس الطائفي للروم الارثوذكس المصريين ، ورئيساً للجمعية الخيرية السورية الارثوذكسية ، ووكيلاً للغرفة التجارية المصرية ، وقاضياً محلفاً بمحكمة الاسكندرية المختلطة ، ثم عرفت الحكومة المصرية مكانته السامية ، فطلبت الى مجلس الوصاية الموقر الانعام عليه برتبة الباشوية الرفيعة ، فأصدر المجلس امره بهذا الانعام السامي

وسبق آخر الامر ، ان أعترف اليك ايها القارىء بانني لا أعرف رجلاً أعذب حديثاً ، ولا أبعد شرًّا ، ولا أقرب خيراً ، ولا أحلى خلقاً وروحاً ، من أسعد باسيلي باشا

تقدم الري بمصر

في العصر الحديث

لمعالي حسين سري باشا

اقتطف «المقطم» ما يلي من المختصر النفيس الذي وضعهُ معالي حسين سري باشا وزير الاشغال:

ثمَّ بانشاء القناطر الخيرية وضع الحجر الاساسي في بناء الري المستديم في الوجه البحري وأمكن بواسطتها امداد هذه الاراضي بما يلزمها من الماء مدة الصيف مما ساعد على تحويل المساحات الحوضية لتروى بطريقة الري المستديم وكانت مساحة الاراضي التي تزرع فيها بعض المحاصيل الصيفية لا تتعدى مليوني فدان وقت البدء في بناء القناطر فزادت بعد ذلك الى ما يربي على ثلاثة ملايين تتمتع بنظام الري المستديم ولا يخفى ما كان لهذا التوسع من اثر في زيادة مقدار المحاصيل وما ترتب عليه من ازدياد موارد البلد وازدياد ثروتها بارتفاع ثمن اراضيها وبذلك تكون الجهود المتواصلة التي بذلها المغفور له محمد علي باشا قد أثمرت وتحقق الامل الذي تطلع اليه. كذلك كان انشاء ترعة الابراهيمية الخطوة الاولى في ادخال نظام الري المستديم في مصر الوسطى اذ لما لمس سكان هذه المناطق أثر محصول القطن في الثروة الزراعية عملوا على زراعته في بعض مساحاتهم الحوضية وكانوا يحيطون هذه المساحات بجسور تقيها طغيان الماء عليها مدة الفيضان ويرفعون ما يلزمها من الماء بالآلات اما من النيل وإما من الآبار الارتوازية. ومن ثمَّ اشتد العمل جديًّا الى تحويل جانب من اراضي مصر الوسطى الى الري الصيفي فجاءت بأطيب الثمرات. واليكم نجد بين سطور الجدول الآتي ما يكفي للتدليل على مقدار ما جنتهُ البلاد من الربح منذ أن أدخل المغفور له محمد علي باشا زراعة القطن في مصر بازدياد مقدار هذا المحصول سنة بعد اخرى

السنة	قنطار	بالة	السنة	قنطار	بالة
١٨٢٠	٩٤٤	٢٣٤	١٨٨٠	٢٧٩٢٠٠٠	٦٩٨٠٠٠
١٨٣٠	١٦٨٦٧٥	٤٢٦٦٩	١٨٩٠	٤١٦٠٠٠٠	١٠٤٠٠٠٠
١٨٤٠	١٩٣٣٠٧	٤٨٣٢٧	١٩٠٠	٦٤٤٠٠٠٠	١٦١٠٠٠٠
١٨٥٠	٣٨٤٤٣٩	٩٦١٠٠	١٩١٠	٧٥٠٠٠٠٠	١٨٧٦٠٠٠
١٨٦٠	٥٩٦٢٠٠	١٤٩٠٥٠	١٩٢٠	٦٠٣٦٠٠٠	١٥٠٩٠٠٠
١٨٧٠	١٩٦٦٠٠٠	٤٩١٥٠٠	١٩٣٠	٨٢٧٦٠٠٠	٢٠٦٩٠٠٠

وقد بلغ محصول القطن في عام ١٩٣٦ ما يزيد على تسعة ملايين من القناطير وهي اكبر مقدار أنتجتهُ الاراضي المصرية منذ عهد ادخال زراعته الى الآن . على ان زراعة الاراضي مدة الصيف تتطلب ريها في هذا الوقت الذي تقل فيه تصرفات النيل ويعجز ايراده عن ان يمدها بحاجاتها من الماء لذلك كان على القائمين بامر التوسع في كل مرحلة ان يفكروا في توفير الماء اللازم للمساحات الصيفية ومن هنا عادت فتجددت فكرة التخزين وحجز مقادير من ماء الفيضان الزائد على الحاجة والاستفادة به مدة الصيف وسبق ان قلنا ان أول من فكر في تخزين الماء هم ملوك الاسرة الثانية عشرة وبدت هذه الفكرة من بعدهم لمحمد علي باشا فأمر مهندسه لينان باشا بدراسة هذا المشروع

وفكر هذا في منخفض بحيرة موريس القديم غير انهُ عدل عن هذه الفكرة لما رآهُ من التكاليف الباهظة التي تلزم لتنفيذها . ثم رأى اقامة قناطر عند جبل السلسلة لتخزين الماء أمامها الا أن ضعف القناطر الحجرية بعد بنائها لم يشجعهُ على المضي في تنفيذ هذه الفكرة ولقد تجددت فكرة تخزين الماء عند جبل السلسلة مرة أخرى ثم عاد الرأي فانحرف عن هذا الاتجاه الى منخفض وادي الريان وهكذا الى ان استقرَّ على استخدام مجرى النهر نفسه للتخزين وأخذت الحكومة في بحث هذا الاقتراح وعهدت الى لجنة من المهندسين الاخصائيين باختيار الموقع الموافق لهذا الخزان فقررت اللجنة بعد دراسة مجرى النيل بين حلفا والقاهرة — ان أنسب موقع يبنى عنده هو شلال اسوان بحري جزيرة أنس الوجود وكان تصميم السد في بادىء الامر يسمح بالحجز عليه الى منسوب ١١٦ متراً وتبلغ سعة الخزان عند هذا المنسوب نحو ثلاثة آلاف مليون من الامتار المكعبة الا ان الرغبة في المحافظة على معبد أنس الوجود الذي يقع في حوض الخزان حالت دون ذلك واقتصر في بناء السد الذي تمَّ في سنة ١٩٠٢ على جعل منسوب التخزين ١٠٦ امتار وبذلك لم ينشأ الخزان الا ليسع مليارا واحداً فقط

وللانتفاع بماء التخزين رأى رجال الري في ذلك الوقت ان يعملوا على رفع منسوب ماء النيل عند فم ترعة الابراهيمية ليتمكنوا من اعطاء مصر الوسطى نصيبها من هذا الماء مدة الصيف . وكانت هذه الترعة تتغذى من النيل بدون قناطر تساعد على رفع الماء أمامها للدرجة التي تكفي لامداد الزمام المترتب ريه عليها بالماء اللازم لهُ ولمعالجة هذه الحال استقرَّ الرأي على اقامة قناطر على النيل عند اسيوط وتمَّ بناء هذه القناطر سنة ١٩٠٢ وكذلك أمكن لترعة الابراهيمية ان تأخذ نصيبها من الماء مدة الفيضان والصيف دون ان يكون لمناسيب النيل تأثير كبير فيها

وفي سنة ١٩٠٣ تمت اقامة قناطر زفتى على فرع دمياط لتغذية أراضي شمال مديرية الدقهلية والجزء الشرقي من الغربية في الفترة الحرجة وقت طلي الشراقي واشتداد الطلب على الماء

واستمدت الجهود بعد هذه المرحلة الى الغاية بتحسين وسائل الري في أراضي مصر العليا التي تروى بطريقة الري الحوضية ولما رؤي ان أراضي مديرية قنا تحتاج الى تحسين حالة ريها فكّر في اقامة قناطر اسنا على النيل لترفع أمامها ماء الفيضان بحيث تمكن لمصر هذه الحياض وبدىء في اقامة هذه القناطر سنة ١٩٠٦ وتمّ بناؤها سنة ١٩٠٨

ولقد جرت العادة في الماضي ان يقام سنويًّا سدان من التراب في كل من فرعي النيل أحدهما بالقرب من ادفينا والآخر عند فارسكور ثم أبطلت اقامتهما في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر حتى كانت سنة ١٩٠٠ حيث أعيد انشاء السدين ومنذ هذا التاريخ درجت مصلحة الري على ان تقيمها سنويًّا لمنع دخول ماء البحر المالح الى المجرى وتلوث مائه بها ولتمكن من ان تحجز أمامها ماء الرياح الذي يقسرّب من الاراضي الزراعية للانتفاع به في الري عند اشتداد الطلب . ويبدأ العمل عادة في انشاء السدين في ديسمبر ويتم قفلهما في أواخر فبراير او أوائل مارس وتختلف هذه التواريخ باختلاف تصرف النهر الطبيعي ويبنى حسابها على قاعدة قفل السدود قبل التاريخ الذي يجب ألا تمر بعده قطرة من ماء النهر الى البحر او بمعنى آخر التاريخ الذي يقابل البدء في تفريغ خزان اسوان ويستمر كل منهما قائماً حتى يقطعا عند حلول ماء الفيضان في يوليو او أغسطس

ولقد دعت قلة الايراد الذي أتت به السنون الشحيحة في أوائل القرن الحالي الى إعادة التفكير في تخزين مقادير أخرى من الماء واتجهت الانظار الى خزان اسوان للعمل على رفع منسوب التخزين به لعله بذلك يسد النقص في الايراد الطبيعي للنهر عن احتياجات الاراضي الزراعية . وانتهى هذا التفكير الى البدء في تعلية خزان اسوان الاولى التي تمت سنة ١٩١٢ وأصبحت سعة الخزان بعدها حوالي ٢٥٠٠ مليون متر مكعب وقد استخدمت كمية الماء الاضافية في تحسين حالة الري وفي التوسع في جانب من الاراضي البور في الوجه البحري ولما تم الانتفاع بهذه الزيادة كانت مساحة الاراضي المنزرعة بالدلتا ٣٤٣٠٥٠٠٠ فدان ومساحة الاراضي التي تروى ريًّا مستديماً في مصر الوسطى ١٤٠٥٠٠٠ فدان وبذلك يكون قد أمكن الانتفاع بماء التخزين كله عند اسوان في استصلاح نحو ٣٠٠٠٠٠٠ فدان من اراضي الدلتا وفي تحويل حوالي ٤٥٠٠٠٠٠ فدان من حياض مصر الوسطى الى الري الصيفي . وفي سنة ١٩٣٠ تمّ بناء قناطر نجع حمادي على النيل في وسط المسافة تقريباً من قناطر اسنا الى قناطر أسيوط وذلك لضمان الري الحوضي في مديرية جرجا ولامكان تحويل الاراضي الحوضية بمديرتي اسيوط وجرجا الى الري المستديم بعد اتمام اعمال التخزين . وتمّ حفر ترعتين تأخذان من امام هذه القناطر أحدهما بالبر الايسر للنيل وهي ترعة الفؤادية والاخرى بالبر الايمن وتسمى ترعة الفاروقية

حديقة المقتطف

رولا

من أروع قصائد الفريد دي موسيه

ترجمة فابكس فارس

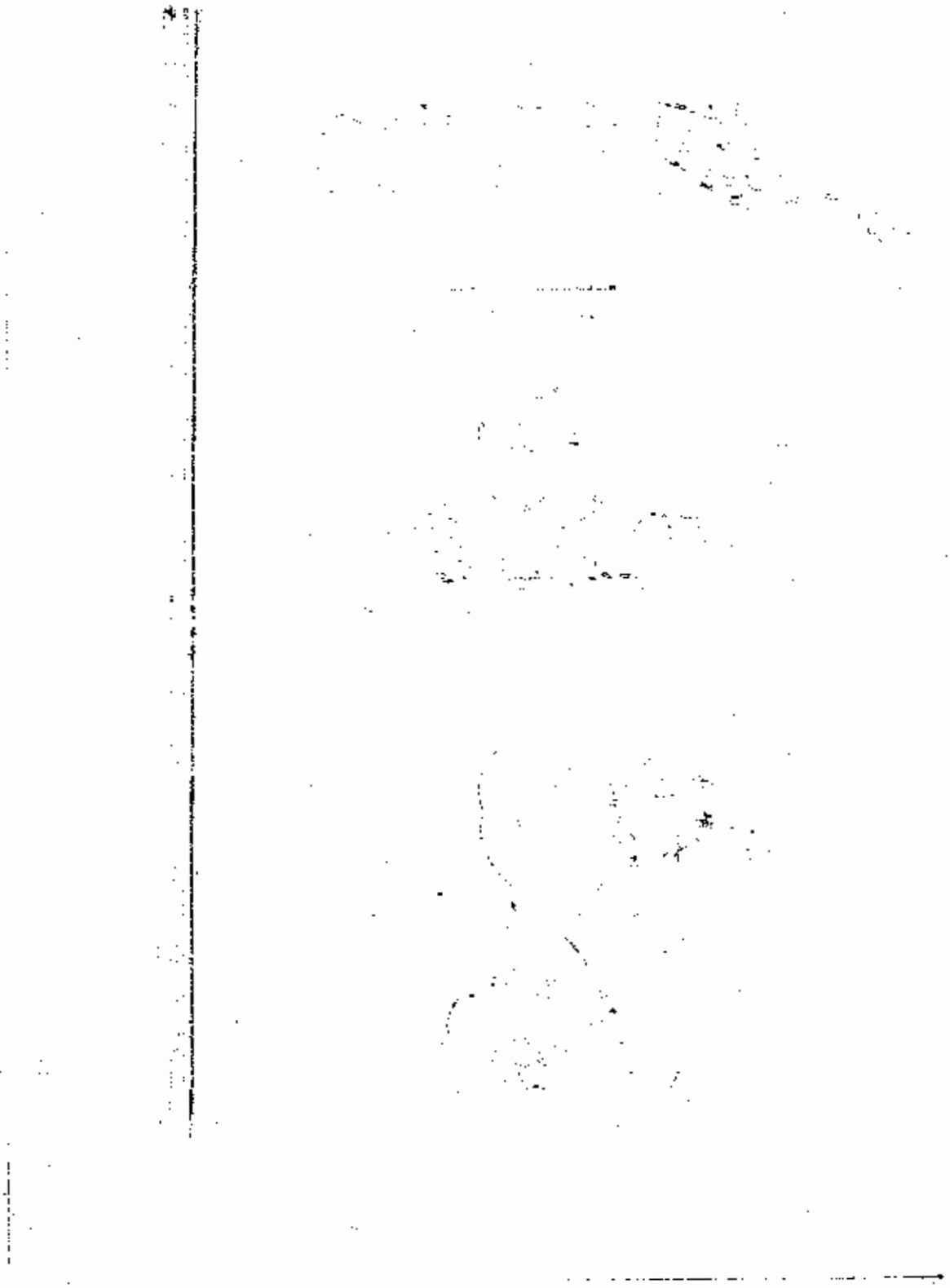

رولا

من أروع قصائد الفريد دي موسيه

ترجمة فليكس فارس

تمهيد

إنَّ الفكرة والبيان لمتزان على كل كاتب ، وقد تكون غيرته على بيانه أشدَّ من غيرته على تفكيره ، والكاتب يبدي آراءهُ وأحكامه أقوالاً في كل مجال فلا يلوي عليها في حين أن صفحةً تسجلها يراعته تسقط عن شخصيته سقوط الجنين عن أحشاء أمه ، فكل ذي بيان حريص على بيانه حرص الحياة على مظهرها ، وما تدرك الحياة نفسها الاَّ على مدارج شخصيتها

إنَّ في بذل البيان لتفكير الغير كثيراً من التضحية لكاتب اندغم تفكيره في بيانه ، لأن هذا البذل يستلزم إقامة حاجز بين القوة المبدعة مما كمن فيها تذكاراً وتنسيقاً ، علماً بالاستقراء وعلماً بالحس الباطن ، وبين قوَّة التعبير تصويراً وتلويناً وتنغيماً . وفي هذا الفصل من الجهد ما لا يدركهُ الاَّ من يعانيه . ولا يعاني هذه المشقة كل من يقتحم الترجمة اطلاقاً ، فان من الترجمة ما لا تتعدى الاقتدار على النسخ وليس هذا النوع ما نعني ، فالمترجم الذي ينقل عن لغات الغرب كتاباً يبحث صناعة او مسألة اقتصادية لا يكون عملهُ اذا هو امتلك ناصية اللغتين الاَّ عبارة عن كتابة ما سطَّرتهُ الريشة من الشمال الى اليمين بكلمات يخطها القلم من اليمين الى الشمال ولمثل هذا العمل قيمته ولا نكر غير انهُ جدّ بعيد عن مجال البيان الأدبي ، وليس فيه غير أثر الجهد والاطلاع والدقة اذ لا يمكنهُ ان يتضمن أشياء من شخصية المترجم الادبية

شتان اذاً بين من يترجم ومن يسلخ انشاءه عن تفكيره ليكوِّن هيكلاً سويًّا من البيان تحتله روح مؤلف مبدع فنان

لك ان تعهد الى أي مهندس شئت بان ينقل لك خارطة مهما تعددت خطوطها

وتشبت تماريجها ، فانهُ ليستعين بالمسطرة والبركار فيأتيك بنسخة عنها لا تفرق عن الاصل بشيء ، ولو عهدت الى عشرة مهندسين بهذا العمل لأتاك كل واحد منهم بنسخة لا تفرق عن نسخ الآخرين . ولكنك لن تصل الى النتيجة نفسها اذا أنت عهدت الى رسامين اثنين برسم صورة انسان او حيوان او زهرة او منظر من مناظر الطبيعة . ذلك لان رسم الجماد يستلزم العمل بصناعة ثابتة الاصول ورسم ما تتجلى فيهِ الحياة يستلزم العمل بالفن ، وما الفن الا قوة متغلغلة كالحياة نفسها في أعماق مجهل الفنان نفسه أغوارها

ناقل المعلومات الوضعية والقصص والاحاديث العادية من لسان الى لسان مترجم كلمات بكلمات أما ناقل البيان الفني والشعري ففنان وشاعر يعير بيانه بلغته ويتنازل عنهُ لتفكير عبقري يستحق أن يُسكت الناقلُ تفكيرَهُ أمامه ويطوي لديهِ شراع خيالهِ واهامه

وبعد ، فهذا تعبير بالعربية عن قصيدة من أروع قصائد الفريد دي موسه ان لم تكن اروعها جميعاً ، تصدّتنا بالهامها وفنها فانتحينا ايرادها بالعربية ناثرين نظيمها معرضين عن قوافيها ، اذ لو اردنا تقييدها بالنظم العربي لأفضنا الى غموض الاصل غموضاً آخر يُبعد الشقة بين إلهام موسه وبيانه ، ونحن باعتمادنا النثر كنا اقرب من الشاعر نفسه الى إلهامهِ وشاعريتهِ

لاح لبعض كبار كتّابنا ان لا فائدة من ترجمة الشعر لانهُ قائم على عناصر لا يمكنها اجتياز حدود لغتها للدخول في حدود لغة اخرى ، ونحن مع اعترافنا بما للنظم من ميزة لا ننكر ان الوزن والقافية هما اهم عناصر القصيدة بل قد تتضاءل فيهما حتى ليصبحا في حكم المعدوم في القصائد التي يسودها الشعر العالي وروعة الموسيقى الفنية في إحكام ألفاظها . فانك لو قرأت لموسه صفحة من انشائهِ المرسل لتحس بالهزّة نفسها التي تستولي على مشاعرك حين تقرأ أجمل قصائده

وهنالك ظاهرةٌ أخرى تدلك على ان ما يشجيك من مباهج القصيد ليس موسيقى الساكن والمتحرك في التفاعيل او (التكّ والتمّ) بتعبير آخر بل هو انتظام الالفاظ في سلك البيان وتلاؤم التبرات ، وهذه الظاهرة تتجلى لك في طريقة إنشاد

الفنانين للشعر فهم لا يقرأونهُ سواءٌ أعربيًّا كان أم أفرنجيًّا على الطريقة القديمة التي تدخل التفاعيل الى الاذن كانها نقرات الدفوف بل يلفونهُ بالمد والقصر تبعاً لموسيقى النغم الكامنة في النظم متجاوزين حدود القوافي ليشعروك بروح القصيد دون تفاطيعه

ولو انك سمعت ملقياً من كبار فناني الفرنجة ينشدك قصيدة فانك لا تميّز لاول وهلة هل ما يلفيهِ من المنظوم او من المنثور

لذلك لا نرى ما يراه البعض من الاستغناء عن ترجمة القصائد الخالدة من اللغات الاجنبية الى العربية بحجة انها تفقد ميزانها وروعتها ، فاننا نرى بالعكس ان المترجم اذا ملك ناصية البيانين يمكنهُ ان يزيد في جلاء القصيدة وجمالها بتوجيه موسيقاها وسرابيها توجيهاً اقرب الى الفن المطلق من توجيه المؤلف نفسه . لان المؤلف الناظم قد اكرهتهُ الاوزان والقوافي على مجاراة قيودها

ان القريد دي موسه لا تدر من تسلط على الالفاظ فانقادت له بأوزانها وقوافيها ، ومع ذلك فقد وأيناه في قصيدته (رولا) يضطر احياناً الى الانقياد لاوزانه وقوافيه فتتحكم بألفاظه وتجره الى ترسمها بخطوات تخرجه عن سبيله ، وكنا نحن غير مقيدين الا بفكرته وعواطفه وأسلوبه ، فأمكننا ان نرجع خطواته التائهة الى مواتيها وما نحتاج الى مثل هذا الجهد عندما نترجم من نثره ونثر غيره من أرباب الفن الخالدين

ويلوح لنا ان اللغة العربية بما فيها من مرونة والفاظ موسيقية أليق من اية لغة باستيعاب فنون الامم جميعاً ، ذلك لاننا نقرأ ما يترجمهُ الفرنجة عن لغاتهم وعن لغتنا ونشعر بتمرد الاصل بغالبهُ المترجم فلا يتوصل الى دمغه بطابع لهُ . وما نشعر بمثل هذا القصور عند ما نطالع ترجمة كبار كتابنا

لقد حاولنا أن ننقل قصيدة رولا فأعرناها ياتنا واذا كان توفيقنا لم يتعد حدود اقتدارنا ، فحسبنا اننا اقتحمنا مسلكاً غير معبّد لن يصعب على عاقرتنا تذليل صعابه

الاسكندرية ابريل ١٩٣٨ فليكس فارس

رولا

مهداة الى محمود تيمور

— ١ —

أيشجيك الزمان الذي كانت الارض فيه مسرحاً للسماء تتقصّ بطفلات الآلهة آلهة الاساطير ، حين نفرت الزهرة من احشاء الغمر وهي تنفض بلل دموعه وتشبّ ناقصة ضفائر شعرها لتُسرع الدنيا بلواتحها . . .

أيشجيك الزمان الذي كانت فيه الحور الهائمات تداعبنّ شعاع الشمس طافرات بين ازاهر الندران متحرّشات بأرباب الحقول المتراخين تحت ظلال الغاب ، حين كانت الينابيع ترتعش لقبلات الاله الذي انقلب على ضفافها رُجساً تديّا ، بينما كان هرقل الجبّار المدثر بجباءته الدموية يمد على الارض وارف عدله ، وبينما كان آلهة الغابات يطلّون من بين أغصان السنديان الخضراء المتأودة ويرددون أغنية السابلة بأصداء الصفير .

ذلك زمن كانت الالوهية فيه تتفاعل في كل شيء حتى في صميم آلام الناس ، فكانوا يعبدون ما يحزون في هذا الزمان .

ذلك زمن كان له اربعة آلاف إله ولم يكن فيه جاحد واحد : زمن تمتع فيه الكل بالسعادة فما حرم منها الا (بروموته) شقيق ابليس الهابط بهبوطه .

لقد مضى ذلك العهد فتبدلت السماء كما تبدلت الارض والانسان ، فاذا مهد العالم يستحيل له لحداً ، وقد هبت أعاصير الشمال على أنقاض روما فكفّنتها بأوشحتها السوداء .

***

أيشجيك الزمان الذي توارى فيه عصر البرابر مخلّفاً عصراً ذهبيّاً شهد العالم القديم يصدع لحده ليهبّ حين هبّ العازار من قبره مطلاً على الدنيا وقد التمع جبينه بأنوار الشباب

ايشجيك الزمان الذي كانت اغانينا القديمة فيه تنشر اجنحتها الذهبية لتجول في آفاقها الساحرات ، حين كان كل ما لنا من صروح ومعتقدات يتشح بياض الكارة والطهر حين كان كل شيء يُبعث من لحده بعد ان بسط عيسى عليه راحته ، حين كان بيت الكاهن وقصر الامير يرفعان كل على جبهته صليباً يمد بذراعيه الى الآفاق ؟

أيشجيك زمن كانت فيه بيعة السيدة في كولونيا وبيعة الحواري بطرس في ستراسبورغ تنتصبتان كأنهما اكوام صخور جامحة في خشوعها الى أناشيد الشعوب تسبح الله مستقبلة طلائع العصر الجديد ؟ ذلك زمان كان للحياة فتوتها فيه وكان الموت فيه راسياً على الرجاء .

***

أي ، عيسى ، ما أنا من تحملهم خطواتهم المرتعشة الى معابدك لتأدية فروض الصلاة . لست ممن يتسلقون مرتقي الجلجلة لينطرحوا امام صليبك مقبلين اقدامك الدامية ، انا ممن يلبثون وقوفاً امام ابواب هيا كلك المقدسة ، بينما تهب المدائح على جماعات المؤمنين فتلويهم كما تلوي الرياح سأودات القاب ، فيرتمون على الركب مستمين كلمات التسليم لمشيئة الله

أنا لا أؤمن بكلمتك ، أيها المسيح ، وما أنا الا قادم متأخر يقحم عالماً تجاوز حد الهرم ، وهل يلد جيلٌ لا امل له الا جيلاً وقحاً لا خشية في قلبه ؟ لقد أقفرت سماء هذا الزمان فأفلت كواكبها ونجومها وما يسود الا الصدف الصماء على من انتفضوا من اوهامهم وهم يندفعون شتيتاً مروّعاً على سراكض الاشباح

إن الروح القديمة تهب على ردوم العالم مشوّهة ما في السماء من اجناد قاذفة بهم الى أعمق الاغوار

لقد تخلخلت مسامير صليبك تحت مستندك عليه ، وزلزلت الارض تحت جدران مدفنك ، فأين مجدك ايها المسيح . ان مجسمك قد استحال رماداً على صلبانا السوداء ..

***

أستميحك ايها السيد أن أضع قبلة على هذا الرماد ، أنا ابن هذا العصر الجاحد ، دعني أمسح دموعي على هذه الارض الباردة التي وهبتها الحياة بموتك وها هي ذي صائرة بعدك الى الموت

من سيعيد اليها حياتها ، وقد كنت احييتها بدمك الطاهر . من سيأتي الى العالم مرة اخرى بما اتيت به ، من سيعيد الينا الشباب نحن ابناء الامس المثقلين بأوصاب الشيخوخة والهرم . وحال العالم اليوم كحاله يوم ولدت وهذا الجيل يتوقع ما توقعهُ ابناء عهدك ، على ان ما فقدناه نحن قد تجاوز ما فقده الاولون

إن الازار هذه الازمان مسجّى في قبره الفسيح ، فأين المخلّص يدحرج الحجر عنهُ ؟ اين الحواري بولس الشيخ يقف كما كان يقف بين ابناء روما حين كانت عيون الشعب معلقة بأطماره ؟

أين نحن من علية العشاء السري ومن سراديب أوائل المؤمنين ؟

من منا يحمل هالة النور على جبينه . وعلى اقدام من ستنكسب عطور المجدلية ؟

في أي جوّ سيصدو الصوت المخفت لأصوات البشر ، من منا سيرقى مرتبة الالوهية ؟

لقد عادت الارض الى هرمها وقديم أنحطاطها فهي ترتعش اليوم كما ارتعشت حين ظهر يوحنا في الصحراء وهتف هتفتهُ التقديسية ، غير ان الارض المحتضرة احست في ذلك العهد بالمخاض لتدائه وتحرك في احشائها عالم جديد

أفليس عهدنا كعهد كلوديوس وطباريوس ، وقد أخلق الدهر كل شيء وارتوى كيوان من دماء ابنائه . لقد تعبت الانسانية من توليد الآمال ، وهذا ضرعها يتدلى خاوياً لكثرة ما أرضعت فهي الآن ماجية تطلب الراحة في عقمها

— ٢ —

وكان جاك رولاّ أصلّ فاسق في باريس : في المدينة الجميلة بين مدن العالم بالدفق رذائلها وابتذال فحشائها . وما لاح بين اعمدة مواخيرها ولا أنارت مصابيحها الخاسئة ولداً عربيداً كرولاّ على موائد ميسرها وولائمها

وما كان لرولاّ من قائد غير شهواته وقد أسلم لها زمام حياته وهي تنساب أمامه طليقة كقطيع نام ضنهُ راعيه ، فأصبح يتطلع الى أمامه كوسنان ينظر الى ذاهبات الماء في الغدير

وانحصرت حياة رولاّ في شهواته فاستقرت في جسده كنزلاء فندق سادهم السكر يتلهون تارة بتخديش الجدران وتحطيم الأسرة متاوهين في الظلام متمازقين

كالحآذر والمصارعين ويتجمعون تارةً متماطين الكؤوس متناشدين كسرب الطيار دفعتهم الرياح الى شجيرة مزهرة في أرض قاحلة

وكان والد رولاً وهو من صعاليك الباهاء ربى ولده تربية من سيرث ميراثاً ضخماً وقد تامى إنهُ بدَّد هو نفسه اكثر من نصف ثروته

ووجد رولاً نفسهُ في ليلة من ليالي الخريف سيداً يتولى زمام نفسه وهو لا يحسن صنعة ولا يعرف فنًّا ولو انهُ أحسن اي عمل لما أطاق القيام به، وهل يحمل نفسهُ مشقة من يرى السعي للرزق جديراً بالخدام، ومن لا يقابل الناس إلاَّ بابتسامة لا يعرف احد الاَّ معناها ؟

وذهب رولاً يتمتع بالرغيد الباقي له إرثاً عن أبيه محتفظاً بغرور السيد لاعتقاده بأن الله قد ابدعهُ سيداً

***

قيل ان هرقل جلس يوماً وقد تعب من جهوده في عمله الابدي على مفرق طريقين تناديه الفضيلة من أحدهما وتراوده ملذات الفسق من الآخر فاتبع الفضيلة إذ لاحت له أبهى وأجمل من الملذات

ذلك زمان كان فيهِ قبحٌ وجمال أما الآن فلا جمال لا في الخير ولا في الشر، وليس لهذا الجيل ان يقف مشككاً حائراً بعد ان سبقتهُ أجيالٌ اختطت لها جادتها الكبرى بين طريقين اندثرت معالمها حول المسلك الجديد . . .

وما كان رولاً وهو يتبع هذا المسلك في العشرين من عمره الاَّ مقتفياً خطوات من تقدموا عليهِ من آبائه

***

ما يستقبل انظار الداخل الى المدن الاَّ مجازرها وأسوارها ومدافنها، وهكذا من يتجه الى المجتمع لا تلوح له عند اقترابه منهُ الاَّ نقائصه، فالطهر والنفاق محجبان في حين ان الرذيلة والابتذال يتعانقان أمام عين الشمس . وما يرحب الناس بين جلدتهم اذا هو تقدم نحوهم شاهراً الفصل القاطع الذي وهبتهُ إياه السماء ليدافع به عن نفسهِ فهم لا يضحون له مجالاً إلاَّ اذا غمس هذا الفصل أولاً في نهر الضلالة والاقذار . . .

وكان جاك صريحاً جسوراً رائع الجمال يأنف من الانطباع على الحياة ولا يعرف له آباً غير الشمس ، عاش ثلاث سنوات مخصصاً لكل سنة كيساً من الذهب، فلم تَرَ الارض من مشارفها الى مغاربها آدمياً مثلهُ ينفر احتقاره على الشعوب وأسيادها

مشى رولا بنفس هادية في ساحر هذه الحياة معربداً صاخباً يجرّ اذيال غروره فما جهل احد انهُ بدَّد جميع ما يملك في سنواته الثلاث ، وكان الناس ينظرون اليهِ بتقسين فيعلن لهم انهُ أعدَّ قذيفة يلهب بها دماغه حين يتمي بهِ شوطه الى الاملاق

وكان هذا الفتى الجموح ابنَ النفس ساذجاً كالاطفال عطوفاً كالاشفاق عظيماً كالاسل لا يبالي بالدهر ولا يحسب لهُ حساباً وهو يعتقد انهُ مدّرع للحادثات زوداً لا يفنيهِ الزمان

***

عندما يشرد فرس الفقر الجموح في الصحراء وتمر الايام تبليه بالسمّار القاتل يتطلع عتاً الى السماء شوقاً منها رذاذاً يبلل النخيل المقشّع بالتبار وقد تدلت اغصانه من وهج السماء المشتعلة كانها غدائر النوادب ، فيذهب مقتشاً على الآبار وقد نزحتها ألسنة النار ، وتلوح له الآساد منطرحة على الصخور تعج بالأنين وقد هدّ قواها الظمأ ، عندئذٍ يفرس الفرس منخريه الدامتين في الرمال ، والرمال المحرقة تمتص دماءهُ فينطرح على الغبراء وينطفىء النور في عينيه فتدور بهِ ذرات الرمال الصفراء لتلفه بأكفانها الصامتة ابداً في طيها ونشرها

***

لو علم هذا الفرس ، عند ما مرت بهِ القافلة قرب الساج ، انهُ باستسلامه لحداة العيس واقتنائه آثارهم ينجو بحياته لكان ادلى بشقه وكبت جموحه فوجد في بغداد مخالف القصب الندي المزهر وآباراً لا يدرك الطرف غورها

***

اذا كان الله قد جبلنا من طينة واحدة ، فلا ريب انهُ انشأ من صلصال غريب من يشهون الصقبان بتردهم ولعله الفى بخزفهم ليجف تحت اشعة شمس لاذعة ، فجاءوا الحياة بأجنحة لا تلوى ورؤوس لا تخفض ، فعاشوا في الدنيا وما امتلكوا منها الا كلمة الحرية

— ٣ —

أعلى ثلج أم على دمية من رخام يتلاعب اشعاع المصباح الذهبي على الستائر الزرقاء المتهدلة فوق السرير؟ لا . . ليس للثلج ولا للرخام مثل بياض هذه الطفلة النائمة تتردد انفاسها كالنسيم المهوّم على اعشاب البحار

هي طفلة ما مرّ بها الا خمسة عشر ربيعاً ولما تتضح انوثتها بعد . والملاك المنعطف عليها يرتاب فيها فلا يدري اهو اخوها أم هو عاشق لها

لقد انفرط شعرها على جسمها فكان له دثاراً وهي قابضة على صليب عقدها كأنها تُشهد الليل على انها رفعت الى الله صلواتها قبل استسلامها للكرى وانها ستكرر هذه الصلاة عند ما تفيق مع الضحى .

***

لقد استغرقت في نومها وتألق جبينها بهالة النبل والطهر فكأن السماء قد اغدقت رذاذاً من الضفاف الأعلى .

هي نائمة عارية وراحتها مبسوطة على قلبها ، فيا لروعة هذا الجمال هابهُ الليل فارتعش وشاحه الاربد أظلالاً يداعبها النور فترتد الاظلال خاشعة عن هذا الجمال

***

يا لأنفاس هذه العذراء ، تموت الرهبة كأنها صدى خطوات عابد خاشع امام هيكله .

في الترفة ازهار ليمون ناضرة ، ونول وكتب ، وعلى الحائط غصن مقدس يتدلى حزيناً فوق صليب قديم ، فما اطهرك يا رقاد الطفولة وقد القت اليك السماء بدرع الجمال ، وهل عاطفة الطفولة الا صلاة خاشعة كأنها محبة الارواح .

أفما يشعر من يتقدم الى هذه الطفلة الراقدة بأن فوق سريرها ملاكاً يرتعش جناحاه وهو ساهر عليها

***

أهي أمك أيتها الفتاة ، هذه المرأة الجالسة قرب سريرك ترقب انظارها على الساعة الناهضة وعلى الموقد المستعر ، فتنفض بذاهب صبرها من حين الى حين .

ماذا تراها تنتظر في مثل هذا الهزيع من الليل ، وعلى م تنهض لتعين بابك وشرفتك ، اذا كانت هذه المرأة أمك ، فمن تنتظر غير أبيك ، وأبوك قد مات منذ زمن طويل .

لمن هذه الكؤوس وهذه المائدة وما عليها من الطعام ، لمن أُشعلت هذه الشموع ومن هو القادم يا ترى ؟

لِأُمرٍ من يشاء ، فأنتِ مستغرقة في رقادك ، ولست أنت الخليلة المهيأة للعاشق المنتظر . ومن يجسر ان يتلفظ بالغرام أمامك وهذه أحلامك مشرقة بأنصع من ضياء النهار في ظلمة ليلك

لمن هذا الدثار تمسح المرأة الساهدة عنهُ ما علق به من أمطار وأوحال

انهُ لدثار صغير نحو اذاً دثارك ، يا ماريا ، وهذه آثار البلل على شعرك ، واحمرار التعب على خديك . فأين كنت ذاهبة تحت العاصفة في هذا الليل

لا . . . ان هذه المرأة ليست أمك

***

سكوتاً . . . ان ما وراء الباب أصواتاً خافتة ، وقد لاح من فرجة دفتيهِ نساء نصف عاريات تشعث غدائرهن وهنَّ يتزلقنَ انزلاقاً في السرداب المظلم

في الغرفة المجاذية مصباح تتضاءل أنواره على كؤوس متساقطة فوق الخوان المفرج بثالات الخمور وعلى نفايا ما تمتعت بهِ الفحشاء

أُغلق الباب وتعالت من ورائهِ قهقهات مروعة

***

انها لاشباح أحلام ، يا ماريا ، فكل شيء يرقد حولك بسلام ، وهذه المرأة الساهرة قربك هي أمك ، وما يبقى حولك الاَّ عرف الازهار ، وليس على شعرك الاَّ بلل الزيت المعطر وما احمرار وجهك الاَّ تورد من دماء قلبك .

سكوتاً . . . لقد قرع الباب ، وأُغلق سكون الظلام وقع أقدامٍ تخطُّ الدهليز ، ولمع نور جسّاس يتقدَّم شبحين

هذا أنت ، يا رولا . . . ماذا أتيت تفعل في هذا المكان

***

أي فوست . . . أفا كنت مستعدًّا لمبارحة الارض في تلك الليلة المفجعة حين تقدَّم اليك الملاك المطرود من الجنان ملقماً بدثاره الناري فخذك ليجول بك في أبعد الآفاق أفا كنت قذفت بلعنتك الأخيرة ، وضربت بعرض جدرانك المتهدمة حيثك

المجد بفضون ستين عاماً ، حين سمعت من بعيد نبرات الاناشيد المقدسة فارتعشت والسموم تجول على شفتيك والموت يواكبك وأنت ترتكب الكبائر حتى وصلت الى آخر مرحلة من انتحارك البطيء ، فانفجر قلبك وقد أخلفهُ الزمان كما يتفتق الصخر من لوافح الحر أيام الصقيع

لقد كانت دنت ساعتك أيها الشيخ ، وكنت تواجه الفناء بلحيتك وقد رعى سوادها المشيب وهزت الحياة جذورك لتقتلعها ، فاذا بملاك الموت يقف حائراً بك ، حين قطرت من ساعدك النحيل قطرة من دمك تريقها كمهد لا يلبس ليردك الى الدنيا

يا لهُ من لسيم بليل مرَّ على رأسك المجلل بالبياض ، أي فوست ، عند ما قضى لك ان تعود الى الدنيا لتعلق بأهداب طفلة في الخامسة عشرة من ربيع الحياة . . .

***

خمسة عشر ربيعاً ، هو عمر جوليت ، اي روميو ، عند ما كانت قبلاتكما تهازجان مع نشيد القيثار ذاهبة معها على أجنحة النسمات

خمسة عشر ربيعاً ، هي شجرة الحياة في الواحة المخضلَّة بين كثبان الرمال

خمسة عشر ربيعاً ، هو عمر حواء عندما نشأت من راحة الله فأودعها خلود الاجيال

لقد كنت زهرة الجنة ، أيتها المرأة الاولى ، فمراك الذبول وقادتك الخيانة الى الحرمان . لقد كان سيدك خالداً فأوردته الموت وما تناقص حبك لهُ ، ولئن أعيد اليك حنانك ، فلن تترددي في اضاعته مرة ثانية ، لأنك تعلمين ان من يعيد الرجل هو أنتِ ، وأنتِ تريدينهُ طريداً منفيًّا لتكوني جزاءه في شقائه وموته

***

وألقى رولاً بنظراته الكئيبة الحائرة الى ماريا المنطرحة على سريرها المديد ، فارتعش كأن قوة سرية راعتهُ فهزته هزًّا

ان ما سيؤديه لقاء تمتعه ليلة واحدة بماريا لبلغ جسيم وقد اضطر الى بذل آخر دنانيره في سبيلها ، وكان أصدقاء رولا عارفين بما اقدم عليه وقد اعلنهم قبل مبارحتهم ان احداً لن يراه بعد حين يشق الضحى ظلمات هذا الليل

لقد مرت به السنوات الثلاث وهي خير مراحل شبابه ، ثلاث سنوات مليئة بالملذات والعربدة والسكر ، مرت كحلم وتلاشت تغاريدها كألحان طير عبر في الفضاء وتوارى

انها الآخر ليالي رولا هذه الليلة ، ليلة الموت التي تطبق فيها شفتا المحتضر على آخر نوسلاته ، وتنفتر فيها الروح كل شيء اذ ترى كل شيء يتقرب الى الحق حتى ليكاد يندغم فيه . ورولا قد جاء يقضي ليلتهُ الاخيرة هذه بين احضان فتاة ساقطة ، على سرير طفلة تنتظره كنمس ذابل يترامى على نعشه المفتوح

يا للاحتلال الابدي ... يا للجريمة تدفع بالطفولة الى مهاوي الفحشاء . . .

أفا كان خيراً لهذا الجسم الضعيف الصغير المستسلم للدعارة ولا من يدافع عنهُ ان يتناوله منجل الحصّاد فيزرعه بئراً وان تمد يد الى عنقه فتفكك عظامهُ فكًّا ؟

أفا كان خيراً لهذا الوجه ان يُطلى بالجير ويُشد فوقهُ قناعٌ من حديد من ان تجيء الفحشاء فتحوله الى غدير صاف تنعكس على سطحهِ الازهار ونجوم السماء وفي قعره قطرات الفسلين ؟

***

يالهُ من جمال يغالب القبائح فيبقى جمالاً . . ويا للكنز المهتوك . .

أية قبلة غرام تروم على هذه الشفاه . وأية أثمار تنبأ للانعقاد على هذا الاملود تهب عليهِ نسمات السماء بل أي لهب يكمن في هذا المشمل الطاهر تراوده لوافح الفحشاء

***

أيها الفقر ! . . ايها الفقر ، انت هو الفؤاد الذي أنتي على هذا السرير بهذه الطفلة التي كانت اليونان القديمة ترفع امثالها الى هيكل (ديانا)

لقد أدت فرض صلاتها قبل ان رقدت امس ، ولمن وجهت هذه الصلاة يا لله ! .

أفا كان الاولى بها ان تركع امامك أيها الفقر لاجئةً الى رحمتك متوسلة اليك .

أفا انت من جاء ذات ليلة مع عاصفات الرياح مقتحماً الاهوال الساهد في المسكن الحقير لتقول للام (إن ابنتك عذراء ورائعة الجمال ، والبكارة تباع والجمال يباع)

أفا انت من تحمل هذه الطفلة ، ايها الفقر ، وأرسلها الى المهرجان ، كما تحمل الاموات لتدرج في الاكفان ؟

أهي أم أنت ، ايها الفقر ، من القت بالدنار الصغير وتراكض تحت لمعان البروق قاصداً باب العهر والابتذال

من يدري ، لو أنك جدت عليها بالرغيف ، ان كانت ستلقى ماقدر لها على غير هذا الباب

ما كان هذا الجبين الناصع جبين فتاة لا حياء فيها . وما كان لهذا القلب الطاهر ان ترعاه جراثيم الفساد وهو يستقبل شفق الحياة

ويلٌ لهذه الطفلة تدفع الى مهب العواطف المضللة الجامحة وعاطفتها لما تزل راقدة لقبوها بماريون ومي ماريا... والقوا بها الى هاوية الفحشاء ، وماغرّها لمان الذهب ولا استهوتها حياة الاغنياء ، انها بائسة لا تطلب الا موتاً وما استسلمت تحت هذه الستائر المروعة على هذا السرير ، سرير العار الا لتعود الى أمها بما جنته من عذابها عليه ...

***

أين شفقتكنّ ، يا نساء المجتمع ، المرسلات احتقاركنّ في البيش المرح على كل من لا يشتم بما تتمتعن به من حبور ورخاء ؟

أين شفقتكنّ ، ايتها الامهات ، الموصدات الابواب على البنات في الخدور والساترات العشاق تحت أمرة الازواج . ؟ .

إن عشقكنّ ذهبي الاحلام تنفخ الحياة فيه جاحاتُ الخيال

ولكم فيكنّ من تباهي بمثل هذا العشق لانها ليست معروضة بين الباحات اعراضهنّ لمن يشاء ، ان مثل هذه المرأة لم تشهد شبح الجوع يتقدم ليرفع غطاء سريرها منشداً طروباً يلصق شفتيه على فمها متقاضياً قبلة لقاء كسرة خبز . ...

***

ايها الحيل ، اتراك ذاهباً في مآتيك ذهاب الاجيال المنصرمة تبلك تندفع كالنهر الصاخب حاملاً جثثاً هامدة على مجراك متراصية الى بحر السكون ، في حين ان هذه الارض الهرمة تشهد هذه المآسي بين الولادة والموت فتستمر دائرة حول الشمس دون ان تتجاوز مدارها لتصعد نحو خالقها شاكية اليه هذا الشقاء

***

لتكن اذاً ، أيتها الموسى الجميلة ان تهبي وتمزقي ستر نهديك ، فالحرة تشع متدفقة في الاكواب ونسمات الليل تهز متهدلات الستائر وقد لاح ارتعاشها في مرآتك

انهضي انها ليلة رائعة بذلتُ لها ما تستحق من ثمن ، وما كان المسيح ليشعر اثناء عشائه السري بقدر ما أشعر من جذل وحبور في عشائي الاخير

هيا تعالي ، وليحيا الحب الكامل العربيد ، دعيني أتذوق خمرة الاندلس في

رضابك ، ولتحملنا ملائكة اللذة على معاصمها الى حيث لا صواب ولا شعور

هيا بنا نقصد الحب والحنون خير أغانينا ونشرب نخب الزمان الثار ونخب لموت القريب تعالي نكرع الحمرة ولـلو كل شيء الاّ الحمرة والجمان ، فلا يتصاعد هتافنا الاّ لتبجيل الحرية والحياة

— ٤ —

اي فولتير ، ارقد الآن بسلام ، ولما تزل بسمتك القبيحة تلوح على موضع الثغر من جمجمتك البالية

قالوا ان عصرك لم يكن ناضجاً ليفهمك ، فهلا راقك عصرنا وقد ولد فيه رجالك

لقد عملت راحتاك المريضتان طويلاً في زعزعة ذلك الصرح الرفيع فتداعى ولـكنهُ هوى علينا بأنقاضه نحن ابناء هذه الايام .

لقد انتظرك الموت ثمانين حولاً وهو يتشوّق اليك وأنت تراوده تعزّلاً وتنكباً فما كان غرامكما الاّ شرارةً من الجحيم .

أفلا تسحب احياناً ، اي فولتير ، من فراش عروسك بنت الدم بين ديدان القبور لتذهب بجبينك الشاحب تائهاً بين أنقاض الاديرة واطلال القصور .

ماذا تراها تناجيك هذه الصروح المقفرة والهياكل المتهدمة وانت نفخت عليها فأقوت وغدت خاوية لا حياة فيها.

ماذا تناجيك الصلبان ، وما يقول لك المخدّش المشبوح عليها ، اقتدى جراحه عندما يتقدم شبحك اليه في الليل محاولاً اقتلاعه كما تُقتلع الزهرة الضارة عن مغارسها ؟

أفراضٍ أنتَ ، يا فولتير ، عن عملك رضى المبدع حين فرغ من الخلق فرأى حسناً كل ما ابدع.

أما وأنت الراضي المبتهج بما أتيت ، فاني ادعوك الى وليمة في هذا المساء ، انهض من مرقدك فما عليك الاّ ان تضرب الباب بلا استئذان وتدخل الى حيث احد اتباعك يتناول عشاءه الاخير.

أفما تسمع تبلات هذا الفتى وهذه الفتاة ، أفما يلوحان لك وقد تعلّق كل منهما بساعدي رفيقه جسداً واحداً بروحين وقد زفرت شفاههما المرتجفة بشهيق كأنهُ نحيب وإعوال.

كلاهما نقي وكلاهما رائع الجمال ، وهذه صرخة الغرام ينبعها تشهي المساء لتنزل بستائرها الذهبية على عناقهما المديد .

فتش على الحب بين هذين المتعانقين ، إنهما ما عرفاه من قبل وما يعرفانه الآن ..

***

وهذه الكلمات الرائعة الساحرة أين تلقناها ، وليس الا لنشوة الحب ان تنفوه بها بين الشهيق والزفير ؟

يا للمرأة من أداة جبور ومن أداة تعذيب ، يا لها من هيكل سرّي تتعالى فوقه همسات المصلين وصخب اللاعبين ...

أين ترى نحول من الاجواء او من الاصداء هذه الكلمات الابدية التي لم تزل تعربد منذ خمسة آلاف سنة على شفاه العاشقين ؟

***

يا المطاولة الكافرة : ليس من حب هنا ، وهنا ملاكان وقلبان ما أحقهما بالاعتلاء في صفائهما الى أبيهما الأعلى مع طلعات الاملاك

ليس من حبّ هنا ، وهنا زفيرٌ في الليل ، بل هنا الطبيعة بأسرها ترتعش تامة من خمرة الغرام

هنا عبقات بخور وأقداحٌ مجوزة ، هنا تصدو قُبَلاً لا عداد لها ، ولعلّ هنا ، ويا للشقاء ، يتكوّن مخلوق تمس صيحات الثور

اذا كان لا حبٌ هنا ، فما هو هذا الشبح الرائع كأنهُ الحب بعينه ؟ ..

***

يا مساكن العزلة تحت قباب الاديار ، أيتها المدائن المظلمة ، ان الحب كامن فيك. وما من شفة ألقت قبلة ملتهبة على أعمدتك وأحجارك دون ان ترتعش بنشوة الحب العميق

تعالي أيتها الصروح ، صروح المتنزلين ، تقدمي واحتكي أستارك أمام هذا الفتى وهذه الفتاة وهما يلتهبان بشوق النشوة على سرير لا يصلح الا للرقاد وللموت

اضربي بقلبهما عرض جدرانك ، أيتها الصروح ، واغرسي فيهما أشواكك ما فيك من سموح دامية وارسلي على جبينهما رشاش هيأكلك المقدسة ، قولي لهما كم يجب على امثالهما

من سجدة على النحود ليدركوا حقيقة الحب كما يدرك بين جدرانك أيتها الاديار . . .

***

انكم لتكرعون ثمالة كؤوسكم فترسلونها الى اعماق قلوبكم ، أيها المترهبون ، انكم ترون وجه المخلّص عند ما يراود النعاس أجفانكم . وعند ما يغلق الصباح تلمّس عيونكم هذا الوجه ايضاً على زجاج النوافذ المذهبة بالنور ، وأنتم تصغون الى ما تهتفون مع الارغن من أناشيد الصلاة

هذا هو حبكم تتفانون في سبيله فتجدون السعادة فيه

***

أي فولتير ، أنظر الى هذا الشاب المتدفق قوّة وحياة يترامى بأحر قبلاته على هذا الصدر البديع ، انظر اليه انهُ سيسجى غداً في لحده الضيق ، فهل لك ان تغبطهُ

لقد قرأ هذا الشاب ما كتبتَ للمجتمع فلن يجد سلواناً ولا أملاً بعد ان أصبح طعمه جحوداً ، فلك غداً ان تضمهُ الى رفاقك دون ان تهتك حرمة قبرك

أفتُراكَ تعتقد ، يا فولتير ، لو استبقيتَ في نفس هذا الرجل شيئاً من الايمان انهُ كان سيلقى باحتضاره على فراش الفحشاء ؟

ليتك أبقيتَ لهُ الاعتقاد بأن الموت اجتيازُ معبر الى قرار ، لكان اذن لا يبالي ولا يخاف اقتحامه فينظر الى ملاك الموت نظره الى عروسة تتعالى في السحاب حاملة مفتاح قلبه الذهبي لتطرحهُ عند عرش الله الحي

***

هذه صيحتك ، يا فولتير ، هذا هو الانسان كما أردت ان يكون ، فان التاريخ لم يشهد الاّ منذ أمس من يموت كما يموت رولاّ . . .

عند ما وقف برونوس على أنقاض روما صارخاً (ما أنتِ الاّ كلةٌ أيتها الفضيلة) لم يكن يرسل لعناً او يتفوّه بتجديف

كان برونوس فقد كل شيء ، ولم يبق لهُ لا وطن ولا مجد ولا أمل ولا حرية ، بعد ان توارت عنهُ (بورنيا) وفارقهُ (كاسيوس) ، بعد ان أراق دمه وتفرّق جنده من حوله ، فامتنع عليه أن يؤمن بشيء على وجه الغبراء . ولكنهُ عند ما رأى نفسه وحيداً ولا مقعد لهُ الاّ قطعة من الصخر ، رفع أبصاره الى السماء فما

تفقد شيئاً في مداها الفسيح ، بل تفس قلبه منها نسمات الامل فأدرك ان آلهته لم تزل وان سيفه لم يزل في قبضة يده

اما نحن ، فتلك الآلهة فأي شيء بقي لنا ؟

***

لن تسلون ، ايها الهدامون الاشياء ؟ . .

اي شيء تريدون ان تزرعوا على قبر المسيح اذا انتم اسقطتموه عن هياكله وقذفتم بالحمامة البيضاء الى الهاوي المظلمة .

لقد طمحتم الى خلق الانسان من جبلتكم وتكوينه على شاكلتكم وعلى هواكم ، لقد اردتم اقامة عالم جديد ، فها هو ذا العالم الذي اردتم

ان عالمكم رائع وانسانكم متفوق كامل ، لقد هدمتم الجبال وافسحتم مدى السهول واستنبتم شجرة جديدة للحياة .

لقد كسحتم كل حائل فمهدتم طرقكم على الحديد .

كل شيء عظيم وكل شيء رائع ، ولكن هذه الاجواء تكتم الانفاس وتشد على الصدور وقد ذهبت اقوالكم الرنانة على الرياح الموبوءة تزعزع كل معبود ، فروعت الاطيار وشردتها . .

لقد قضي على الرياء ، فما يثق بالكهنة احد ، ولكن الفضيلة تنهار وقد انتشر الجحود على انقاضها

ان البلاء ياهون بطارف امجادهم ، بعدان اصبحوا يعرضونها للابتذال في المواخير؟

لقد اصبح التفكير حراً واطلق البيان على مسارحه ، غير ان الشعب اصبح يتوق الى الميادين تصارع عليها الثيران

لا الفقير اذا عزّت نفسه عليه ولا الغني اذا اجتاحته المحن يلجآن الى الرهبنة في هذه الايام ، فهما يعتبران هذا الانعزال جنوناً ويفضل كلٌ منهما ان يشعل فحماً في غرفته ويوصد نوافذها ليختنق بسمومه

— ٥ —

ولاحت لعين رولاً اوائل اشعة الشمس على السطوح فذهب الى الشرفة يتطلع منها الى الطريق وكانت العربات الضخمة قد بدأت تهتز باثقالها على المنعطفات ، فاحنى

رولاّ جبينه الشاحب وقد حكمة الذهول امام السماء يشق الضحى فيها ستائر الافق الحمراء .

وكانت على الساحة جوقة من رعاع المثين تنشد أغنية قديمة .

يا للاغنية يسمعها الانسان في ساعات محنته بعد ان تغنى بها في مرح طفولته . انها لتمحو كل ما انطبع بعدها في التذكار فتحفر بين ماضيه وحاضره هوّة سحيقة واذ يشعر بعدها عنها او بعده عنها ، اذ يشعر بتقادمها او بتقادمه ، يحني رأسه المتعبة على ذراعها حزيناً واجماً .

ان هذه النغمات القديمة لانفاس ماضي المرء من اطلال وتحيب ما فيه من ملائك التذكار ترف على احلام الطفولة وحبها البريء .

انها لتهبّ بذراعها على أزاهر الزمان المتصرم فتنوّرها وتتعالى باكية فوق مضجع احتضارنا بعد ان غرّدت فوق مهودها .

***

وادار رولاّ رأسه فرأى ماري مستسلمة للكرى وقد أرهقها السهاد .

هكذا كانت الطفلة تفزع الى عالم الرؤى والرجل يفزع الى عالم الفناء .

عند ما تمزق الغمام شمس الخريف لتقع على ركام الثلوج ، تبدو هذه الركام ملتهبة كأنها صدر الصباح تملوه حمرة الخجل من قبلات النور المحرقة .

هكذا يتورد إهاب العذراء من دم قلبها عند ما تمسّها الشهوة باطراف جناحها .

أي كوكب النهار ! ما الارض الاّ مشوقتك الهائمة وما تحفظ أنت بشبابك الاّ لتسكب عليها روعة الجمال الى الابد .

***

اي ، أطيار السنونو المتطايرة في الافق متعالية متهاوية ، خبريني لماذا تُقضي عليّ أن أموت . . .

أيه ، ما أتيح الانتحار . . . ويا ليت لي جناحين لامدهما في هذه الاجواء الصافية فأذهب طائراً طليقاً

علّماني ، يا أرض ويا سماء ، ما هو معنى الضحى ، وما هي قيمة يوم جديد في هذا العالم الهرم القديم .

قولي لي أيتها المروج الخضراء وأيتها البحار السحيقة لي شيئاً ينجلي لك اذا

كنت انتِ محرومة من الشعور ليهتز القلب اهتزازاً امامك وتجثو الركاب عند ما توهج آفاقك بأنوار الصباح . . .

من أوثق رباط الخطوبة بينك وبين كوكب النهار أيتها الارض .

ماذا تقول الاطيار في تغاريدها وعلى من تبكي أنداء السماء ؟

لماذا تحدثيني عن حبك الآن ، وماذا تريد الكائنات مني وانا اطلب الفناء .

***

أية قوة كانت تدس في خيال رولا كلمة الحب فتجول فيه بكل روعتها . بل اي هاتف كان يلقي بهذه الكلمة في أذنه والموت منتصب أمامه .

اي معنى لكلمة الحب تقال لفاسق عاش يوماً فيوماً متنقلاً من خمّارة الى خمّارة محتقراً الحياة مباهياً بتحقير كل عاطفة تمتّ الى الحب بسبب .

أتقال له هذه الكلمة وماوقعها في سمعه الا وقع إهانة توجه الى قلبه المتحجر حيث لم تنبت زهرة واحدة وهو يعرضهُ قاحلاً على الناس كما يعرض الجندي جرحاً قديماً .

أيذكر الحب أمامه وهو من لا خليلة ولا سكن لهُ وهو من عاش في ملاعب الرياح متحدياً تصاريف أقداره مسلماً شبيبته لكل زعزع ينفضها نفضاً كانها اوراق ذابلة على شجرة جفَّ جذعها .

من تُرى تذهب به الفحة الى الوقوف امام هذا المحتضر ليذكّره بالحب بعد ان كرع نمالة كأسه والقى الى ليل الابد بآخر شرارة من حياته وها هوذا في ساعته الاخيرة يفتش على سرير ماخور يفطرح عليه ليلفظ آخر انفاسهُ ويدفع بآخر لفائفه .

***

عند ما تبارح أنثى العقاب وكرها ينقدم فرخها الى حافته متحفزاً فكأنهُ يحس باقتداره على نشر قوادمه والانطلاق في الفضاء

من تُرى يهيب به الى الطيران ويشجعهُ على اقتحامه وهو لم يخرج مخلباً ولم ينشر جناحاً من قبل . انهُ يعلم بنسبه وأن له أن يقتحم الرياح عندما تدغدغهُ لفحاتها

على ان تحت الشمس منابت للارواح السافلة كنابت الكلاب وبنات آوى والافاعي ، تنبت هذه الارواح كما تنبت هذه الحيوانات فتموت حيث ولدتها امهاتها وكلها تحمل في احشائها جراثيم سلالاتها الدنيئة كان الطبيعة تبقي على اجناسها سعاداً تمد به التراب حول القبور ، ولكن لهذه الطبيعة قوتها السرية

تعمل بها على خلق طبقة من الاحياء نبيلة تمر على الحياة فلا تعلق بها ارجاسها

ومن حبّهُ الفطرة هذا الصفاء ، فانهُ ليترع في الحمأة وتدور به الشرور خانقة سريرته طوال ثلاث سنوات دون ان تقضي عليها اذ يجيء يوم ينتبه فيه ضميره فينقض قلبه انقاض عبدان (سان دومينيك) الذين مرّت عليهم الاحقاب حتى تحكروا من اقتلاع سلاسلهم من ارض العبودية حين عصفت بهم زعازع التمرد ونسمات الحرية

هكذا تنتبه أفكارك الآن ، يا رولاّ ، محاولة تحطيم قيودها فهي تصيح بك وقد لاحت في دياجر القفر مشاعل الحياة ذاهبة الى ما وراء الحياة

أي رولاّ ان هذا الدم الذي تسفك به يداك إن هو الاّ وهمٌ يتبدّد ، انما الدم خيالٌ قائمٌ لا تطفي أمامه أنوار الارض حتى تتوهج لمعانها في الابدية

انك ما أحببت من قبل ، فانك لن تحب الى الابد

***

وعلا وجه رولاّ الشحوب فأغلق النافذة وهو يرتعش فاذا بيده تصدم زهرة ناضرة فتقصفها واذا بالزهرة تهتف في اعماق روحه :

أحب وأموت . . . لقد أهبني النسيم تقبيلاً قوّر توجعي وتساقطت أوراقي ، لقد لبست له الزهو والبهاء فجاءت القبلة تهبني الحياة ، وما يهم الزهرة السحاق قلبها بعد ان تفتحت اكمامها

***

احب ... هذه هي الكلمة التي تلفظها الطيعة بأسرها لتحملها أجنحة الرياح والاطيار ، هذه هي الزفرة المفجعة تزفرها الارض عند ما يحين لها ان تدفع الى أغوار الظلام

وهل تهيم الكواكب بغير هذه الكلمة الحزينة الرائعة وهي ذاهبة في مدار اجوائها ؟ ان أضعف النجوم اندفعت منذ ابدعها الخالق متجهة الى حبيبها كوكب النهار ، واندفع وراءها ما يشتاقها من الاجرام فسارت العوالم منذ الازل منجاذبة بالحب في أفلاكها

***

ووجم رولاّ أمام الفتاة الراقدة متفرساً في ملامحها ، تأخذه منها روعة الجمال

وتميد اليه رؤى كأنهُ شاهدها فيما مضى من الزمان ، فارتعش متسائلاً : أليست هذه الموسى أحدّه في هذه الغرفة الملحد فيها كما سيُلحد هو ، افما يحسّ الى جنب ما يعانيه من اقتحام الموت بما تعانيه هي من اوصاب الحياة

***

ان الصبر يتسنى على مهل في قلب هذه المخلوقة الشقية الواهية ، أقلبت آلامها احتاً لآلامي . أفا هي المثال الذي تقدّر لي ان اراه ممدداً على لحدي ، وأنا انحفز للنزول الى اعماقه ؟

لا تنتبهي من رقادك ايتها الفتاة ، إن انتباهتك من حياة الارض ولكن هجوعك طاهر فهو لله . دعيني أقبل التماس على أجفانك فأودّعه وأوليه حبي ، فهو لم يبع وشاح طهره ولم ادفع له ثمناً . إن وسنك لم يزل طفلاً ذاهباً في احلام طفولته ولم يعلق به منك إلا روعة جمالك

***

يا للجسم الملائكي يتلوّى وراء هذه الستائر المتماوجة

أفا يكتفي الحب بما ترسمهُ الخطوط في انقاضها المادي وبما يهب عليه من نسمات البهاء ليغرّد بأشجى الحانه ، وهل الحب الا الضحية المستسرة للخداع ، الا الليل يرتعش فرقاً من زوال دائه .

اذا كان العاشق لا يظفر من الحبيب الا بما يحتاج اليه من الوهم ليستمتع بعذابه ، فعلى مَ أذهب مفتشاً على الوهم في الآفاق .

مالي وماري وحياتها ، افا هي امامي الآن مجسّم القوة والحياة ؟

لك ان تأتي الآن ، ايها الحب ، اذا كنت انت عطر الحياة وليفح عبيرك من هذه الزهرة البائسة وقد تفتقت اكمامها عن مثل هذه النضارة وهذا الجمال . . .

***

وتقدم رولا الى السرير وتمدّد جنب ماري فاشتبك الناظران وتمازج النفسان .

وقالت : — كنت أشهد رؤيا غريبة ، رأيتني على هذا السرير افيق من رقادي ، فاذا بهذه الغرفة متبسطة امامي كأنها مقبرة واسعة الارجاء تبعثرت العظام البالية بين اكفانها الخضراء .

ورأيت ثلاثة رجال يحملون نعشاً تقدموا به وانزلوه عن اكتافهم ليؤدوا فريضة الصلاة ، فاذا بالنعش ينقلب عنهُ الغطاء واذا انتَ ممددٌ فيهِ وعلى وجهك رشاشٌ من الدماء السوداء .

رأيتك تنهض من النعش وتتقدم اليَّ آخذاً يدي قائلاً لي — ماذا تفعلين هنا ، لماذا تحتلين مكاني .

والتفت الي نفسي فاذا بي ممددة على قبر .

فقال رولا — إن في حلمك حقيقةً وإن خلا من الجمال ... ولن تحتاجي الى إغماض جفنيك غداً لتري مثل الحلم ، فاني منتحرٌ اليوم

***

ونظرت ماري الى مرآتها وهي تبتسم ، فلاح لها وجه رولاً في المرآة وقد علتهُ صفرة الموت فارتعشت وامتقع لونها فصاحت به : — مالك ، ماذا جرى لك ؟

فقال : — أنا بلغك اني أقلعت منذ امس ، وهل أتيت إلاَّ لأحيي ليلة الوداع بقربك . ما من احد يجهل هذا ، وقد قضيت بالانتحار على نفسي

— أقامرت بمالك

— لا لم اقامر ولكنني بددتُّ مالي

فحدجت الارض بأنظارها مستغربة وقالت : — أفليس لك امٌّ ، أفليس لك أقارب وأصدقاء ، أفليس لك أحد في الحياة ؟ أتنتحر ، ولماذا تنتحر . . .

والفت عليهِ نظرة تشع أسىً وحناناً وترددت على شفتيها سؤالات لم تجسر على النفوه بها . فألقت رأسها الى رأسهِ واختطفت عليهِ قبلة واجفة ، وهي تقول همساً : — ليس لي مال ، فان أمي تأخذ ما تصل اليهِ يدي ، ولكنني املك عقدي الذهبي أذهب بهِ لبيعه فتأخذ ثمنهُ وتقامر به مروداً حظك ؟

ابتسم رولاً على مهلٍ وأخذ حقًّا أسود صغيراً أفرغهُ في فمهِ ، ثم انحنى يقبّل عقدها على نحرها ، وإذ رفعت رأسها لم تجد على صدرها غير جثتهِ لا حراك فيها

وكان رولاً قد لفظ روحه بالقبلة الطاهرة

وكان الحب قد ساد لحظةً عليها وعليهِ . . .

تمت

سير الزمان

اوربا المتوسطة

والشرقية

مركز الثقل في السياسة الاوربية الآن

١ — مرحلة النفوذ الفرنسي

٢ — مرحلة السلامة المشتركة

٣ — انحلال السلامة المشتركة

٤ — خاتمة

اوربا المتوسطة الشرقية

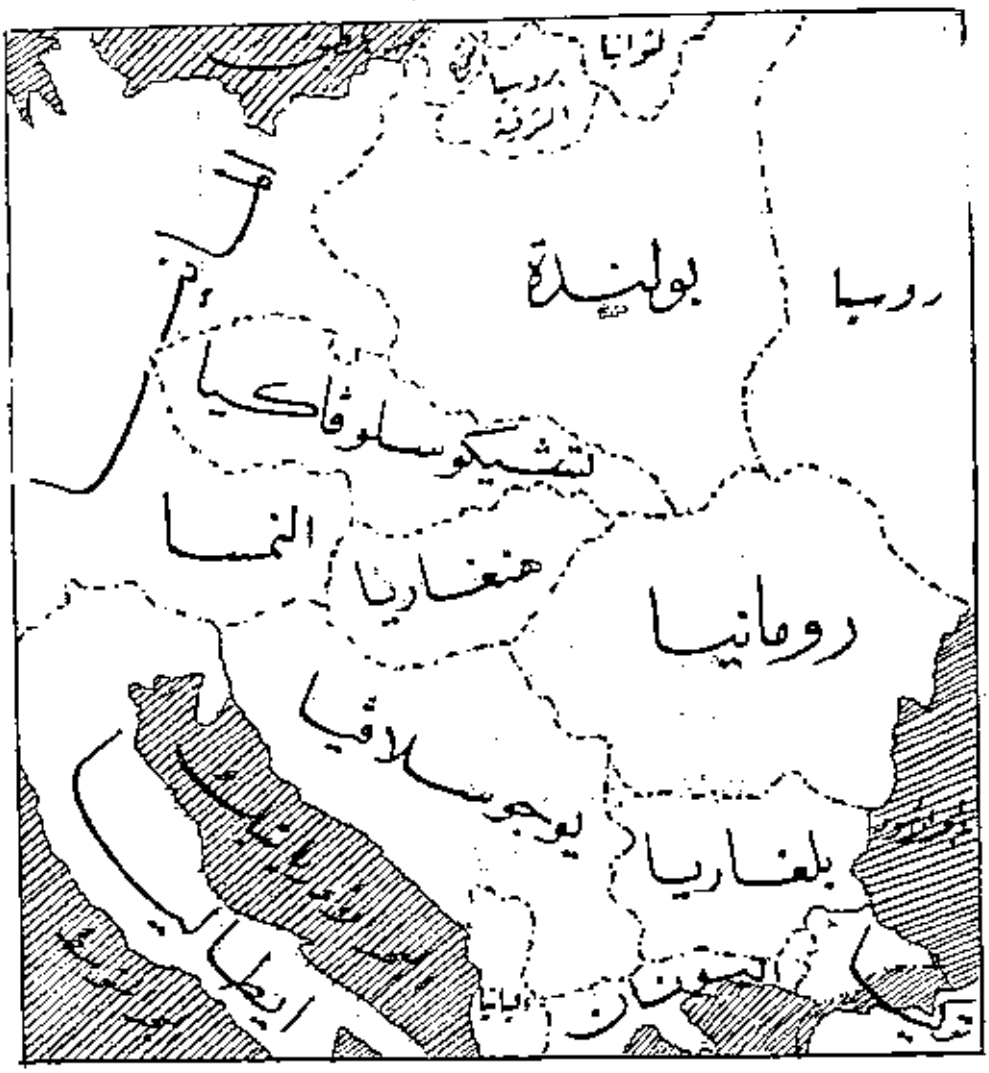

والى الشمال من لتوانيا لتفيا فاستونيا لفنلند والجزائر تظهر على الخريطة المجاورة

أوربا المتوسطة

والشرقية

مركز الثقل في السياسة الاوربية الآن

أما وقد انتهت المفاوضات البريطانية الى اتفاق يرجى منهُ خيرٌ عظيمٌ في اقرار الحالة السياسية المضطربة في حوض البحر المتوسط فقد انتقل مركز الثقل في السياسة الاوربية الى شرق أوربا وما يليها من شرقها الشمالي وشرقها الجنوبي

هذه المنطقة وصفها ماساريك — الرئيس الاول للجمهورية التشيكوسلوفاكية — في مقال لهُ نشرهُ في مجلة أوربا الجديدة سنة ١٩١٧ بقوله انها « منطقة الشعوب الصغيرة » وهي تشمل الآن بعدما ضمَّت النمسا الى المانيا ، ثلاث عشرة دولة هي من الشمال الى الجنوب فنلندا واستونيا ولاتفيا ولتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا واليونان والبانيا وتركيا . واذا نحن تذكرنا اين بدأت الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ وكيف أضرمت نارها الاولى تبين لنا ما لمنطقة الشعوب الصغيرة من الاثر في سلام أوربا وحربها . وما صحَّ بالامس لا يزال صحيحاً اليوم . فما الحالة هناك ؟

ان تقسيم هذا الجانب من أوربا الى دولات متعدّدة لا يعود الى بواعث عنصرية فقط . بل ان الامبراطوريات الكبيرة في العصور الماضية لم يتم لها توحيد هذه الشعوب وادماجها بعضها في بعض على نحو ما تمَّ لفرنسا وانكلترا وأسبانيا في الغرب . ذلك ان الامبراطورية الرومانية المقدَّسة ، وامبراطورية آل هوهنزولرن وآل هبسبرج والسلطنة العثمانية ، كانت تعتمد على إثارة الطوائف العنصرية بعضها على بعض في سبيل حكمها ونزعت منها في الوقت نفسه المنشآت السياسية التي كانت قد أقامتها لنفسها بدير ان تسلّم لها بما ينبغي نزعتها الخاصة ويمكنها من التآلف والاندماج . ولعلَّ خير الامثلة على ذلك بوهيميا وبولندة . فالأولى نزع منها استقلالها في القرن السابع عشر والثانية في القرن الثامن عشر . وحاول الجرمان من ناحية والروس من ناحية أخرى استعمار هاتين المنطقتين علاوة على الاستبداد بهما . فازدادت النزعة القومية العنصرية فيهما شدَّة وتأصلاً . فما نشبت الحرب الكبرى هبَّتا الى استعادة ما فقدتاهُ

فهل تستطيع المانيا ان تحقق في القرن العشرين ما أخفقت فيه في القرون الماضية ؟ هذه المسألة محور مشكلة من أكبر المشكلات في السياسة الاوربية في هذا العصر . فاذا استطاعت المانيا ان تخضع الدول الصغيرة في أوربا الوسطى وأوربا الشرقية لنظامها السياسي والاقتصادي

استطاعت ان تصبح الدولة المهيمنة على اوربا . وكتاب « كفاحي » يبين ان زعيم الرايخ الثالث يسعى لتحقيق هذا الحلم . فاذا لم يصدَّه صادٌّ ، واذا استأنفت المانيا « الاندفاع نحو الشرق » Drang nach Osten بغير نظر الى العواقب ، فاني اخشى ان تكون اوربا معرضة ثانية لاهوال الحرب لانهُ على الرغم من ضعف الوزارات الفرنسية والبريطانية وتقلب الرأي العام الذي تستند اليهِ ، يخامرني الريب في ان تسلِّم حكومتا فرنسا وبريطانيا في آخر الامر باطلاق يد المانيا في اوربا الوسطى والشرقية . لانهما ان فعلتا كان ذلك تسليماً منهما بسيطرة المانيا على مصادر من الثروة والسطوة تجعلها ضحاياها الاولى . واقلا اقول ان بعد النظر وادراك حقائق الحال ستحملهما على مقاومة هذا «الاندفاع» ولكنني اقول انهما ان لم تفعلا فقد قضي عليهما ان تكون دولتين من الطبقة الثانية

وقبل ان تقاس المانيا لكسب ما تريدهُ من طريق الحرب تراها تبذل السعي لهدم النظام السياسي الذي انشيء بعد الحرب الكبرى للمحافظة على ما قررتهُ معاهدات الصلح . وكل حدث من احداث السياسة الدولية القريبة كان مظهراً من مظاهر هذا السعي

فلننظر الآن في تحول الاتجاهات السياسية في اوربا المتوسطة والشرقية بعد الحرب لعلَّنا نستطيع ان نتبين ما يدلنا على مستقبلها وهل هناك في « منطقة الشعوب الصغيرة » ما يشير الى انهُ في وسع بعضها ان يحتفظ باستقلاله او هو مقضيٌّ عليهِ بان يصبح تابعاً لشمس المانيا وما لها من قوة عسكرية واقتصادية . وتاريخ هذه المنطقة منذ سنة ١٩٢٠ ينقسم الى ثلاث مراحل واضحة . فنشهد اولاً مرحلة التفوق الفرنسي في النفوذ السياسي والعسكري . وتليها مرحلة السعي لتنظيم السلامة الاجتماعية بواسطة المعاهدة والمواثيق وقد بلغت قمتها في الميثاق الفرنسي السوفيتي في مايو ١٩٣٥ ثم هناك المرحلة الثالثة التي تبرز فيها نزعة بعض الدول الصغيرة الى عقد معاهدات مقابلة للمعاهدات القديمة ، وقد كان بدؤها يوم دخلت جيوش المانيا منطقة الرين المجردة من السلاح في ٧ مارس سنة ١٩٣٦

مرحلة التفوق الفرنسي

دامت المرحلة الاولى — مرحلة التفوق الفرنسي — من حين عقدت معاهدات الصلح ووقعت الى شهر اكتوبر من سنة ١٩٣٣ اي الى ان خرجت المانيا من مؤتمر نزع السلاح وعصبة الامم وهيئة الدول الدولية . في خلال هذه السنوات كان الجيش الفرنسي أمنع جيوش أوربا . وكان احتلال فرنسا منطقة الرين (الى سنة ١٩٣٠) وتجريد هذه المنطقة من الحصون بمقتضى معاهدة فرساي ، مما يمكنها من اختراق غرب المانيا بغير ان تقف عقبة كبيرة في وجهها تستطيع

مناجزة الجيش الالماني في الغرب ، بحيث تصبح المانيا عاجزة عن اي عمل حربي ذي شأن في الشرق . في هذه الفترة كان الخطر الوحيد الذي تستهدف له دول اوربا الوسطى والشرقية ، ناشئاً من موقف هنغاريا وروسيا السوفيتية . أما الاولى فلم يكن في وسعها الاعتماد على المانيا حينئذٍ ، في طلبها الثأر ، فاتجهت الى ايطاليا . وقد اعلنت ايطاليا رأيها في وجوب تنفيذ المعاهدات في خطابة لموسوليني القاها في يونيو سنة ١٩٢٨ ولكنها مع ذلك ظلت تتعاون مع فرنسا وانكلترا وهي تبحث عن خير الوسائل لتحقيق اغراضها . واما روسيا فكانت لا تزال في غمار الثورة فلم يكن في وسعها الاشتراك في حرب خارجية ولا سيما بعد هزيمتها في الحرب الروسية البولندية في سنة ١٩٢٠

ففي هذه الحالة تراءى لفرنسا ان خير وسائل السلامة أبسطها . فعقدت في فبراير من سنة ١٩٢١ اتفاقاً سياسيًّا وآخر حربيًّا مع بولندة . وفي يناير من سنة ١٩٢٤ عقدت اتفاقاً سياسيًّا مع تشيكوسلوفاكيا وكان الاتفاق التشيكوسلوفاكي بمنزلة محالفة الاَّ انهُ لم ينصَّ على تعاون هيئتي اركان الحرب في الجيشين . ومع ذلك كان للبعثة الحربية الفرنسية في براج مقام اعظم من مقامها في وارسو حيث كان المارشال بلسودسكي يحدُّ من نفوذها غيرةً على مقامهِ . ولذلك يمكن ان يقال ان الاتفاق العسكري البولندي الفرنسي ظلَّ حبراً على ورق على الغالب ولم يوضع موضع التنفيذ العمَّال . فلما ذهب المارشال فوش في سنة ١٩٢٣ الى وارسو ليحدِّث المارشال بلسودسكي في ما يكون موقف بولندة اذا اتخذت المانيا خطة الهجوم في شرق اوربا ، لم يفز القائد الفرنسي من القائد البولندي الاَّ بقولهِ « أزحف على موسكو . اما المانيا فاني اتخذ قراراً عندما اراني في الميدان »

كانت الحكومة الفرنسية قد فاوضت حكومتي بولندة وتشيكوسلوفاكيا لان حدودها محاذية لحدود المانيا . وبهذا يفسَّر تمثيلها في مؤتمر لوكارنو الذي عقد في شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٥ ولا يخفى على متتبعي السياسة الدولية ان اتفاقات لوكارنو كانت قسمين احدهما اتفاق خاص بمنطقة الرين وقد ضمنتهُ بريطانيا وايطاليا بوثيقه اتفاقان احدهما بين فرنسا والمانيا والآخرين المانيا وبلجيكا . اما القسم الثاني فكان مشتملاً على معاهدتي تحكيم بين المانيا من جهة وكلٍّ من بولندة وتشيكوسلوفاكيا من جهة أخرى . ولكن بريطانيا وايطاليا نجبتا ضمان هاتين المعاهدتين فتيسَّر على فرنسا ان تنهض بهذه المهمة وحدها فعزَّزت اتفاقيها مع بولندة (١٩٢١) وتشيكوسلوفاكيا (١٩٢٤) بتصريحين وعدت بمقتضاهما ان تؤيد حليفتيها الشرقيتين بالقوة العسكرية في الاحوال التي تشملها الفقرة السابعة من المادة ١٥ وكذلك المادة ١٦ من ميثاق عصبة الامم . وهذه النصوص في الميثاق تشمل جميع حالات الحرب — اي حالات النزاع المعروضة على مجلس عصبة الامم اذا

تعجز المجلس عن حلّها بالاجماع وكذلك حالات الاعتداء الصريح الذي لم تتخذ لمنعه وسائل التسوية السلمية

وقد قطعت فرنسا على نفسها عهوداً من شأنها ان تلزم المانيا باحترام حكم القانون الدولي فلم يبق على بولندة وسائر الدول في حوض الدانوب الاّ ان تفصل ما بدل عليه عاملها في وجه روسيا السوفيتية وهنغاريا . ولذلك عقدت بولندة ورومانيا اولاً اتفاقاً في سنة ١٩٢١ ثم في مارس سنة ١٩٢٦ قطعتا فيه عهداً بالتعاون على صدّ اي اعتداء موجه الى اراضي احداهما او حكمها السياسي . ثم حدّدتا الاحوال التي ينفذ فيها هذا العهد وفقاً لما فعلتهُ فرنسا في السنة السابقة بمقتضى المادتين ١٥ و١٦ من ميثاق عصبة الامم . واضافتا الى ذلك اتفاقاً يشمل التعاون بين هيئتي اركان الحرب في جيشهما ووعدت كلٌّ منهما بان لا تعقد محالفة مع دولة ثالثة قبل مشاورة صاحبتها

وعقدت رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا ثلاث معاهدات حدّدت فيها موقفها من هنغاريا وهذه المعاهدات هي أساس « الاتفاق الصغير » . والقاعدة في هذه المعاهدات الثلاث التعاون المتبادل في وجه اعتداء غير مستفزّ من هنغاريا على احداها . ثم الامتناع عن عقد معاهدة مع دولة رابعة الاّ بعد التشاور . والغرض العام الذي اتجهت اليه هذه المعاهدات كان على ما جاء في التوطئة هو المحافظة على السلام الذي اشتري بتضحيات عظيمة ونصّ عليه ميثاق عصبة الامم وكذلك صون الحالة الناشئة عن عقد معاهدة تريانون سنة ١٩٢٠

وهذا كلهُ يعني ان رومانيا وبولندة اتفقتا على صدّ روسيا وان رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا اتفقت على صدّ هنغاريا . وقد سبق ان قلنا ان فرنسا عقدت معاهدتين مع بولندة واحدة ومع تشيكوسلوفاكيا واحدة . اما صلتها برومانيا ويوجوسلافيا فلم تتعدّ معاهدتي التشاور والتعاون المعقودتين في ١٠ نوفمبر ١٩٢٦ (رومانيا) و ١١ نوفمبر ١٩٢٧ (يوجوسلافيا)

الاّ انك عند ما تدقق النظر في هذا النظام المعقّد ترى فيه كثيراً من مواطن الضعف . فالاتفاق الصغير قاعدتهُ صدّ المجر وحدها فليس فيه ما يحتم اشتراك دوله الثلاث في عمل ضدّ المانيا او ايطاليا او بلغاريا . وبولندة على الرغم من تحالفها مع رومانيا ، كانت شديدة العطف على هنغاريا فلم تبرم معاهدة تريانون ، وعلى شيء من الفتور من تشيكوسلوفاكيا . ثم ان تشيكوسلوفاكيا وطرفها الشرقي داخل كالاسفين بين رومانيا وبولندة ، لم تكن مرتبطة ارتباطها بوجوب التصدي لروسيا . أما مشكلة استقلال النمسا وضمانهُ فلم تعالج . وكانت جميع هذه الدول تحسب فرنسا صديقة لها وحليفة وتشد على مساعدتها في ساعة الضيق ، مع ان أساليب المساعدة وطرائق العون لم تبحث بحثاً مفصلاً . وكانت الصداقة وثيقة بين بنش وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا وماركيونتش وتيتولسكو وزيري خارجية يوجوسلافيا ورومانيا ، فلم يجرؤ أحد على الظن حينئذٍ ان هذه الصلات الوثيقة يمكن ان يعروها الانحلال

٢ — مرحلة التسلح المشترك

في سنة ١٩٣٣ أخذت عوامل الضعف تتطرّق الى هذا النظام الاوربي القائم على تفوق النفوذ الفرنسي . كانت جيوش فرنسا في منطقة الرين قد سحبت منها في يونيو ١٩٣٠ وحذفت مسألة التعويضات الالمانية في مؤتمر لوزان (١٩٣٢) من صدر النزاع السياسي . وألغيت المراقبة الدولية على أعمال المانيا الحربية . وفي ٣٠ يناير من سنة ١٩٣٣ تقلد الهر هتلر منصب المستشار في الحكومة الالمانية وأخذت الثورة الوطنية الاشتراكية طريقها المرسوم . وفي شهر أكتوبر من السنة نفسها فصم الهر هتلر كل صلة له بجنيف . فشعرت الدول المهدّدة في سلامتها انها لا يسعها الاكتفاء بضمانات السلام العامة المطوية في ميثاق العصبة . ولا سيما لان الولايات المتحدة الاميركية ظلّت متمسكة بمبدأ حرية البحار مما حدّ من رغبة بريطانيا في تطبيق مبدإ العقوبات (المادة ١٦ من ميثاق العصبة) تطبيقاً فعالاً خشية ان تصطدم باميركا . وكانت قوة الجيش الفرنسي قد أصيبت بما أوهنها بنقص مدة الخدمة العسكرية الى سنة واحدة . فلما تولّى المسيو لويس بارتو وزارة الخارجية الفرنسية ودرس هذه الحالة الجديدة وأدرك مغزاها بعث بمذكرته المشهورة الى انكلترا (١٧ ابريل ١٩٣٤) مبيناً فيها ان فرنسا تحفظ بحريتها في اعادة تنظيم جيشها وتعزيزه

هنا بدأت المساعي لتحقيق ما يعرف «بالسلامة المشتركة» بتحديد المقصود من تطبيق المادة ١٦ من ميثاق العصبة اذا اقتضت الحال تطبيقها . واسم المسيو بارتو مرتبط بهذه المساعي مع ان جانباً منها كان قد بذل في اللقان قبل دخوله الكابي دورساي

كان من شأن انبعاث القوة العسكرية الالمانية في هذه الفترة ان وجهت انظار وزراء الخارجية الفرنسية المتعاقبين — هريو وبونكور وبارتو — وكذلك قواد الجيش — فيجان وجاملان — الى فكرة واحدة ، وهي استغلال القلق البادي في الدوائر الروسية من جرّاء السياسة الالمانية البادية في مذكرة هوجنبرج المشهورة في صدد استعمار المانيا لبعض الاراضي الروسية . وان يكون غرض هذا الاستغلال هدم معاهدة رابالو الروسية الالمانية التي عقدت في سنة ١٩٢٢ ثم أيدت بمعاهدة ١٩٢٦ وجدّدت في مايو ١٩٣٣ في عهد الحكومة الوطنية الاشتراكية الجديدة في المانيا . وأدرك بارتو وقواد الجيش الفرنسي الفائدة الكبيرة التي تجنى من هدم الصداقة الالمانية الروسية واحلال الصداقة الفرنسية الروسية محلّها . ففي المقام الاول يتقي الخوف الذي يسود حلفاء فرنسا في شرق أوربا من طغيان روسيا عليها . وفي المقام الثاني تمتنع روسيا عن ان تكون مصدراً مهماً لكثير من المواد الخام التي يحتاج اليها الجيش الالماني . ويضاف الى هذا وذاك رغبة الحكومة الفرنسية في تأييد موسكو لنظرية « السلامة المشتركة » التي اقترحها الوفد الفرنسي في مؤتمر نزع السلاح ، والاعتماد على قوة روسيا الجوية في حالة قيام ازمة بين فرنسا والمانيا

وكذلك حفلت سنة ١٩٣٣ والسنتان اللتان تلتاها بمساعٍ سياسية متعددة لعقد مواثيق لضمان السلام ضماناً متبادلاً . ففي سبتمبر من سنة ١٩٣٤ ضمّت روسيا الى عصبة الامم . ويعود ضمّها الى العصبة الى رأي وسعي كلّ من بارتو الفرنسي وبنش التشيكوسلافاكي وبفنش اليوجوسلافي ورشدي أراس التركي وبوليتيس اليوناني وغيرهم ممن كانوا يرغبون في أن يروا دول أوربا المتوسطة والشرقية مرتبطة في اتفاق دفاعي يكفي لصد أي سعي من شأنه ان يهدم النظام القائم

وكان الرأي ان تكون فرنسا وروسيا قطبي هذه الكتلة احداهما في الغرب والثانية في الشرق . وكان الرأي كذلك ان تضم او تجمع مواثيق «السلامة المشتركة» في بضعة مواثيق اقليمية ، فيعقد ميثاق خاص بشرق اوربا الشمالي تنتظم فيه المانيا وروسيا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا ودول ساحل البلطيق . وآخر للبحر المتوسط تنتظم فيه الدول القائمة على سواحله . وثالث لاوربا الوسطى يكون اساسه اتفاق بين فرنسا وايطاليا وغرضهُ الاول ضمان استقلال النمسا

لم يحقق من جميع هذه المشروعات العظيمة الا النزر القليل . منها الاتفاق البلقاني في ٩ فبراير ١٩٣٤ بين يوجوسلافيا ورومانيا واليونان وتركيا ، وذلك قبل ان يتقلد بارتو وزارة الخارجية الفرنسية . وكانت قاعدتهُ محالفة عسكرية للدفاع عن الحدود القائمة في البلقان ولكن الاتفاق العسكري لم ينصّ في الواقع الا على التعاون بين ثلاث منها فقط في حالة هجوم بلغاريا . وقد اعتذرت اليونان عن الاشتراك معها في ذلك بأن سواحلها شديدة التعرض للخطر . ثم ان الاتفاق لا يحتوي على نص خاص بالتعاون بين دولة ضد احدى الدول الكبرى . ونذهب الى أبعد من هذا فنقول ان لا الاتفاق البلقاني ، ولا الاتفاق الصغير ، ولا الاتفاق البلطيقي ، يشمل نصّاً ما خاصّاً بمقاومة اعتداء تقوم به المانيا او ايطاليا

كان الطريق الى عقد الاتفاق البلقاني قد مهّد في سنة ١٩٣٣ بعقد معاهدات بين روسيا السوفيتية وجاراتها حدّد فيها معنى الاعتداء . وفي مقدمة هذه المعاهدات ما عقد بين روسيا والاتفاق الصغير . وبمقتضى هذه المعاهدات سلّمت روسيا بضم بسارابيا الى رومانيا ، تسليماً ضمنيّاً لان حدود الدول المتعاقدة وصفت وصفاً صريحاً فيها . وعلى اثر ذلك سحت روسيا لدى صديقتها تركيا فحملتها على الشروع في المفاوضة لعقد الاتفاق البلقاني

وأهم من الاتفاق البلقاني بين المعاهدات التي عقدت في هذه الفترة ، واوقع أثراً في السياسة الدولية ، المعاهدة الفرنسية السوفيتية (٢ مايو ١٩٣٥) وبمقتضاها قطعت الدولتان المتعاقدتان عهداً بالتعاون المتبادل وفقاً للمادتين ١٥ و١٦ من ميثاق عصبة الامم . وتبعتها في ١٦ مايو ١٩٣٥ معاهدة تشبهها بين روسيا وتشيكوسلوفاكيا . فلما فسّرت المادة ١٦ من مواد ميثاق العصبة في النزاع الايطالي الحبشي تفسيراً جعل تطبيق العقوبات على ايطاليا لا مفر منهُ بغدت هاتان المعاهدتان

بمنزلة تحالف عسكري ، لانهُ اصبح لكل دولة ان تعتبر اي اعتداء موجه الى غيرها من اعضاء العصبة كأنهُ موجه اليها . والفرق الوحيد بين المحالفات القديمة التي كانت تعقد قبل الحرب الكبرى وهذا انضرب من مواثيق التعاون المتبادل ، ان المواثيق الحديثة القائمة على أساس من المادة ١٦ في ميثاق العصبة ليست الاَّ مواثيق دفاعية

كان المشروع الذي قصد بارتو الى تحقيقه واسع النطاق كثير التعقيد والاشتباك وكان الرأي ان تشترك فيهِ جميع الامم وتجني منهُ فائدة الضمان المشترك لسلامتها . فروسيا مثلاً تعد بنجدة فرنسا اذا استهدفت لهجوم المانيا وبنجدة المانيا اذا استهدفت لهجوم فرنسي . وفرنسا تعد بنجدة المانيا اذا استهدفت لهجوم روسيا ، وروسيا اذا استهدفت لهجوم المانيا عليها . وهذا النوع من الترابط يجب ان يشمل معظم دول اوربا ، واذن فعقد الاتفاقات الثنائية بين الدول الاوربية الكثيرة كان يقتضي محادثات دبلوماسية لا نهاية لها . ففي شهر يوليو من سنة ١٩٣٥ فاز المسيو تيتولسكو من الملك كارول بالسعي لعقد ميثاق تعاون متبادل بين رومانيا وروسيا ، ولكن فرنسا أخَّرت ابرامها للميثاق الفرنسي الروسي الى شهر مارس من سنة ١٩٣٦ ولذلك لم يتقدم لتفنوف الى بحث مسألة الميثاق الروماني الروسي الاَّ في ٢١ يوليو من ١٩٣٦ موضحاً ان المفاوضات الرسمية تبدأ في شهر سبتمبر من تلك السنة في جنيف . ولكن تيتولسكو اخرج من وزارة الخارجية الرومانية في ٢١ اغسطس ١٩٣٦ فوقفت المساعي لعقد هذا الميثاق بين رومانيا وروسيا عند ذلك الحدّ . وفي الوقت نفسهِ كانت يوجوسلافيا تسعى لعقد اتفاق تعاون متبادل مع فرنسا فلم يمرها لافال اذناً صاغية ، وكذلك نرى انهُ ما توارت جثة بارتو في لحدها حتى كانت عوامل الانحلال قد تطرقت الى فكرتهِ

٣ — الحصول السلمية المشتركة

كيف يُفسَّر هذا التحوُّل ؟ ذلك ان المحرِّك القوي الذي كان يسوق دول أوربا المتوسطة والشرقية الى التفاهم والترابط في سبيل سلامتها المشتركة ، أصيب بما عطلهُ ووقفهُ عن الحركة . وكان الباعث على ذلك يرتدُّ جانب يسير منهُ الى النزاع الحبشي الايطالي ، أما الجانب الاكبر فكان يرتدُّ الى ما بدا من ضعف فرنسا وبريطانيا يوم ٧ مارس سنة ١٩٣٦ عندما دخلت الجيوش الالمانية منطقة الرين المجرَّدة من السلاح . هذا الحادث قضى على ما كانت تؤملهُ دول اوربا المتوسطة والشرقية من مساعدة فرنسا لها في محنتها . وكانت المفاوضات التي دارت بين ١٩٣٤—١٩٣٦ قد أثبتت أن السلامة المشتركة في حوض الدانوب لا يمكن تنظيمها بغير تأييد فرنسا لها ، وضمان مواثيقها . أما فرنسا فلم يكن في وسعها ان تؤيد وتضمن الاَّ اذا وافقتها انكلترا على ذلك

ان نظرة واحدة الى الخارطة الاوربية تحمل الباحث على السؤال : لماذا لم تعقد رومانيا وتشيكوسلوفاكيا معاهدة تعاون متبادل مع اتفاق مصلحتهما على وجوب عقدها . وتفسير ذلك ان كلَّ اتفاق من هذا القبيل لا تشترك فيه فرنسا او لا تضمنهُ فرنسا وتتعهد بمقتضاه ان تستعمل جيشها العظيم لشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني في الغرب، لا يمكن ان يقوم على أساس سليم

فاذا نظرت الى الحالة الاوربية هذه النظرة تبينت ان يوم ٧ مارس سنة ١٩٣٦ كان تاريخاً حاسماً . لانهُ ما زالت منطقة الرين مجرَّدة من الحصون والاستحكامات فلو وسع الجيش الفرنسي ان يوغل في المانيا من غير ان يلقى مقاومة تذكر وان يشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني فتعجز المانيا عن أي عمل حربي ذي شأن في شرق اوربا أو متوسطها . وفي هذه الحالة كان في وسع فرنسا ان تنذر المانيا اذا رأت منها ما يدلُّ على نية الاعتداء فتقول لها «الى هنا وكفى»

والجيش الفرنسي جيش قوي جدًّا (اذا استثنينا سلاحهُ الجوّي الآن) حسن النظام والتدريب . وحصون فرنسا على حدودها الشرقية أمنع من عقاب الجوّ . ولكن منذ احتلَّت الجيوش الالمانية منطقة الرين في ٧ مارس سنة ١٩٣٦ انشأت فيها حصوناً تجعل الدفاع عن المانيا سهلاً . ثم ان البلجيك ارتدت في شهر ابريل من سنة ١٩٣٧ الى خطة الحياد . وهذا جعل دول اوربا المتوسطة والشرقية على التفكير : هل تستطيع فرنسا وانكلترا في هذه الاحوال سبيلاً الى القيام بهجوم فعَّال على المانيا ، اذا حدَّثتها نفسها بالاعتداء في اوربا الشرقية او المتوسطة . وهذا التفكير هداها الى القول بأن جميع المعاهدات والمواثيق التي انشأتها لضمان السلامة المشتركة اصبحت غير قابلة للتنفيذ

فلننظر الآن في ما تمَّ بعد ما تبيَّنت دول هذه المنطقة الحقائق المتقدمة مما قضى الى انحلال الجبهة الفرنسية في وسط اوربا وشرقها

الاَّ ان الجبهة التي كان بارتو ساعياً في توحيدها وتعزيزها ، بدأت تتصدَّع في أيامهِ . فعقدت بولندة في ٢٦ يناير من سنة ١٩٣٤ اتفاقاً مع المانيا على تأجيل جميع المسائل المختلف فيها بينهما عشر سنوات وهو اتفاق يبدو اول وهلة انهُ عقد لمنع ما قد ينشأ بين الدولتين من نزاع ولا سيما بسبب الممر البولندي . الاَّ ان الواقع ان الباعث لالمانيا على عقده معرفتها ميل الكولونيل بك وزعيمه المارشال بلسودسكي . ذلك ان ميولها حملت المانيا على الاعتقاد بأن بولندة تحتفظ بجميع قواتها في المستقبل لمقاومة روسيا السوفيتية بل لمهاجمتها . وانها لن تكون كاملة الولاء لفكرة السلامة المشتركة . وانها ستسعى جهدها لمنع تشيكوسلوفاكيا بالدخول بينها من جهة وبين حليفتيها رومانيا ويوغوسلافيا في الاتفاق الصغير من جهة أخرى . وانها لا بدَّ ان تبذل مساعيها في براغ مع هتلين ضد بنش وفي رومانيا ضد تيتولسكو . والواقع ان تقدير المانيا

كان في محله ، لان الكولونل بك كان دائم السعي لاضعاف النفوذ الفرنسي وهدم ما ابتغته فرنسا من انشاء نظام « السلامة المشتركة »

ثم ان تفكير بلسودسكي العسكري كان لا يتلاءم مع النزعة السلمية في الدمقراطيتين الفرنسية والتشكية . واما بك فكان تلميذاً وفيًّا لاستاذه وزعيمه . نعم ان بولندة كانت حانقة لان فرنسا اهملتها بعض الاهمال في معاهدات لوكارنو ولانها قبلت ان توقع في ٧ يونيو من سنة ١٩٣٣ ميثاق الدول الاربع مع بريطانيا والمانيا وايطاليا . ومع ان هذا الميثاق ولد ميتاً لكن تأثيره النفسي في حلفاء فرنسا في أوربا الوسطى والشرقية كان بالغاً أقصى حدود الضرر . ثم ان بولندة أزعجها ان تقترح فرنسا في مؤتمر نزع السلاح خططاً لضمان السلامة قبل ان تستشيرها فيها . فلما اقترحت بولندة على فرنسا القيام « بحرب وقائية » على المانيا في سنة ١٩٣٣ أبت فرنسا ذلك فشرعت بولندة في الحال في المفاوضات مع برلين . ومهما تكن الاعذار التي يعتذر بها الكولونيل بك ، ومهما يبلغ تصريحهُ ببولائه لفرنسا ولصداقتها من البلاغة ، فالواقع الذي لا ريب فيه انه اختار طريقهُ . فاذا حدث ما أسلم أوربا الى ازمة لا مخرج منها الا بالحرب فعلى بولندة ان تختار ، واذا كانت الكلمة العليا للكولونيل بك حينئذٍ فالغالب انهُ يختار ان يكون في جانب الريخ الثالث . ولكنهُ مع مالهُ من المكانة ليس سيد بولندة الوحيد . ومنذ ما دخلت جيوش المانيا منطقة الرين في مارس من سنة ١٩٣٦ أخذت رومانيا ويوجوسلافيا تجري على خطة تشبه خطة بولندة من بعض الوجوه لتأمين سلامتها من دون ان تتخذ إحداها خطوة لا رجعة فيها

ففي ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٦ اخرج تيتولسكو من وزارة الخارجية برومانيا . فلما اجتمع مجلس الاتفاق الصغير في براسيلافا ، في احد اجتماعاته الدورية ، بعيد ذلك ، قرَّر حلَّ الوثاق الذي كان يربط الدول الثلاث منذ فبراير سنة ١٩٣٣ وذلك باعتراف المؤتمر بأنهُ من حق كل دولة ان تفاوض من تشاء من جاراتها وتعقد معها اتفاقاً وفقاً لمصلحتها الخاصة . وكانت الحجة ان تشيكوسلوفاكيا قد عقدت اتفاقاً مع روسيا في مايو من سنة ١٩٣٥ فلماذا لا يجوز ليوجوسلافيا او رومانيا ان تعقد اتفاقاً مع المانيا او ايطاليا اذا دعت الحاجة اليه . وكأن المجلس نسي حينئذٍ ان الاتفاق الروسي التشيكوسلوفاكي عقد بموافقة الدول الثلاث ، وان وزيري رومانيا ويوجوسلافيا كانا قد انضما الى وزيري تشيكوسلوفاكيا في تبيان الفوائد الجمَّة التي تجنى من عقد اتفاق روسي فرنسي . بل انهم ذهبوا الى ان الاتفاق الفرنسي الروسي اساس للاتفاق العام الذي ينوونهُ ، ولم يسلِّموا بالاتفاق الفرنسي الايطالي الذي عقد في ٧ يناير ١٩٣٥ الا عند ما تبقنوا ان باريس تنوي ان تعقد اتفاقاً آخر مع روسيا

وعلى الرغم مما حدث في مؤتمر برانيسلافة جدَّدت فرنسا مساعيها لتعزيز جبهة الاتفاق الصغير فأبدأت الدول الثلاث في نوفمبر من سنة ١٩٣٦ انها مستعدَّة ان تتخذ على نفسها عهوداً عسكرية وسياسية أزاء كلّ واحدة منها على نمط العهود التي تتخذها الدول الثلاث أزاء بعضها بعضاً. ولكن رومانيا ويوجوسلافيا لم تقبلا هذا العرض. لانهما لم تقبلا ان تتعهدا بمساعدة تشيكوسلوفاكيا ضدَّ المانيا. نعم ان عرض فرنسا لم يرفض رسميًّا ولكنهُ لم يقبل فهو اذن معلَّق

وماذا فعلت يوجوسلافيا بعد ما اتخذ مؤتمر الاتفاق الصغير ذلك القرار؟ عقدت مع بلغاريا معاهدة في ٢٤ يناير سنة ١٩٣٧ اتفقت فيها الدولتان على ان لا تحارب احداهما الاخرى مطلقاً ولكن الاتفاق البلقاني كما لا يخفى يقضي على يوجوسلافيا بأن تشترك في الدفاع عن اليونان او تركيا او رومانيا في حالة اعتداء بلغاريا على احداها — ومع ذلك اكد المسيو ستويادينوفتش رئيس وزراء يوجوسلافيا لحلفائه في الاتفاق البلقاني ان اتفاقه مع بلغاريا لا يحول دون وضعه ما تقتضيه منهُ نصوص الاتفاق البلقاني!

ثم انهُ عقد اتفاقاً سياسيًّا مع ايطاليا في ٢٥ مارس سنة ١٩٣٧ وبه وعدت ايطاليا بالامتناع عن اي سعي موجه الى سلامة الاراضي اليوجوسلافية ووعدت يوجوسلافيا مقابل ذلك ان تتشاور مع ايطاليا في حالة نشوب ازمة دولية للاتفاق على موقف مشترك. وهذا لا يتواءم ونصوص المعاهدة الفرنسية اليوجوسلافية المعقودة في سنة ١٩٢٧ والمجددة في ١٩٣٢ ثم في اكتوبر من سنة ١٩٣٧. وتفسير ستويادينوفتش لهذه المفارقة ان التشاور والاتفاق على موقف مشترك اختياريٌّ في المعاهدة مع ايطاليا واجباري في المعاهدة مع فرنسا لان المعاهدة اليوجوسلافية الايطالية تستثني اي عهود قطعتها حكومة بلغراد في اتفاقات سابقة. ومما يذكر في هذا الصدد ان معاهدتي يوجوسلافيا مع بلغاريا وايطاليا عرضتا على حلفاء يوجوسلافيا ولكنهما عرضتا عن انهما امر واقع فاما ان تقبلا واما ان ينهار الاتفاق البلقاني والاتفاق الصغير

وماذا تم في رومانيا؟ لم تجار بولندة ويوجوسلافيا في اقصائها انفصالاً صريحاً عن الكتلة التي سعت فرنسا الى انشائها في شرق اوربا ووسطها. ولكن وزارة تاتاركو شرعت في ربيع سنة ١٩٣٧ في مفاوضة بولندة وايطاليا. إلا أن فرنسا تدخلت في الموضوع وبذلت ما لها من مقام ونفوذ في بوخارست للحيلولة دون انتهاء هذه المفاوضات الى اتفاق معيَّن. ولا يخفى أن الكولونيل بك وزير خارجية بولندة لا يني عن بذل سعيه في رومانيا ضدَّ فرنسا. ولكن نجاحهُ كان متعذراً ما زال بقولاي تيتولسكو وزيراً للخارجية. ولذلك ظلَّت المعاهدة الرومانية البولندية الموجَّهة ضدَّ روسيا حرفاً ميتاً في اثناء عهد تيتولسكو فلما أخرج من وزارة الخارجية الرومانية في اغسطس ١٩٣٦ جدَّد الكولونيل سعيه. وكبر الأمل في تحقيق أغراضه عند ما

قامت وزارة جوجا في أواخر السنة الماضية . ولكن سقوط وزارة جوجا وقيام وزارة الطريرك كرمنيا وإعادة تأليفها من عهد قريب جعل الحالة في رومانيا غامضة وان كان السعي المبذول في الاسابيع الاخيرة للقضاء على الحرس الحديدي دليلاً على ان الملك كارول — وهو حاكم رومانيا الحقيقي الآن — ينوي ان يحتفظ بما يربط رومانيا بفرنسا وانكلترا من الرى

خاتمة

هذا أهمّ ما يمكن ان يقال الآن عن تطور الحالة في «منطقة الشعوب الصغيرة» . اما ما يأتي به الغد وهل تفوز المانيا ببسط نفوذها على هذه المنطقة ، او تعود بمعظم هذه الدول فتلتف حول الدمقراطيتين الغربيتين ، فيتوقف في رأي الكاتب الفرنسي برتينا كس — وعلى مقال لهُ في مجلة الشؤون الخارجية الاميركية [1] عدد ابريل ١٩٣٨ اعتمدنا في كتابة هذا الفصل — على حزم انكلترا وفرنسا . فاذا بدا لهذه الدول الصغيرة أن فرنسا وانكلترا عادتا قوة فعّالة في السياسة الاوربية عادت هذه الدول الى تأييد مساعيهما . وإذا ثبت ضدّ ذلك ، فانها لا بدّ لها من ان تمضي في خطتها البادية في موقف بولندة ويوجوسلافيا ، الى أن تصبح مضطرة جزءاً من « أوربا الوسطى » — مثل أوربا — الخاضعة للسيطرة الالمانية

ويروي «برتينا كس» في آخر مقاله هذا انهُ كان في لندن في الاسبوع الثالث من شهر فبراير الماضي — بعد ان اجتمع الهر هتلر بالهر شوشنج في برختسجادن (في ١٢ فبراير) وحملهُ على اجابة بعض مطالبه كضمّ الهر زايس انكوارت الى وزارته وتقليده منصب وزير الداخلية فيها — تخطب في فريق من اعضاء مجلس النواب البريطاني مبيّناً ان ما تمّ في النمسا لم يكن الاّ نتيجة لعجز فرنسا عن القيام بعمل حاسم في ٧ مارس سنة ١٩٣٦ فهتفوا لهُ . وثنين على كلامه . ولكن في يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٣٨ تلقى المسيو كوربان سفير فرنسا في لندن امراً من حكومته بان يخاطب المستر ايدن وزير الخارجية البريطانية في ارسال تصريح انكليزي فرنسي مشترك الى برلين تعرب فيه الحكومتان عن عزمهما على مقاومة كلّ اعتداء على المعاهدات الدولية الخاصة باوربا الوسطى . فأعرب ايدن عن موافقته على هذا الرأي ولكنهُ لم يلبث حتى اضطرّ أن يستقيل من وزارة الخارجية لما بينهُ وبين رئيس الوزارة من خلاف أساسي في الرأي والاسلوب ولا سيما في ما يتعلق بالمفاوضات مع ايطاليا . أما الاقتراح الفرنسي فلم يرفض ولكن المستر تشمبرلين صرّح في مجلس النواب بأنهُ ينوي ان يسعى ثانية للاتفاق مع ايطاليا والمانيا . ولا يخفى ان الجيوش الالمانية دخلت النمسا (في ١١ مارس) فلم تحرك فرنسا ولا انكلترا ساكناً غير الاحتجاج ثم أُيّد ضمّ النمسا الى المانيا في استفتاء ١٠ ابريل . وفي ١٦ ابريل تم توقيع الاتفاق البريطاني الايطالي

(١) Foreign Affairs, April 1938 pp 401 — 416

مكتبة المقتطف

تآليف المستشرقين

بقلم الدكتور بشر فارس

— ١ —

Henri Pérès — La Poésie andalouse en arabe classique, au XIe Siècle — Editions Adrien—Maisonneuve, Paris 1937.

هنري بيريس — الشعر الاندلسي باللغة الفصحى في القرن الحادي عشر (للمسيح) ظواهره العامة وقيمته من حيث هو وثيقة — ٤١٠ ص — ٢٥ × ١٦

الاستاذ هنري بيريس مستشرق فرنسي معروف ، لهُ مباحث طريفة موقوفة على الآداب العربية وقد يفقدت بعضها في هذا الباب من المقتطف . والاستاذ بيريس من أساتذة كلية الآداب في الجزائر . وها هو ذا يخرج مؤلفين نفيسين في وقت واحد ، أحدهما الذي بين يدينا والآخر عنوانه : مسابة في أعين الرحالين المسلمين من سنة ١٦١٠ الى سنة ١٩٣٠ (ارجع الى نقدي لهُ في مجلة الرسالة ، عدد ٢٥١ ، البريد الادبي)

يرى المؤلف ان الادب الاندلسي للقرن الحادي عشر للمسيح قليل الحظ من عناية البحّاثين . والتحقيق أنهُ على جانب عظيم من الشأن لأسباب ، منها تبدل المجرى السياسي ببروز ملوك الطوائف على انقاض الدولة الاموية ، وتحرر الافكار من الضغط الديني بفضل تآليف الفلاسفة ، وتمخض الشعر الاندلسي مستقلاً عن العناصر الشرقية ، وتسرُّب الفكرة القومية اذن في نواحي الشعر . واعتماد المؤلف في سبيل فحص الشعر الاندلسي لذلك العهد على القصائد والمقطوعات المنظومة باللغة الفصحى دون اللغة الدارجة اي دون الازجال لان هذه كانت نادرة في ذلك الزمان . وطريقة عرض المؤلف لمباحثه ان ينظر في الشعر ظاهره وباطنه فينقل الجانب اللامع منهُ الى اللغة الفرنسية مع سوابقه ولواحقه مخافة ان يجيء الشعر أبتر . وما النقل فما لا يخفى على المؤلف ان ترجمة الشعر العربي من المصاعب ، الاَّ انهُ لزم النص حتى انهُ ربما نقل البيت حرفاً بحرف ارادة ان يحافظ على الروح والمدلول

والكتاب مقدمة سهبة يبسط فيها المؤلف مجرى الحياة السياسية ثم ما يتعلق بشؤون العنصر والقومية فيها بشرح نفسية الاندلسي وهناك يقابل حزب الاندلسيين بحزب البربر . والمقدمة توطئة علمية تُرسل على نواحي الكتاب كلها ضوءاً وهّاجاً . اما مباحث الكتاب نفسه فتنقسم اربعة اقسام . احدها موقوف على الشاعر وتكوينه وحالته الاجتماعية واتصاله بالملوك والامراء .

والآخر محصور في الهام الطيبة للشعراء . والثالث يتناول الحياة الاجتماعية . والرابع الحياة المنزلية

واما القسم الاول فيعرض طرق انتشار اللغة العربية في الاندلس ، ويذكر الكتب والمواد التي كانت تقرأ وتؤخذ ، ويشير الى ما اقتبسهُ الاندلسي من الشرق ثم الى انزوائه عنهُ وتخلصه من قيده ، ويسرد طبقات الشعراء وضروب الشعر ، ويدوّن الوان الشعر التي توحيها حياة القصور

واما القسم الثاني فيعرض مصادر الوحي الخاصة بالطبيعة الاندلسية ، نذكر منها : الصيد والمدينة والمتنزهات والقصور ، قرطبة « وعجائبها الاربع » ، اشبيلية وظواهرها ، المرية وضواحيها ، وغيرها من البلدان والقرى . ثم الاودية والجبال والحدائق والخمائل والازهار والفواكه والحضرة والبحيرات والجداول والبحر والسفن والسماء وما فيها ثم ما يتصل بها كالامطار والبروق ، ثم الحيوانات من ذوات الاربع والطير والحشرات

واما القسم الثالث فيستخرج من الشعر مجموعة مدلولات على الحياة العامة كالسكان وعناصرهم والاقتصاد والاحوال الشخصية (من زواج وموت وملبس ومشرب) والترف والاستحمام واللعب والرياضة والحرب ثم اللهو على ألوانه من مآدب وشرب النبيذ وسماع الغناء

وأما القسم الرابع فخاص بالمرأة والرجل والحب . وفيه تحليل لطيف لالوان شعور المرأة واخلاق الرجل ومراتب الحب

هذا وقد جعل المؤلف للكتاب خمسة فهارس : الاول للاعلام والثاني للشعراء والثالث للمراجع والرابع للالفاظ الفنية والخامس للالفاظ العربية المدونة بالفرنسية

فانك لترى ما شأن هذا الكتاب الجليل ، يبرز لنا قرناً كاملاً من طريق الشعر

وهذه طريقة من البحث العلمي مستقيمة مفيدة

وجل ما يؤخذ على الكتاب بعض اوهام في الترجمة . منها :

bienveillant للفظة « تسمح » (ص ١٢٥) والوجه tables, généreux للفظة « موائد » (ص ٣١٦) والوجه tables servies لان المائدة خوان عليه طعام

expérimenté للفظة « ماهر » (ص ٣٢٤)، والوجه maître (bijoutier) واللفظة الفرنسية التي أوردها المؤلف تفيد لفظة « خبير »

mélodies للفظة « ترنّم » (ص ٣٩٢) ، والوجه psalmodie ، واللفظة الفرنسية تفيد لفظة « الحان »

spirituels للفظة « ظرفاء » (ص ١٧٥) ، والوجه agréables

بقي ان المؤلف قال في الحاشية الاولى لصفحة ٢٢٥ ان النسبة تفيد نسبة المسلم الى اورومته والوجه « العربي »

— ٢ —

Ibn Hayyan—Al Muktabis - tome IIIe—Texte Arabe publié par le P. Melchior M. Antuna, O. S. A. — Editions Geuthner, Paris 1937.

القسم الثالث من كتاب المقتبس في تاريخ رجال الاندلس ، للمؤرخ الشهير أبي مروان حيان بن خلف المعروف بابن حيان — نشره الأب ملشور م . انطونية — ٢٢ ص باللغة الفرنسية و ١٧٥ للنص العربي — ٢٤½ × ١٨

لهذا السفر مقدمة مسهبة يتكلم فيها الناشر على ابن حيّان من كتّاب القرن الخامس. فيذكر مكانتهُ العالية بين سائر المؤرخين من العرب وان ضاع الجانب الاكبر من تآليفه . ثم يترجم له ترجمة وافية إذ يخبرنا أبن ولد ونشأ ثم كيف أخذ العلم وعمن أخذه ثم لمن بذله ثم في اي الفنون كتب وما كتب . وينتقل بعد هذا الى وصف المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما في نشر الكتاب . ثم ينصرف الى تدوين المصادر التي عوّل عليها ابن حيّان ، وتراه يذهب في هذا الفصل الى أن المؤرخ الاندلسي اطلع على سير وأخبار من أقلام النصارى . ثم يختم المقدمة بذكر اثر ابن حيّان في تآليف من جاء بعده من المؤرخين

وميزة هذا الكتاب انهُ يسرد في أسلوب سهل على ركاكة او ضعف أحياناً الحوادث التي وقعت في عهد الامير عبدالله صاحب قرطبة وجدّ الخليفة عبد الرحمن الثالث . والجانب الاكبر من هذه الحوادث ترجع الى حروب وغزوات

هذا وقد بذل الناشر الأب ملشور م . أنطونية جهده في التثبت والتدقيق ، إلا أن هنالك بعض أوهام لا بدَّ من التنبيه عليها . منها :

ص ١١٥ ، س ١٠ : وهي (مدينة ياسة) في خير الطاعة — والوجه : حيّز

ص ١١٧ ، س ١٤ : وأنفذ القائد أحمد بن محمد رسله الى المدينة لورقة معذراً الى الخبيث ديسم . . . — والوجه : متذراً

ص ١١٧ ، س ٢ (تحت) : فنشبت حرب — والوجه : فنشبت حرب

ص ١١٩ ، س ٧ : ووافى بها (بأشبيلية) أيضاً دوء وزيع ومطر — والوجه : نوء (راجع ص ١٦ ، س ١)

ص ١١٩ ، س ١٢ : ثم صار العسكر متردد على تلك الحصون — والوجه : يتردد

ص ١٣٣ ، س ١٥ : ذاك الخبيث المراي بالزهد — والوجه المرائي

ص ١٣٣ ، س ١٧ : وتدبر برائه — والوجه : برأيه

ص ١٣٦ ، س ١٨ : فلتفر عليه الهزيمة — والوجه : فلتقر

ص ١٤١ ، س ٢ : يستقرى قراءها ويقصي أكنافها — والوجه : قراها
ص ١٤١ ، س٦ (تحت) : وجال السكر في تلك الجهة أياماً يحرق ويدمر والوجه : يحرّق ذلك الى ما هنالك من الجمل المتشابهة (مثلاً : ص ١١٥ س ١٠ ، ١١ — ص ١٣٦ ، آخر الصفحة — ص ١٤١ ، س ١١) والغلطات المطبعية (مثلاً : ص ١٢٠ ، س ١١ — ص ٦)

— ٣ —

Biographie des grammairiens de l'Ecole de Basra, par ... as-Sirafi publié et annoté par F. Krenkow—Bibliotheca Arabica, Faculté des Lettres d'Alger. 1936

كتاب اخبار النحويين البصريين . تأليف ابي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي . اعتنى بنشره وتهذيبه افتر عبد الله ال رحته فرنسيس كرنكو — ٩ صفحات للمقدمة الفرنسية ، و١١٦ للنص العربي ، و٣ ألواح للمخطوطة — ١٩½ × ١٢½

إن هذا الكتاب يخرج في عهد شغل علماء العربية فيه بعلم النحو ، إذ يقلبون فيه النظر ارادة تهذيبه وتقريب مناله الى طلبة العلم . والتحقيق ان الكتاب لا يبحث في المسائل النحوية ولا يعرض لمتوياتها ، غير أنهُ يلوح اليها في سرض الكلام على أئمة النحو . وخير ما يستخرج من هذا الكتاب انهُ يرتب النحويين البصريين فيجعلهم طبقات ثم يوازن بينهم، حتى إنك تستطيع أن تميز النحوي الثقة من النحوي الضعيف . وانها لنتيجة جليلة

هذا وللكتاب ثلاثة فهارس : الاول لاسماء الرجال والقبائل ، والثاني للاماكن ، والثالث لاسماء الكتب

وأما نشر الكتاب فحسن على وجه الاجمال ، وثمة هنات أشير اليها :

ص ٥٩ ، س ١٠ : (شعر) فتولّى لم يُمتَّعْ بكفنْ — والوجه : يُمتَّعْ .
ص ٦٢ ، س ٢ : فنظير فيه — والوجه : فنظر .
ص ٦٣ ، س ١ : (تحت) بين يدي الناس — والوجه : أيدي .
ص ٦٤ ، س ٥ : نمي إليَّ انّ الرشيد . . . — والوجه : نُمي .
ص ٧٥ ، س ٦ : خلّفتُ أخيَّهَ لي أصغر مني اقيمها مقام الوالد — والوجه : الولد (كما في الاصل ، انظر الحاشية)
ص ٧٥ ، س ٢ : (تحت) : تقول ابنتي حين جدّ الرحيل أرانا سواء ومن قد يتمّ
ترانا اذا ما . . . . . .
والوجه : أرانا (كما في البيت الاول ثم كما في ديوان الاعشى ص٣٣ ، والبيت لهُ)

— ٤ —

Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun 2e partie. Editions Paul Geuthner, Paris 1936

مقدمة ابن خلدون — المجلد الثاني — ٤٩٣ ص — ٢٤ × ١٦

إن مقدمة ابن خلدون فوق التعريف . وقد اشتدت عناية علماء الفرنجة لهذا العهد بها منذ اليوم الذي فيه اتخذت العلوم الاجتماعية ينبسط ميدانها ويعلو شأنها ، ولا سيما بعد قيام المدرسة الفرنسية الجارية على سنن دُركايم Durkheim . ذلك ان رجال هذه المدرسة أصابوا في مقدمة ابن خلدون ما يساير آراء دركايم ونظرياته . وما أعرف مفكراً عربيًّا قديماً يظفر الآن بما يظفر به ابن خلدون من العناية . فالرسائل فيه متلاحقة في المشرق والمغرب

ومما لا يجهله احد ان مقدمة ابن خلدون نقلها البارون دي سلان الى اللغة الفرنسية في باريس حوالي سنة ١٨٦٠ . وقد اصبحت الترجمة عزيزة نادرة . فقطن ناشر فرنسي لاخراجها مرة ثانية للمشتغلين بالمشرقيات والاجتماعيات . فظهر الجزء الاول منها سنة ١٩٣٤ (اطلب ديسمبر وابريل ١٩٣٤) . واليوم ظهر الجزء الثاني . وعسى ان يظهر الجزء الثالث وهو الاخير قريباً فتعمّ الفائدة ، وان كانت ترجمة البارون دي سلان موضع نظر أحياناً لانتقال لغة الفلسفة من مذهب الى مذهب في اثناء تسعين سنة . ولعلي افصّل هذا عند ظهور الجزء الثالث

— ٥ —

Abstracta Islamica. (3e Série) Revue des Etudes Islamiques. Editions Geuthner, Paris.

يعنى الاستاذ لويس ماسينيون المستشرق المعروف وأحد اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي باثبات مجرى التأليف الخاص بالعرب والاسلام في المجلة التي يخرجها في باريس « مجلة الدراسات الاسلامية » . ففي الجزء الرابع من سنة ١٩٣٥ والجزء الثاني من سنة ١٩٣٦ يصيب القارىء عناوين التآليف وأسماء المؤلفين مدونة على حسب الموضوعات . وهذه الموضوعات كما يلي :

تاريخ العلوم في البلاد الاسلامية — الفلسفة وعلم الكلام — فقه اللغة والتربية — علم الاجتماع واحوال الشعوب — تاريخ الادب ونشر النصوص — الفن والزيارة (اي المعاد ، والكلمة للعلامة الاب انستاس الكرملي ، انظر « اهرام » ٣/٤/١٩٣٨ ص ٣) — تاريخ الادب الفارسي والتركي والعبري — والعربي — التشريع والتقنين والتدبير — التاريخ الديني : محمد والقرآن — التصوف والفرق — الاستحداث — الاستعمار الاوربي والسياسة العصرية — الاسلام : نظرات عامة وصلة الاسلام بالغرب — المخطوطات والببلوغرافيا — المصادر والمؤتمرات والمجلات

وقد اشترك في اثبات هذه التآليف كلها الاستاذ لويس ماسينيون والاستاذ بول كراوس والاستاذ هنري شارل

ولا يسع الناقد الاّ أن يفرح بمثل هذا العمل المفيد ، إذ انهُ يذلل للباحث المراجع مفصلةً وافيةً . ولربما نبّه على بعض سقطات في كتابة الالفاظ والاسماء العربية باللغة الفرنسية ، نحو كتابة لفظة الربع هكذا : الربه (ص ٣١٠) ولفظة اللآلىء هكذا : اللألىء . (ص ٣٠٧) واسم ابن العربي هكذا : ابن الاربي (ص ٣٠٤) ب. ف.

الفصول والغايات

في تمجيد الله والمواعظ

لأبي العلاء المعري — ٤٨٢ ص من قطع المقتطف — يطلب ثمن علبة الرسالة بالقاهرة

ضبطه وفسر غريبه ونشره محمود حسن زناتي

ان ناشر هذا الكتاب — الاستاذ الشيخ محمود حسن زناتي — ممن الِف المخطوطات ووطن النفس على النظر فيها وعلى جمع الكتب والتصانيف خطاءه وصحيحه ، ذلك بانهُ ظل زماناً اميناً للخزانة الزكية وهي خزانة شيخي المرحوم احمد زكي باشا . واكبر شاهد على هذا انهُ لما اعتزل عمله عقد النية على نشر طائفة من اسفار المتقدمين . وها هوذا يخرج علينا اول ما يخرج بكتاب ضخم له مكانة رفيعة ، كتاب الفصول والغايات للامام الاكبر واحد عصره وفخر العربية نثراً وشعراً وفلسفةً أحمد بن عبد الله بن سليمان . . . التنوخي المعري صاحب اللزوميات ورسالة الغفران

واذا نحن أغفلنا التنويه بالمؤلف فما يحسن بنا ان نشير الى قدر الكتاب . فاعلم انهُ من الكتب التي شاع عنها انها ضاعت والتي قيلت فيها اقوال منها أن « الفصول والغايات » مؤلف يجنح الى الكفر لان صاحبه عارض به القرآن وأراد ان يأتي بالاعجاز البعيد . والتحقيق ما اثبتهُ الاستاذ زناتي في « المقدمة » من ان الكتاب انما تجري غايته الى « تمجيد الله والمواعظ » من طريق الافتنان في الكتابة من تدوين الغريب وارسال النوادر وبث الطرف وهي طريقة معروفة لأبي العلاء

هذا وأما نشر الكتاب فيدل على العناية الشديدة التي بذلها الاستاذ زناتي بين تحقيق وتدقيق ونظر ومراجعة . وجل ما كانت تتوق اليه النفس أن يذهب الناشر في كتابة المقدمة الى ابعد مما ذهب اليه من التعليق على الكتاب نفسه ومن الوصف للنسخة الخطية التي اعتمد عليها (وهي بالخزانة التيمورية برقم ٨٣٨ أدب) على حسب ما يصنع الناشرون اليوم . ثم ان الكتاب تعوزه طائفة من الفهارس منها فهرست للاعلام واسماء الاماكن ب. ف.

الخلل السندسية

في الاخبار والآثار الاندلسية

تحفة من تحف الامير شكيب أرسلان

عطوفة الامير شكيب ارسلان في غنى عن التعريف الى جملة الاقلام في هذه الدنيا العربية لان الادباء والعلماء في هذه الايام أحد رجلين بالنسبة الى الأمير أعزه الله :

إما عالم امتلأت نفسه اعجاباً وتقديراً لفضل الامير في مختلف نواحي العلم والادب وإما متعلم من بحره الزاخر وفيضه العظيم والرجلان يعترفان من صميم القلب بأن الامير حجة العرب في هذا القرن وناط فخرهم في هذا العصر

الله أكبر ما هذا البحر الزاخر وما هذه الروح السامية والادب العالي والوطنية العاملة وما هذا الرجل الذي لا ترتاح نفسه المتواضعة الا الى خدمة يسديها الى العالمين العربي والاسلامي ، فهو السياسي الذي ينوب عن ملايين العرب والمسلمين في جنيف يدافع عن قضاياهم العديدة فيهاجم أخصامهم ويشرح حججهم وينشر حقيقة أمرهم فاذا ظهر كتاب لعالم أو مقالة لسياسي او رسالة لمستشرق وفيها شيء أو بعض شيء يتسط حق العرب او يحاول الحط من فضلهم أو النيل من الاسلام وشعوبه رأيت الامير لا تهدأ ثائرة نفسه حتى ينشر في الحال الرد المفحم فيقرع الباطل بحجته ويرفع صوته عالياً يدوي في الاندية السياسية والعلمية والادبية

انك ليملكك العجب حين تعلم انهُ على الرغم من نصح الاطباء لهُ يواصل اخوانهُ في مختلف بقاع الارض بالرسائل العامة والخاصة فيجيب عن كل سؤال ويتقدم بكل نصيحة ويواسي كل مظلوم ويدافع عن كل مضطهد

أما ناحيته العلمية والتي يحاول ان ينقطع لها في هذه الايام فهي من أهم نواحيه وسيرى العالم العربي على الرغم مما رأى من آثاره الكثيرة آثاراً خالدة يستجم لها في جنيف ولا يمضي عام أو بعض عام حتى يخرج الامير كتاباً خالداً في الموضوعات التي يتوق لها العلماء والمفكرون في العالم العربي

ولقد عرف الامير ايده الله بأشد الغيرة على تراث امته العربية وولع منذ نعومة اظفاره بدراسة تاريخ الاسلام وحضارة العرب في الاندلس ذلك الفردوس المفقود وقد تجلى ولعه هذا في ترجمة رواية آخر بني سراج وما علق عليها . ولما شاءت الحال ان تتيح للامير زيارة الاندلس منذ اعوام قريبة — وهي امنية طالما كان يرجو تحقيقها — انصرف بوشذ بكليته الى تطبيق النظريات

التاريخية على الحقائق الملموسة فزار الممالك والبلدان وجاس خلال الدور والقصور وشاهد المساجد والمعابد ووقف مبهوراً امام عظمة القصور الشواهق وغاص في غمرات ذلك الفردوس العظيم فتفقد كل مدوسة وكل مكان فوصف كل شيء رآى وأرجعهُ الى اسمه العربي وشرح تاريخه وايامه البيض واستقرأ الآثار واستخرج عبرها فرَّ بكل قطر وأحاط بكل عصر

ثم افرد الفصول الضافية عن الحياة الاسلامية في تلك الجنان وكيف أُخرج منها المسلمون كما اخرج ابو البشر آدم من الخلد ولم يترك حادثة تتعلق بأحوال الامة الاسلامية في الاندلس لها علاقة تاريخية او علمية او سياسية الاَّ اشار اليها

جمع الامير كل هذا في كتابه «الحلل السندسية» الذي نحن بصدده فكان مؤلفاً فريداً لا يمكن لعالم او اديب او سياسي من ساسة العرب ان يستغني عنهُ خصوصاً وان المؤلفات عن فردوس الاندلس باللغة العربية قليلة من جهة وناقصة من جهة اخرى

فقد رجع الامير الى مئات المصادر فصحح رواياتها بما لديهِ من صحيح السند فأنكر الباطل وأحق الحق وأخرج طائفة من الاسماء تعد بالمئات من عجمتها المغلوطة الى عربيتها الصحيحة مما يدل على سعة منقطعة النظير في حب البحث والصبر على استخراج الحقائق من مكامن بعيدة واماكن ليس من السهل الوصول اليها

وقد جمع بين دفتي الكتاب مجموعات كبيرة من صور ملوك القوط والاندلس وآثار الحضارة الاسلامية بفنونها ومعابدها وصور القادة والوزراء وبعض وقائع تلك الايام ايام الوصل بالاندلس وعهد المجد الذي خلده العرب في تلك الدنيا التي مرت كلمحة الخلس

وسرد الامير شكيب في رحلته هذه اسباباً تعتبر من اقوى الادلة على ما اصاب العرب من اسباب الضعف بعد تلك القوة ودلل عليها باستقراء واستنتاج يبعثان على الدهشة حتى يخيل اليك وانت تطالع ما كتب وتقارن بما كتب الغير — انك ذهبت الى تلك البلاد وعاشرت اهلها ودرست عن كثب حالتهم النفسية من كل وجوهها

وقد اهدى الامير رحلته هذه الى روح ابي المطرف الخليفة امير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الاموي الذي يعجب بهِ المؤلف اكثر من كل خليفة حاشا الخلفاء الراشدين

***

وقد تولى طبع هذه الرحلة ونشرها السيد محمد المهدي الحلبي صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وقدم لها بمقدمة اوجزت ما في الكتاب ودلت على تقدير عظيم للمجهود الجبار الذي بذلهُ المؤلف الجليل حتى أخرج للعلماء والباحثين هذه الموسوعة الاندلسية التي أضافت الى المكتبة العربية ذخراً من انفس الذخائر

***

المعجمية العربية

على ضوء اللُّغات والألسُنية السامية

للاب ا . س . مرسيه اليسوعي أحد أساتذة معهد الكتاب والآثار الشرقي في القدس
الشريف مطبعة الآباء الفرنسيسيين في القدس سنة ١٩٣٧ . ثمنه ٢٥٠ ملا

هو كتاب لغوي يبحث في بعض الالفاظ العربية وأصلها بحثاً دقيقاً ويبحث في تاريخها والبلاد التي نشأت فيها أفارسية هي أم عربية أم ارمية أم عبرية أم حبشية والبحث دقيق جداً فيه طلاوة يستهوي القارىء . ولما كنت عاجزاً عن نقد هذا الكتاب لجهلي اللغات السامية الا لغتي العربية وهذه لا أعرفها الا معرفة ضعيفة محدودة ولكنني سأستعرض بعض الالفاظ التي جاءت فيها استعراضاً . وجملة الالفاظ نحو خمسين لفظاً واليك بعضها

البارية ليست بفارسية

قال المؤلف سُئلت احدى المجلات هذا السؤال (« أصاب اصحاب المعاجم العربية بقولهم البارية او البورية الحصير المنسوج من القصب وهي كلمة معربة أصلها فارسي » فان كان صحيحاً فما هو اللفظ الفارسي الاصل وما هو مدلوله ؟ وان لم يكن فما رأيكم في الامر) ؟ فأجابت المجلة « البارية او البورية فارسية لا تحتمل شكًّا وهي في هذه اللغة بوريا بضم الباء ضمًّا غير صريح ومعناها الاصلي نوع من القصب يكثر في الآجام ويشبه البلاج ببعض الشبه تتخذ منهُ هذه الحصر او البواري » . واما الظاهر لنا فهو ان البارية او البورية ليست فارسية قطعيًّا فما اصلها اذن ؟ ذاك ما يجيب عليه هذا المقال ثم أجاب المؤلف عن هذا السؤال ببحث استغرق ١٢ صفحة ذكر فيها اصلها بالاكدية والعبرية والارمية والحبشية وأتى بالشواهد الكثيرة على ان البارية اصلها من العراق اي البلاد الشمرية الاكدية وهي اكدية في الاصل من كلة بورو ومعناها البراع او القصب وانها عراقية فحة عمرها مايناف على الاربعين قرناً

ثم الكلمة التالية

اصل الحواريين فقد قال فيها ما ملخصهُ . قال : الظاهر مما تقدم ان لفظة الحواريين قرآنية أم غير قرآنية ليست مشتقة من حَوَر وأنهم قوم كانوا قصَّارين او ملوكاً او أنقياء القلب او أنصاراً ولا هي سريانية بل حبشية معناها الرسل دخلت العربية بدخول الحبشة الى اليمن وعن أهل نجران تلقاها عرب الحجاز منهم

ثم كلمة الحج

فقد قال فيها هو يدل على اجهاد النفس انتقل معناه الى معنى الرقص ثم الدوار فالاحتشاد فالموسم فالعيد فالقصد فزيارة أحد المقادس فزيارة كنيسة نجران عند نصارى العرب فزيارة كنيسة القيامة فزيارة الكعبة المكيّة

أصل كلمة داوية

كان في ايام الصليبيين فرقتان من الرهبان دعاهم العرب أحياناً الاسبتارية أو الاسبتالية والاشبهية في أن هؤلاء هم رهبان المستشفيات وآخرين داوية وهذه سريانية معناها الفقراء اي الاخوة الفقراء

أصل كلمة الفصح

وهي عبرية وكلمة توراة كذلك عبرية وكلمة إيل وبيت لحم واللحم واللقم وكلمة صلاة وصورت السريانية وسورة القرآنية

أصل كلمة هيكل

هذه اللفظة من عداد الالفاظ الواردة في اللغات السامية جمعاء اي الاكّدية والعبرية والارمية والعربية والحبشية . أما المعاجم العربية من قديمة وحديثة فلا نجد فيها ذكراً لاصلها . أما الواضع انها ليست من الاوضاع المشتقة من الافعال بل أحرى بها ان تحسب من الاصول الجامدة

كان يظن سابقاً ان أصلها عبري . ثم لما ظهرت في الرقم المسمارية قيل انها أشوريّة . وفي الحقبة الاولى من دراسة الاشوريات حين كان الباحثون يدعون اللغة الشمرية « اكدية » قالوا انها منقولة من هذه اللغة الى الاشورية . بيد إنهُ إذ توصل المحققون ان يثبتوا بان « الشُمَرية » لغة قائمة بذاتها ليست من طائفة الالسن السامية لكونها لغة مقطعية مجاورة غير متصرفة وقد وضعوا لها تدريجاً كتب لغة وصرف ونحو — اتضح اليوم بكل جلاء ان لفظة هيكل وضع شمريّ ولا سامي قطعاً . ومن هذه اللغة نقل الى الاكدية ومنها الى العبرية فالارمية فالحبشية فالعربية

وقال والخلاصة

مما ينجم عن تقصيات المتخصصين ان اللغة الشمرية ليست سامية فلا يجوز أن تنظمها في سلك هذه الالسن . كلمة Ekal شمرية مركبة من علامتين صوريتين وقد أطلقت عند الشمريين على البلاط والمعبد . أدخل الاكديون هذا الوضع الى لسانهم غير مغيرين فيه شيئاً سوى انهم زادوا عليه علامات الاعراب التي لا وجود لها في الشمرية . ومن الاكدية انتقل الى اللغات السامية الاخرى . وفي هذه الالسن لا في الاكدية نفسها المضمحلة منها الحلقيات تحولت الهمزة الى هاء فأصبحت اللفظة بصورة : هيكل

هذه هي الحقيقة العلمية الناصعة وما كان في الكتب او الصحف بهذا المعنى فهو الحري بالاعتبار والاتباع . ومن هذا يتكشف وهن الرأي القائل : أن كلمة « هيكل » سامية الاصل . وهي كذلك او ما يقاربها لفظاً ومعنىً في الارمية والعربية والحبشية والاشورية

والكتاب على هذه الصورة يبحث في نيف وأربعين كلمة بحثاً دقيقاً وافياً فهو خير علماتنا من شرقيين وغربيين على الاطلاق الذين يبحثون في مثل هذه الامور امين المعلوف

القانون الدستوري

تأليف الدكتور وليم ابراهيم والدكتور وحيد رأفت — الاستاذين بكلية الحقوق المصرية
صفحاته ٨٥٢ قطع المقتطف — ثمنه مجلدا ٣٠ قرشاً

جرت العادة ان تقسم دراسة القانون الدستوري قسمين كبيرين : — قسم المبادىء والنظم الدستورية وقسم دستور الدولة وهو في هذه الحالة الدستور المصري . وعلى هذا جرى المؤلفان الفاضلان . فتناولا في الكتاب الاول القواعد والنظم الدستورية بوجه عام من دون ان يحول ذلك دون التعريج على الدستور المصري لضرب الامثلة به وتبيان ما أخذ به من هذه القواعد

وقد تناولا في الباب الاول في فصول حسنة الترتيب وافية البيان الدولة وأساسها ونشأتها وسيادتها وأين مستقرها فيها . والحكومة وأنواعها وأجزاءها والسلطات فيها . وأما الباب الثاني فقد خصاه بالدستور المصري ، وهو في أكثر من ٢٠٠ صفحة ، فهو على ما نعلم أوفى كتاب مدرسي في الدستور المصري وتحليل مبادئه وموادّه . ولم يكتف المؤلفان بذلك، بل جعلا البحث في الدستور المصري ، من النوع القابل ، فأتبعا بعد أن تقرأ المواد الخاصة بسلطة من السلطات وتفسيرها ، تطالع ذيلاً عامًّا فيه بسط لنشأة المبادىء التي تقوم عليها ، وكيف طبقت في دساتير الامم الاخرى المشهورة بنظمها الدستورية . وفي الكتاب الرابع من هذا السفر النفيس موجز دقيق لبعض الدساتير الاجنبية كدستور بلجيكا ودستور فرنسا ودستور انكلترا ودستور الولايات المتحدة الاميركية . ويلحق بذلك جميع الوثائق الرسمية الخاصة بالنظام الدستوري بمصر كنصوص الدستور وقانون الانتخاب واللائحة الداخلية لكلٍّ من مجلسي النواب والشيوخ

ويشهد كاتب هذه السطور انهُ طالع هذا الكتاب مطالعة باحث منقّب ، ولا سيما ما كان منهُ خاصًّا بالدستور المصري وأحكامه . فوجده وافياً بالاغراض التي توخاها المؤلفان الفاضلان، واضحاً في الشرح والتعليق والمقابلة ، وبهذا الحال لو خلا من بعض هفوات مطبعية يسيرة لا تضيره

تاريخ أورطة البنادق الخامسة المشاة

للملازم الاول عبد الرحمن ركي — مطبوعات المتحف الحربي — ٤٢ صفحة — المطبعة الاميرية ببولاق

تناول المؤلف في كتابه وهو الاول من نوعه تاريخ الجيش منذ نشأته في ايام الفراعنة وتطوراته في العصر القديم . وانتقل بعد ذلك الى وصف حالته في العهد الاسلامي فنهضتهُ الوثابة في أيام حكم محمد علي باشا وأشباله العظام . ووقف المؤلف صفحات كتابه الاول على تاريخ الاورطة الخامسة منذ انشاء الجيش المصري الجديد في عام ١٨٨٣ فوصف أهم معاركها وعملياتها الحربية في أقاليم السودان وحوادثها الهامة التي اشتركت فيها وذكر أسماء قوادها ومشهوري ضباطها . كل ذلك أورده المؤلف في اسلوب طلي يغري القارىء غير المحارب بقراءته بشغف

نوابغ الشباب

بقلم احمد قاسم جودة — هدية مجلة الهلال

معرفة سير عظماء الرجال وتراجمهم من الامور المستحبة التي تلذ للجميع مطالعتها ولا سيما تراجم الذين نبغوا منهم في سن مبكرة فتكون نماذج من المثل العليا يسير على غرارها الشباب سواء أفي التضحية كان أم في الايمان والجد والوطنية والاقدام، والتراجم بطبيعتها كما يقول الفيلسوف المشهور كارليل أشمل الموضوعات نفعاً وأعمها لذة ومتعة للنفوس ولا سيما تراجم الممتازين الافذاذ والكتب الموضوعة في هذا الموضوع كثيرة نذكر منها على سبيل المثال اعلام المقتطف ورجال المال والاعمال واساطين العلم الحديث غير ان الاستاذ احمد قاسم جوده أحسن صنعاً باختياره هذا الموضوع وحمله على عظماء الشباب اي ان يكون جميع اصحاب التراجم التي في الكتاب قد بلغوا اوج مجدهم في سن الشباب الباكرة وظلوا حياتهم موسومين بسمة الشباب

واليك بعض الذين ذكرهم في كتابه وأتى على سيرهم واعمالهم: الاسكندر المقدوني ونابوليون بونابرت وتوماس نشارتون وطرفة بن العبد ومصطفى كامل وكيتس الشاعر وغيرهم

وجميع الذين ترجم لهم في هذا الكتاب من رجال السياسة أو الفن أو الادب وكان يحسن ان يضم اليهم سيرة عالم او عالمين من الذين نبغوا في سن الشباب امثال باسكال الذي تعلم هندسة السطوح والاجسام وهو في الثانية عشرة ونشر بحثاً في « هندسة القطوع المخروطية » وهو في السادسة عشرة. ولا جرانج الذي وصف بانهُ « اعظم عالم رياضي حيّ » وهو في الخامسة والعشرين ولافوازييه الذي منح الوسام الذهبي من اكادمية العلوم الفرنسية وهو في الثامنة والعشرين وموزلي وقد كان أحد أركان الطبيعة الحديثة وهو في السادسة والعشرين فكان قتلهُ في جبهة الدردنيل من فواجع الحرب العامة ومن اكبر ما مني به العلم من الخسائر

رئيس التحرير وقصص اخرى

اصدره الاديب صلاح الدين ذهني. وهو طائفة من القصص العصرية المستمدة موضوعاتها من الحياة المصرية دون مبالغة او مخالفة. وامثال هذه القصص تبشر بنهضة طيبة يقوم بها شباب الادباء الذين يتناولون الحياة الاجتماعية بالبحث والتحليل. ولقد قرأت قصصاً كثيرة وضعها ادباء مصريون اختلفت فيها عوامل « التكوين » أو الوضع وتشعبت فيها مناحي البحث وانما قد دعتني كلها الى الاعتراف بأن النثر العربي وإن كان قد تطور وارتقى حتى اصبح في مكنة الكاتب المثقف ان يتخذ منهُ أداة لبحث معضلات الحياة والنفس الانسانية الا انهُ لما يزل في حاجة قصوى الى المرونة والتهذيب والصقل والنزوة اللفظية. حتى يقوم بما يقوم به

النوع في اللغات الحديثة الاوربية وحتى يؤدي رسالته في الادب كاملة . قلنا تكثر ان بعض الكتاب مما يعرضون للابحاث الاجتماعية والنفسية بنوع خاص قد يقفون قاصرين دون التعبير عما يجول بعقولهم من آراء وفكر . وبنفوسهم من نزعات ورغبات . وعما يشاهدونهُ في الحياة من ألوان وصور . ولن يكون « الهيكل القصصي » متيناً ، مؤثراً الاَّ اذا صب فيه الكاتب المعنى القوي العميق واستطاع ان يطوّع له اسلوباً رصيناً لا يتوره ضعف او فتور . وأحب ان اثبت في هذه العجالة ان هذه القصص تستمد شيئاً غير قليل من نفسية المؤلف كما انها لا تخلو في مواضع كثيرة من أثر قراءته للقصة الاوربية . ولست اعني هنا التقليد فالمؤلف قد ترك هذه المرحلة وانما اعني انهُ يستقيء في ابحاثه الاجتماعية بالمنحى الخاص الذي يعرض لهُ ادباء القصة في الادب الاوربي . والقصة في الادب الفرنسي مثلاً تعرض للاخلاق في شيء كثير من التفصيل والايضاح وتعرض للحياة الزوجية في شيء غير قليل من العناية الخاصة . انها تعالج الاجتماع في شتى صوره وأوضاعه . واما القصة في الادب الروسي فتفتح امام القارىء ميادين كثيرة للبحث والاهتمام . هي تعنى بأوضاع الحياة الانسانية وتعالج مشكلات الفقر والعمل والتعليم كما ان القصة في الادب الانكليزي قد تبحث مشكلة النسل والعناية بالطفل وتعرض في اغلب الاحيان لدرس الحياة الاجتماعية العامة . فانني لست انسى انني اذا قرأت مسرحية لـ « شو » او قصة لـ « ولز » او « هكسلي » تبينت عقب قراءتي « الفكرة » والمثل الاعلى مما يعمد المؤلف الى إثباته ليكي يخرج منهُ القارىء بالفائدة المرجوّة . ولعلي لا أعدو الحقيقة اذا قلت ان هنالك صوراً كثيرة من الحياة المصرية مما احتوتهُ من عادات وتقاليد قد بحثها المؤلف فأجاد بحثها . كما انهُ وفق الى حد بعيد في ان يتخذ من موضوع المرأة سبيلاً الى استهواء القارىء . والجمال في قصصه شيء يتركه المؤلف لطبيعة الموقف فلا يخلق منهُ تنسيقاً بذاته وهذا ما يطبع أسلوبه الفكري بالطابع الواقعي . ولقد ترى هذا عندما يتحدث عن الحياة حديث الرجل العادي لا حديث الفيلسوف الذي يتبينها طبقاً لنظرته وبصيرته فهو يرسم باختصار حقائق الاجتماع ما يسر منها وما يحزن ولعل من خير ما أعجبت به قصة « حسنة » وما فيها من حوار أعاد الى ذاكرتي « التحقيق الجنائي » لصاحب يوميات نائب في الارياف وما فيه من حوار وذكريات ومواويل بلدية — ولست أحكم هنا ان كان منطق الحديث نفسهُ يدعو الى تكرار بعض العبارات في سياق الحوار . واذا كان هذا يطغى أو لا يطغى على الوضع الطبيعي للقصة

وبعد فالمؤلف يضبط على توجيهه السليم ولانهُ لا يشعر القارىء بشيء من الضجر أو السآمة وذلك لانهُ لا يعجز عن التجوال في مختلف الميادين وهذا ما يهيء له مكانة ملحوظة في الادب القصصي

حليم دموس

السيد رشيد رضا او أخاء ٤٠ سنة

تأليف الامير شكيب ارسلان — طبع بمطبعة ابن زيدون بدمشق صفحاته ٨٣٢ بقطع المقتطف

«وبعد هذا فلا شك في انهُ اذا وزن عمل كل من اعيان هذا العصر بمن من اعيان كل عصر كان السيد الامام محمد رشيد رضا من أرجحهم ميزاناً وأوفاهم قسطاً لا يجحد ذلك الا من رانت عليه الضلالة او اعماه الغرض . واني لاجد لشكر مناقبه والتنويه بقدره والاشادة بحسناته الكثيرة والاثارة لبراهينه الساطعة من عزائم الله الموجبة وفرائضه المبرمة عملاً بقوله تعالى (وزنوا بالقسطاس المستقيم) هذا مضافاً الى ما كان بيننا من الاخاء القديم والذمام المتين والرمي عن قوس واحدة والاقتداء بامام . لا جرم اني ارى رجعتي له ديناً علي لا يجوز ان أتوى به ما دامت لي أنامل تمسك القلم »

هذه جملة من مقدمة الكتاب تدل القارىء الكريم على نهج ما كتبه عطوفة الامير شكيب ارسلان عن صديقه السيد الامام محمد رشيد رضا طيب الله ثراه بعد وفاته فقد سجل سيرته في هذا السفر النفيس فأتى بترجمة حياته من قلمه رحمه الله وأتى ببعض ما نظمه وكتبه عنه في حياته وبعد مماته ونشر الكتب التي ارسلها اليه بعد ما حذف منها ما اقتضى الزمن الحاضر حذفه لاسباب خاصة

والامير شكيب علم من اعلام البيان في هذا العصر وهو آية الاخلاص والوفاء لاصدقائه كتب سفراً مسهباً عن المرحوم احمد شوقي بك كان له احسن الوقع في النفوس وها هو ذا يتحف القراء بسفر اوسع في سيرة امام من ائمة الاسلام وقد قال فيه رائياً : —

مضى الذي كان فيه منتهى أملي ومن لشدت لتطبيبي وتهذيبي
ومن عن الاخذ عنهُ شد راحلتي ومن للقياه إسآدي وتأديبي
شعرت أن خلت الدنيا بمصرعه لم يكفني طول تشريدي وتغريبي
فمن أناجيه بعد اليوم في حزني ومن أرى بثه بثي وتعذيبي
واهاً على حجة الاسلام حين خبا ذاك الشهاب بليلات غرابيب
واهاً على علم الاعلام حين هوى فلا تصادف قلباً غير منخوب
هوى وكل جبال العلم دانية عن شأوه فهي منهُ كالاهاضيب
اين الذي كان ان اجرى يراعته في أي فن اتانا بالاعاجيب

فالكتاب آية من آيات الوفاء وتنويه بقدر عالم كبير وصديق حميم يستحق اعجاب القراء والعناية به والانتفاع بما حواه من سيرة طيبة وكتب خاصة نفت على نصف صفحات الكتاب والمعلوم ان الكتب الخاصة تكون لها منزلة ممتازة فلو نشرها المؤلف كما هي لكان لها شأن آخر. وفي الكتاب نص المقصورة الرشيدية الكامل تتوجه الانظار الى هذا الكتاب

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الثاني والخمسين

٤٨٣ بعد عهدي بعلم الفلك : للدكتور فارس نمر باشا
٤٩٠ الليل في صحراء مصر : للشاعر المستر وليم جراي
٤٩١ ابو العلاء المعري وفلسفة التاريخ : لعلي ادهم
٤٩٩ الانسان والنبات : للدكتور محمد بهجت
٥٠٥ قصب السرعة بين الاحياء
٥٠٨ الانسان المجهول : للعلامة الكسيس كارل : تلخيص اسماعيل مظهر
٥١٢ في الادب : للطرائي
٥١٣ زواج الاقارب اضار هو ام نافع : للدكتور ليني لنز
٥١٥ الدستور والروح الوطنية في الشعر الحديث : لانيس المقدسي
٥٢٦ الانسان الآلة : لفليمون خوري
٥٢٩ العبقرية والنبوغ : للدكتور شريف عسيران
٥٣٧ تفرق الجرات : حقائق الموضوع
٥٤٢ ابن سينا : بقلم متوشر مؤدب زاده
٥٤٧ الجيش المصري والاستكشاف في افريقيا : للملازم الاول عبد الرحمن زكي
٥٥١ الياس فياض وقصيدة النجوم : ليوسف البعيني
٥٥٥ أسعد باسيلي باشا : لنقولا شكري
٥٦٠ تقدم الري بمصر في العصر الحديث : لعالي جسين سري باشا
٥٦٣ حديقة المقتطف * رولاً : لالفريد دي موسيه : ترجمة فليكس فارس
٥٨٥ سير الزمان * اوربا المتوسطة والشرقية : — مرحلة التفوق الفرنسي . مرحلة السلامة المشتركة . انحلال السلامة المشتركة . خاتمة
٥٩٦ مكتبة المقتطف * تآليف المستشرقين بقلم الدكتور بشر فارس . الشعر الاندلسي . المقتبس في تاريخ رجال الاندلس لابن حيان . اخبار النحويين البصريين . مقدمة ابن خلدون . مجلة الدراسات الاسلامية . الفصول والغايات . الطلل السندسية . المعجبة العربية . القانون الدستوري . تاريخ أورطة البنادق الخامسة المشاة . نوابغ الشباب . رئيس التحرير وقصص أخرى . السيد رشيد رضا

JANUARY—MAY 1938 يناير الى مايو سنة ١٩٣٨

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئها

الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر

انشئت سنة ١٨٧٦

المجلد الثاني والتسعون

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by: FUAD SARRUF

VOL. 92

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الثاني والتسعين

من المقتطف

	وجه
(ا)	
ابو جعفر المنصور وابو مسلم	٤١
* ابولون ودني	٢٠١
ابو العلاء المعري وفلسفة التاريخ	٤٩١
* ابن سينا	٣٢٣ و٥٤٢
الاحساس شدته والاستهداف	٦٦
اختلاط ملونة من الذهب	١١٣
الادب الحديث عواملهُ الفعّالة	١٤١ و٢٩١ و٣٧١ و٥١٥
* ادبصن ذكراهُ	٣٥٥
الارض ايتها (قصيدة)	١٨٩
اسرحدون (قصة)	٤٢٧
* الاشعاع قديماً وحديثاً	١٢٥
الاشعاع مدى طيفه	١٢٦
الاقارب زواجهم	٥١٣
اقبال الشاعر	١٧٦
و ٣٣٣ و٤١٥	

	وجه
الاقتصاد ومشكلة العالم	٤٥٧
الى وكرك ياقلبي (قصيدة)	٤٠٣
الياس فياض	٥٥١
انابيب البيرا من الزجاج	١١٢
الانسان الآلة	٥٢٦
الانسان المجهول ٩ و١٥١ و٥٠٧	
الانسان والنبات	٤٩٩
الاورانيوم عنصر ان اثقل منهُ	٤٧١
* اوربا المتوسطة والشرقية	٥٨٥
الاوزون طبقتهُ	٤٣٢
(ب)	
* باسيلي باشا	٥٥٥
البردي مؤتمرهُ	٥٦
بوز العالم الهندي	٣٠
(ت)	
التعليم تجربة فيه	٩٥
التعليم والتربيات الاجتماعية	٢٧٩
التقدم فكرتهُ	٣٨٤

	وجه
التلفزة الملوّنة	٤٧٢
التوائم اسرارها	١٧١
(ث)	
الثقافة بعثها والنهضة	٤٠٤
الثلج (صورة)	١
(ج)	
* الجيش المصري واستكشافاته الافريقية	٣٩٦ و٥٤٧
(ح)	
* حتي الدكتور فيليب	١٦٥
حكم انكليزية ويابانية	٦
حواء الخالدة (قصيدة)	٣٢٨
حيوانات مشهورة	٧٠
(خ)	
الخدمة الاجتماعية مدرسة لها في مصر	١٠٠
الخلق القومي في المانيا وفرنسا وانكلترا	٤٥١
(د)	
الدستور المباني الزمات الادبية قبلهُ	١٤٢ و٢٩١

وجه
الدهن وأنواعهُ ٥٨
الدهن والشحم ٢٣٨، ٤٦٦
(ذ)
الذرة بناؤها الكهربائي ٣٠٧
الذهب أخلاطهُ الملونة ١١٣
(ر)
الروح الوطنية في الشعر الحديث ٥١٥
روسيا على مفترق الطرق ٨٩
رولا : لموسيه ٥٦٣
الري في مصر تقدمهُ ٥٦٠
(ز)
الزجاج والحضارة الحديثة ٢٥٩
زواج الاقارب ٥١٣
(س)
سافو لحنها الضائع ٥٦
السراب (قصيدة) ٤٤٣
السرعة قصبها في الاحياء ٥٠٦
(ش)
* الشاعر بيته (قصيدة) ٤٠
الشلة الدستورية ٣٧١
والادب العربي ٣٠
الشعور في النبات ١٨٣٧
الشؤون الدولية سنة ٢١٦
وجه
(ص)
* صور مصرية ٢٥٩
(ط)
الطفل الاعمى ٢٣٧
الطفل الشريد ٢٢٧
الطفل الالقيط ٢٣١
الطفل المتأخر ٢٦٧
الطفل اليتيم ٢٣٤
الطفولة يومها ٢٢٥
الطيران قصب السبق فيهِ ١١١
الطير تقريده ١٥٩
(ع)
العبقرية والنبوغ والوراثة ٥٢٩
* العرب تاريخهم تأليف حتي ١٦٤
العلل الوراثية ٣١٣
العلم والدمقراطية ١١٢
العلم والمال ١
عمرو بن العاص ١٩١، ٣٣٤
(غ)
الغدة الكظية ٤٧٣
الغزالي رباعياته ٧٣، ٢٠٥
(ف)
الفلسفة العربية ما أخذت وما أعطت ٣٠١، ٤١١
وجه
الفلك يمد عهدي بهِ ٤٨٣
(ق)
القمر عمره ١٠٨
(ك)
كارتيه الرائد (صورة من رحلته) ٤٨٣
الكربون مقامه في الافعال الحيوية ٤٢٣
* كوري جوليو ١٣٧
الكون هندستهُ ٢٤١، ٤٦٢
الكوائم وطبيعة الاشعاع ١٣٢
(ل)
* لوراس الطبيعي ١٣٧
الليل في صحراء مصر ٤٩٠
الليتوتيب مصنعهُ ١٧
ليتن والرواية ٥٢
(م)
ماساريك الرئيس ٢٠٩
المجرات ٣٥٥
المجرات تفرقها ٥٣٧
المخاطبات الكهربائية ٢٨٣
مفرق الطريق (مسرحية) لحق بمقتطف مارس بعد صفحة ٣٥٤
مفرق الطريق حوفا ٤٦٧

وجه

مكتبة المقتطف ١١٤ — ١٢٣
و ٢٤٤ — ٢٥٧ ، ٣٤٥ —
٣٥٣ و ٤٧٤ — ٤٨١
و ٥٩٦ — ٦٠٩
* الملك والملكة فرانهام ٣٢٥
المواصلات الكهربائية
مؤتمر الدولي ٣٣٨

(ن)

النبات مقرداته ١٩٧
النسل اصلاحه ٣٣
* النشاط الاشعاعي
الصناعي ١٣٧
نوبل جائزته الطبية ١٠٩
نوبل جائزته الطبية ١١١
نوبل جائزته الكيمياوية ١١٠

(هـ)

هابر فرتز الكيمياوي ٣٩١
هندنبرج المنطاد رحلته
الاخيرة ٤٦٨

(و)

الوحدة العربية ٨١
*وردزورث الشاعر وبيته ٤٠

(لا)

اللاسلكي التنافس في
الدعاية به ٣٢٢
اللاسلكي والاذاعة
المصوَّرة ٤٣٥

(ي)

اليمُّ مكتشفات العلم فيه ١٨٣